سمرة

مارسيل إيميه

الرجل الذي يعبر الجدار

Telegram:@mbooks90

ترجمة: سعيد بوكرامي

الرجل الذي يعبر الجدار
مارسيل إيميه
ترجمة: سعيد بوكرامي
منشورات سدرة
بريد إلكتروني:
Sidra.publisher@gmail.com
إنستجرام:
@sidrapublishing
تويتر:
@sidrapublishing

جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

الرجل الذي يعبر الجدار

في حي مونمارتر، وفي الطابق الثالث، الشقة رقم 75 مكرر في شارع دورشا، كان يقيم رجل حاذق يدعى دوتوي. رجل يمتلك موهبة عجيبة فريدة تتمثل في قدرته على عبور الجدران بيسر وسهولة. كان يرتدي نظارة فوق أنفه، بلا ذراعين فوق الأذنين، لحيته صغيرة سوداء بارزة فوق الذقن. كان موظفًا من الدرجة الثالثة في وزارة السجلات. في الشتاء، كان يذهب إلى مكتبه بالحافلة، وفي الصيف يقطع المسافة سيرًا على الأقدام معتمرًا قبعته اللبادية المستديرة.

كان دوتوي قد بلغ لتوه عامه الثالث والأربعين عندما اكتشف قوته الخارقة. في إحدى الأمسيات، فاجأه في دهليز شقته الصغيرة انقطاع قصير للتيار الكهربائي، فأخذ يتلمس طريقه في الظلام، وعندما عادت الكهرباء، وجد نفسه أمام عتبة الطابق الثالث. وبما أن بابه الأمامي كان مغلقًا من الداخل، فقد دفعته الحادثة إلى التفكير مليًا في هذا الأمر العجيب. وعلى الرغم من استنكار عقله للحادث، قرر العودة إلى الشقة بالطريقة نفسها، أي مرورًا عبر الجدار. خال أن هذه القدرة الغريبة لا تتوافق مع أي من تطلعاته، لكنه شعر ببعض الإزعاج، وفي اليوم التالي -كان يوم السبت-استغلَّ خروجه من العمل ساعة الظهيرة، فذهب للبحث عن طبيب في الحي ليعرض عليه حالته.

Telegram:@mbooks90

تمكن الطبيب من إقناع نفسه بأن ما يقول حقيقي، وبعد الفحص اكتشف أن سبب الداء يكمن في تصلب حلزوني في غشاء الغدة الدرقية، فعزا الأمر إلى حالة من الإجهاد المفرط، وأوصاه بتناول حبتين في السنة من مسحوق البيريت رباعي التكافؤ، وهو خليط من دقيق الأرز وهرمون القنطور. بعد أن تناول دوتوي الحبة الأولى، وضع الدواء بعيدًا في الدرج ولم يفكر في الأمر بعد ذلك. أما بالنسبة إلى الإرهاق الشديد، فقد كان نشاطه بصفته موظفًا حكوميًا تنظمه عادات لا تسمح بأي إفراط في العمل المجهد، كما أن ساعات فراغه المخصصة لقراءة الجريدة وجمع الطوابع لم تلزمه إهدارًا مبالغًا فيه لطاقته. وبعد مضي عام، حافظ على قدرته على عبور الجدران، لكنه لم يستخدمها قط إلا سهوًا، لأن صاحبنا لم يكن شديد الفضول

لخوض المغامرات ولا حرونا إزاء إغراءات الخيال. كما أنه لم يفكر قط في أن يدخل منزله إلا من بابه وبعد أن يفتحه بمفتاحه.

ربما كان سيقضي حياته كلها في سكينة مستغرقًا في عاداته دون أن يشعر بإغراء حقيقي لوضع مواهبه على المحك، لكن واقعة غير عادية قلبت حياته فجأة رأسًا على عقب. فقد انتقل السيد مورون، نائب رئيس مكتبه، بعد استدعائه لمهام أخرى، فاستبدل به السيد ليكويي، الذي كان قليل الكلام وذا شارب شبيه بفرشاة الأسنان.

ومنذ اليوم الأول عامل نائب المدير السيد دوتوي بارتياب، عندما رآه يضع نظارة ذات سلسلة، وتبرز من وجهه لحية صغيرة سوداء، تمادى في معاملته كالشيء القديم المزعج والقذر بعض الشيء. لكن ما زاد الطين بلة أنه قرر إجراء بعض الإصلاحات الهامة في إدارته، كانت مدروسة بإتقان لزعزعة طمأنينة مرؤوسه. على مدى عشرين عامًا، دأب دوتوي على استهلال رسائله بالصيغة الآتية: «بالإشارة إلى رسالتكم المحترمة عن الحصة النسبية في المبلغ الحالي، وردًا على الرسائل المتبادلة السابقة، يشرفني أن أبلغكم...». غير أن السيد لوكوييه عدّل هذه الصيغة بأخرى ذات طابع أمريكي: «ردًا على رسالتكم بتاريخ...، أعلمكم...» لم يتمكن دوتوي من اعتياد هذا الأسلوب في المراسلات، فعاد مرغمًا إلى الطريقة التقليدية نفسها، وبعناد آليّ أكسبه عداء متزايدًا من نائب الرئيس.

أصبح جوّ العمل في وزارة التسجيل لا يطاق. في الصباح، يذهب إلى عمله متخوفًا، وفي المساء، عندما يلجأ إلى فراشه قبل أن يخلد للنوم، كثيرًا ما يتأمل حقيقة وضعه، يستغرق ذلك ربع ساعة كاملة من التفكير.

بعد أن شعر السيد ليكويي بالاشمئزاز من هذه الإدارة الرجعية التي أضعفت نجاح إصلاحاته، نقلَ دوتوي إلى غرفة صغيرة نصف مظلمة مجاورة لمكتبه. يلجها من باب منخفض وضيق تلوح في الممر، كُتب على لوح فوق بابها وبأحرف كبيرة: **غرفة التخزين**. قبل دوتوي هذا الإذلال غير المسبوق بقلب مستسلم، لكن في منزله، وبعدما قرأ في جريدته حكاية عن حادث دمويّ، وجد نفسه يتخيل أن السيد ليكويي هو ضحيته.

في أحد الأيام، اقتحم نائب الرئيس الغرفة الصغيرة وهو يلوح برسالة وبدأ بالصراخ:

- أعد كتابة هذه الكتابة المبتذلة مرة أخرى! أعد كتابة هذه القذارة مرة أخرى، أنت تهين إدارتي!

أراد دوتوي أن يحتج، لكن السيد ليكويي، هدر بصوت مدو، واصفًا إياه بالصرصور الروتيني. وقبل أن يغادر، جعّد الرسالة التي كانت في يده ورماها على وجهه.

كان دوتوي رجلًا متواضعًا لكنه عزيز النفس. مكث وحيدًا في غرفته الصغيرة يغلي من شدة الغضب. وفجأة، شعر أنه فريسة للإلهام، فترك مقعده ودخل في الجدار الذي يفصل مكتبه عن مكتب نائب الرئيس، لكنه دخله بحذر، فلم يخرج سوى رأسه من الجانب الآخر، رأى ليكويي جالسًا إلى مكتبه وهو لا يزال يحرك بعصبية قلمه ويضع فاصلة في نص الموظف الذي قدمه له للحصول على موافقته. عندما سمع سعالًا في مكتبه رفع عينيه، فاكتشف بذهول لا يوصف رأس دوتوي عالقًا على الحائط مثل جائزة الصيد، مع فارق أن ذلك الرأس كان حيًا. فرمق النظارة ذات السلسلة، والعينين الممتلئتين بنظرة في منتهى الكراهية، لكن ما زاد الوضع فظاعة أن الرأس طفق يتكلم، وقال:

- سيدي، أنت داعر وفظ ووغد.

لم يستطع السيد ليكويي الفاغر فمه رعبًا أن يحيد ببصره عن هذا الظهور المباغت.

وأخيرًا، انتزع نفسه من كرسيه وقفز إلى الممر وركض إلى الغرفة الصغيرة.

فوجد دوتوي ممسكًا قلمه بين يديه، وجالسًا في مكانه المعتاد في وضعية هادئة ومثابرة على العمل. نظر إليه نائب الرئيس طويلًا، وبعد أن دمدم ببضع كلمات عاد إلى مكتبه. لكن حالما استوى في جلسته عاد الرأس إلى الظهور على الحائط.

- سيدي، أنت داعر وفظ ووغد.

خلال ذلك اليوم، ظهر الرأس المخيف على الحائط ثلاثًا وعشرين مرة، وفي الأيام التالية بالمعدل نفسه. اكتسب دوتوي بعض السهولة في ممارسته هذه اللعبة، لكنه لم يعد قانعًا بأن يشتم نائب الرئيس فحسب، فأطلق تهديدات غامضة وصيحات، على سبيل المثال: كان أحيانًا يتحفه بصوت الموتى العائدين، فيما يتخلله ضحك شيطاني:

- إياكم الرجل الذئب! إياكم الرجل الذئب! إن المستذئب قادم إليكم! (ضحك). إن رعبه سيدمركم عن بكرة أبيكم (ضحك).

عقب سماع ذلك يصبح نائب الرئيس المسكين شاحبًا، منقطع الأنفاس قليلًا، ثم ينتصب شعر رأسه وينزل عرق ألم رهيب على كامل ظهره. في اليوم الأول خسر رطلًا واحدًا. في الأسبوع الذي تلاه، بدأ يذوب بشكل شبه ظاهر، واعتاد أن يتناول الحساء بالشوكة ويلقي التحية العسكرية على رجال الشرطة. في بداية الأسبوع الثاني، نقلته سيارة إسعاف من منزله إلى دار لرعاية المسنين. تمكّن دوتوي الذي تحرر من طغيان السيد ليكويي من العودة إلى صيغه المحبوبة:

«إشارة إلى خطابكم المبجل الوارد إلينا بتاريخ كذا من الشهر الحالي...» ومع ذلك لم تكن نفسه راضية. شيء ما بداخله كان يحثه على تلبية حاجة ملحة جديدة، ولم تكن تلك الحاجة سوى الرغبة في عبور الجدران.

بلا ريب كان يمكنه أن يفعل ذلك بسهولة، في بيته مثلًا، وقد فعل ذلك سابقًا. لكن الرجل الذي يمتلك هذه الهبة الرائعة لا يمكن أن يكتفي بممارستها بطريقة متواضعة. لا يمكن أن يكون المرور عبر الجدران غاية في حد ذاته. إنها بداية مغامرة تستدعي المتابعة والتطوير، وباختصار تحتاج إلى مكافأة. لقد استوعب دوتوي هذا الأمر جيدًا.

لقد استشعر بداخله حاجةً إلى توسيع موهبته، ورغبةً متزايدة في الإنجاز والتفوق على نفسه، وحنينًا محددًا يشبه نداء من وراء الجدار. لسوء الحظ، كان يفتقر إلى هدف، فبحث عن الإلهام من خلال قراءة الجريدة، خاصة الصفحات المتعلقة بالسياسة والرياضة التي بدت له أنشطة جديرة بالاحترام، لكنه أدرك أخيرًا

أنها لا تقدم منفذًا للأشخاص الذين يمرون عبر الجدران، فعاد إلى الأخبار، فتبين له أنها المصدر الأكثر إيحاءً.

كانت أول عملية سطو يقوم بها دوتوي في مؤسسة ائتمانية كبيرة توجد على الضفة اليمنى. بعد أن مر عبر عشرات الجدران والحواجز، دخل إلى خزائن مختلفة، وملأ جيوبه بالأوراق النقدية، وقبل أن ينسحب، وقّع بالطباشير الأحمر سرقته، وباسم مستعار «الرجل المستذئب»، بخط في غاية الجمال، استنسخته الصحف كلها في اليوم التالي. في نهاية الأسبوع، عرف اسم الرجل المستذئب شهرة واسعة وغير عادية. وبذلك حصل هذا السارق المرموق الذي سخر من الشرطة بطريقة طريفة، على تعاطف شعبي مطلق.

كان يعلن عن نفسه كل ليلة من خلال إنجاز جديد ينفذه إما على حساب أحد البنوك وإما على حساب صائغ أو أحد الأثرياء. في باريس كما في المقاطعات الأخرى، لم تكن هناك امرأة حالمة إلا وراودتها الرغبة الشديدة في أن تمنح جسدها وروحها لهذا المستذئب الرهيب. وبعد سرقة ألماسة بورديغالا الشهيرة وعملية السطو على مصرف البلدية التي حدثت في الأسبوع نفسه، بلغت حماسة الجمهور منزلة الهذيان؛ ما اضطر وزير الداخلية إلى الاستقالة، وأخذ في طريقه وزير التسجيل. في حين أصبح دوتوي أحد أغنى الأشخاص في باريس، كان دائمًا ملتزمًا مواعيده في مكتبه ويدور الحديث عن ترشيحه للحصول على جوائز أكاديمية. في الصباح، خلال وجوده في وزارة التسجيل، كان من دواعي سروره الاستماع إلى التعليقات التي يدلي بها الزملاء حول مآثره في اليوم السابق. كانوا يقولون عنه: «إن المستذئب رجل رائع، إنه سوبرمان وعبقري».

عند سماعه هذا المديح، يتحول وجه دوتوي إلى اللون الأحمر، فيظهر عليه الارتباك، وخلف النظارة ذات السلسلة، كانت عيناه تتألقان امتنانًا ومودة. في أحد الأيام، منحه هذا الجو من التعاطف ثقة كبيرة، ففكر في أنه لن يستطيع الاحتفاظ بالسر طويلًا.

نظر بقليل من الخجل إلى زملائه المتحلقين حول صحيفة تتحدث عن سرقة بنك

فرنسا، فأعلن بصوت متواضع:

- ألا تعرفون أني أنا الرجل المستذئب!» فتعالت القهقهات المتواصلة واستقبلت اعتراف دوتوي بسخرية عارمة. في المساء، عندما حان وقت الانصراف من العمل، أضحى من جانب رفاقه موضوع نكات لا حصر لها وهنا بدت له الحياة أقل جمالًا.

بعد بضعة أيام، ألقت دورية ليلية القبض على الرجل المستذئب في متجر مجوهرات في شارع لابي. كان قد وضع توقيعه على عداد النقود وبدأ يغني أغنية المخمورين ويحطم نوافذ المتاجر بمساعدة قدح من الذهب الخالص. كان بمقدوره أن يغوص بسهولة في الحائط، وبذلك يمكنه الهروب من الدورية الليلية، لكن كل شيء يشير إلى أنه تعمد أن يُقبض عليه وربما لغرض وحيد هو إرباك زملائه الذين أهانوه بشكوكهم.

في الواقع، فوجئ زملاؤه تمامًا عندما نشرت صحف اليوم التالي صورة دوتوي على صفحتها الأولى. لقد أعربوا بمرارة عن أسفهم لأنهم تجاهلوا رفيقهم اللامع ولتكريمه أطلقوا جميعهم لحية صغيرة، وبدافع الندم والإعجاب، حاولوا السطو على المحافظ أو الساعات العائلية لأصدقائهم ومعارفهم.

اعتقد زملاؤه أن سماحه للشرطة بأن تلقي القبض عليه كان بداعي إبهار عدد قليل منهم، لكن ذلك يشهد على طيش وتهور لا يليق برجل استثنائي مثله، كما لم يكن لإرادته دور يذكر ساعة اتخاذه قراره. لقد اعتقد دوتوي أن تنازله عن حريتِه، يستجيب لرغبة متعجرفة في الانتقام منهم. في حين كان ببساطة ينحدر إلى مصيره المحتوم. عندما يكون الرجل قادرًا على اختراق الجدران، فلا يمكن القول إنه ذو حرفة حقيقية إلا إذا جرب السجن ولو مرّة واحدة على الأقل.

عندما أدخل دوتوي مبنى السجن، شعر أن القدر يتساهل معه ويدلله. بالنسبة إليه، كان سمك الجدران متعة حقيقية. في اليوم التالي لسجنه، اكتشف الحراس بدهشة أن السجين قد دق مسمارًا على جدار زنزانته وعلق عليه ساعة ذهبية تخص مدير السجن. لم يستطع أو لم يرغب في الكشف عن طريقة وصول هذا الشيء إلى زنزانته وصار بحوزته. أعيدت الساعة إلى مالكها، وفي اليوم التالي، عثر فوق مخدة

الرجل المستذئب على المجلد الأول من الفرسان الثلاثة المستعار من مكتبة المدير.

كان العاملون في السجن في حالة توتر. كما اشتكى الحراس من تعرضهم للركل من الخلف، وهو ما لا يمكن تفسيره. يبدو أنه لم يعد للجدران آذان، بل أرجل. استمر اعتقال الرجل المستذئب طوال أسبوع، وذات صباح، عند دخوله مكتبه، وجد مدير السجن الرسالة التالية موضوعة على طاولته:

«سيدي المدير. بالإشارة إلى المقابلة التي أجريناها في السابع عشر من الشهر الحالي، وتعقيبًا على تعليماتكم السابقة بتاريخ 15 مايو من العام الماضي، يشرفني أن أبلغكم أنني انتهيت للتو من قراءة المجلد الثاني للفرسان الثلاثة وأنوي الهروب هذه الليلة بين الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة والحادية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة. وتفضلوا سيدي، بقبول فائق احترامي العميق.

الرجل المستذئب»

على الرغم من تشديد المراقبة التي تعرض لها في تلك الليلة، هرب دوتوي في الساعة الحادية عشرة والنصف. وقد علم الجمهور في صباح اليوم التالي، فأثار حماسة كبيرة في كل مكان. وبعدما نفذ عملية سطو جديدة بلغت شعبيته ذروتها، بدا دوتوي غير مهتم بالاختباء وشرع يتجول عبر مونمارتر دون أي احتياطات. بعد ثلاثة أيام من هروبه، قُبض عليه في شارع كولانكور في مقهى ريف، قبل الظهيرة بقليل، كان يشرب نبيذًا أبيض بالليمون برفقة أصدقائه.

أُعيد إلى السجن وحُبس بأقفال ثلاثية في زنزانة مظلمة، هرب الرجل المستذئب في المساء نفسه وذهب للنوم في شقة المدير، وبالتحديد في غرفة الضيوف. في صباح اليوم التالي، قرابة الساعة التاسعة صباحًا، اتصل بالخادمة لتناول الإفطار، وترك حراسه يقظين لاصطحابه من السرير دون مقاومة. غاضبًا، أقام المدير نقطة حراسة على باب زنزانته وأمر بأن لا يقدم له طعامًا سوى الخبز. عند الظهيرة، ذهب السجين لتناول طعام الغداء في مطعم قريب من السجن، وبعد أن شرب قهوته، اتصل هاتفيًا بالمدير.

- مرحبًا! سيدي، أنا في حيرة من أمري، لكن قبل قليل، عندما خرجت، نسيت أن آخذ محفظتك، لهذا أنا عاجز عن سداد قيمة المطعم. هل تتفضل بإرسال شخص ما ليدفع الفاتورة؟

جاء المدير راكضًا شخصيًا غاضبًا غضبًا شديدًا، فأطلق العنان للتهديدات والشتائم. شعر دوتوي أن المدير مسه في كبريائه، فهرب في الليلة التالية ولم يعد قط. هذه المرة، اتخذ احتياطات جديدة: حلق لحيته السوداء الصغيرة واستبدل بنظارته ذات السلسلة نظارةً مصنوعة من صدف السلحفاة، واعتمر قبعة رياضية وارتدى بدلة ذات مربعات كبيرة متناسقة مع بنطال لعبة الغولف. ثم انتقل إلى شقة صغيرة في شارع جونو التي نقل إليها قبل أن يقبض عليه في المرة الأولى بعضًا من أثاثه، وبعضًا من ممتلكاته الثمينة. بدأ ضجيج شهرته يتعبه، فمنذ اعتقاله في السجن، كان يشعر ببعض الملل من متعة المرور عبر الجدران. بدت له الجدران الأكثر سمكًا ومناعة مجرد ستائر سهلة، وشرع يحلم بالغوص في قلب هرم ضخم. ونضج في رأسه مشروع رحلة إلى مصر، لكن في انتظار ذلك عاش حياة أكثر هدوءًا، بين مجموعة طوابعه والسينما والنزهات الطويلة عبر مونمارتر. وقد بلغ تحوله درجة من الكمال بحيث كان يمر حليقًا أنيقًا بنظارته الصدفية أمام أفضل أصدقائه، دون أن يتعرفوا عليه. لكن الرسام جين بول -الذي لا يمكن أن يفلت منه شيء من التغيير في وجه ساكن قديم في الحي- انتهى به الأمر إلى اختراق هويته الحقيقية. ذات صباح عندما وجد نفسه وجهًا لوجه مع دوتوي في زاوية شارع لابروفوار، لم يستطع أن يمنع نفسه من مخاطبته بلغته العامية الفظّة:

- يا فتى، أرى أنك تلعب لعبة السحلية، لتتخفى عن المخبرين. ويقصد بكلامه «أرى أنك تنكرت في زي أنيق لإرباك مفتشي الشرطة».

غمغم دوتوي:

- يا ويلي، لقد عرفتني!

انزعج من ذلك وقرر الاستعجال في رحيله إلى مصر. في عصر ذلك اليوم نفسه، وقع في حب امرأة شقراء في غاية الجمال التقاها مرتين في شارع ليبيك،

بفارق خمس عشرة دقيقة عن كل لقاء. فنسي على الفور مجموعة طوابعه ومصر والأهرامات. من جانبها، نظرت إليه الشقراء باهتمام كبير.

لا يوجد شيء يذكي خيال فتيات اليوم مثل سراويل الغولف ونظارة من الصدف. ولا يوجد ما يؤجج رغبتهن في الثراء والحلم بالمشروبات والليالي الملاح في كاليفورنيا. لسوء الحظ، فإن المرأة الجميلة، التي حدّثه عنها جين بول، كانت متزوجة من رجل عنيف وغيور. هذا الزوج المشتبه فيه، يعيش حياة المتعة والفجور، هجر زوجته بانتظام بين الساعة العاشرة مساءً والساعة الرابعة صباحًا، ولكن قبل الخروج، يأخذ احتياطاته بأن يحبسها في غرفتها، ويغلق الباب عليها بقفلين، كان يحكم إغلاق النوافذ أيضًا. أما خلال النهار، فكان يراقبها من كثب، وفي بعض الأحيان كان يتبعها في شوارع مونمارتر.

- إنه بالمرصاد دائمًا، ماذا دهاك. انتبه، إنك تدس أنفك في ما لا يعنيك.

لكن تحذير جين بول لم ينجح إلا في تأجيج رغبة دوتوي. في اليوم التالي، التقى الفتاة في شارع تولوزي، فتجرأ على ملاحقتها إلى دكان لبيع الحليب. وبينما كانت تنتظر دورها في الطابور، أخبرها باحترام أنه يحبها، وأنه يعرف كل شيء عنها: الزوج المتوحش، الباب الموصد بالأقفال والنوافذ المحكمة الإغلاق، لكنه سيكون في غرفتها في هذا المساء بالذات. احمر خدا الشقراء، وارتجف إناء الحليب في يدها، وتنهدت بوهن، فيما اغرورقت عيناها بالحنان:

- للأسف يا سيدي، هذا مستحيل.

في مساء ذلك اليوم المشرق، عند الساعة العاشرة صباحًا، كان دوتوي يترقب في شارع نورفان مترصدًا سورًا قويًا، خلفه منزل صغير لا يرى منه سوى دوارة الرياح والمدخنة. فُتح باب في هذا الجدار ونزل رجل، وبعد أن أقفله بحذر خلفه، نزل نحو شارع جونو. انتظر دوتوي إلى أن اختفى عن الأنظار، وبات بعيدًا جدًا، وتوارى خلف منعطف الشارع، ثم عد إلى عشرة واندفع إلى الأمام، اقتحم الجدار بخطى سريعة، وما زال يركض عبر الحواجز، ودخل غرفة الجميلة المنعزلة. استقبلته نشوانة، ثم مارسا الحب حتى وقت متأخر من النهار.

في اليوم التالي، انزعج دوتوي من صداع عنيف في رأسه. عدّ الأمر بلا أهمية ولن يدفعه إلى تفويت موعده. ومع ذلك، وبعد أن اكتشف مصادفة أقراصًا مبعثرة في قاع الدرج، ابتلع واحدة في الصباح والأخرى بعد الظهيرة. في المساء، صار صداعه محتملًا كما أن حماسته جعلته يتناساه. كانت الشابة تنتظره بنفاد صبر أثارته ذكريات الليلة السابقة، أحبّ بعضهما بعضًا في تلك الليلة حتى الساعة الثالثة صباحًا. وعندما غادر دوتوي، وهم بعبور حواجز المنزل وجدرانه، خيل إليه أن احتكاكًا غير مسبوق ناوش وركيه وكتفيه. في الواقع، عندما ولج جدار الحديقة -لحظتها فقط- شَعر شعورًا مؤكدًا بشيء يقاومه. كما لو أنه يتحرّكُ من خلال مادةٍ هلامية ما زالت لزجة لكنها أخذت تَنمو وتصير أثخن وأسمك. عندما نجح تمامًا في أن يغرس جسده في سُمكِ الجدار، أدرك أنه لَمْ يَعدْ يَتقدم إلى الأمام. ومع ذلك، لم يعر الأمر أدنى أهمية. لكن عندما عبر الجدار المحيط. شعر كأنه يتحرك في مادة لا تزال لزجة، لكنها مع كل مجهود يبذله كانت تزداد تماسكًا. بعد أن تمكن من الاستقرار بالكامل في سمك الجدار، لاحظ أنه لم يعد يتقدم قيد أنملة وتذكر برعب القرصين اللذين تناولهما خلال النهار. هذه الأقراص، التي كان يحسب أنها أقراص أسبرين، تحتوي في الواقع على مسحوق رباعي التكافؤ وصفه الطبيب في العام السابق. وظهر فجأة تأثير هذا الدواء، بالإضافة إلى الإرهاق الشديد.

صار دوتوي متجمدًا داخل الجدار، وما زال هناك حتى الآن مطمورًا في الحجر. وعندما ينزل الليليون للتجول في شارع نورفان ساعة خفوت ضوضاء باريس، يسمعون صوتًا مكتومًا يبدو كأنه قادم من وراء القبر، فيخالونه عويل الرياح، عند مفترق طرق لابوت. لكنهم لا يعلمون أنه الرجل المستذئب دوتوي هو من ينتحب على نهاية مسيرته المجيدة ويتحسر على شغف قصير الأجل. في بعض ليالي الشتاء، يحدث أن يحمل الرسام جين بول قيثارته، ويقتحم عزلة شارع نورفان لمواساة السجين المسكين بأغنية، فتحلق الأنغام من أصابعه المخدرة، متغلغلة في قلب الحجر مثل قطرات من ضوء القمر.

السابينيات

عاشت هناك في مونمارتر في شارع لابروفوار امرأة شابة تدعى سابين، كانت لها موهبة الوجود في كل مكان. يمكنها أن تتناسخ كما تشاء وتجد نفسها في الوقت نفسه جسدًا وروحًا أينما شاءت وكيفما شاءت. ولأنها كانت سيدة متزوجة ولم تكن هذه الهبة النادرة تقلق زوجها، فقد حرصت على كتمانها عنه ولم تستخدمها قط إلا في ساعات خلوتها في شقتها. في الصباح -على سبيل المثال- وفي أثناء تزيّنها، كانت تتضاعف وتتثلّث لتيسّر على نفسها، تفحص وجهها وجسدها ومظهرها. وعقب إنهائها معاينة جسدها، تسارع إلى حالتها الأولى، أي تندمج في جسد واحد. في فصل الشتاء أو فترات ما بعد الظهيرة الممطرة لا تشعر بحماس كبير للخروج، يحدث في بعض المرات أن تضاعف سابين نفسها عشر مرات أو عشرين مرة، ما يسمح لها بإجراء محادثة حية وصاخبة، لكنها في الواقع لم تكن تحدث إلا نفسها. كان زوجها أنطوان لوموريبه نائب مدير التقاضي في إحدى الشركات المالية S.B.N.C.A بعيدًا كل البعد عن الارتياب في حقيقة زوجته، ويؤمن كل الإيمان بأنه متزوج من امرأة واحدة مثل باقي الناس العاديين.

ذات مرة عاد إلى المنزل فجأة، فوجد نفسه أمام ثلاث زوجات متطابقات تمامًا، مع مواقف قريبة، نظرن إليه بأعينهن الست الزرقاء والشفافة المتشابهة، فظل صامتًا مشدوهًا. وبعد أن توحدت سابين على الفور مع قريناتها، اعتقد أنه كان ضحية وعكة صحية، وهو الرأي نفسه الذي أكده طبيب الأسرة الذي شخّص المرض بقصور في الغدة النخامية، فوصف له بعض العلاجات الباهظة الثمن.

في إحدى أمسيات شهر أبريل وبعد العشاء جلس أنطوان لوموريبه ليتفحص قسائم المعاملات الموضوعة فوق طاولة الطعام، فيما كانت سابين جالسة على أريكة ذات ذراعين تقرأ مجلة سينمائية.

وعندما رفع رأسه ونظر إلى زوجته، فوجئ بمظهرها وملامح وجهها. كان رأسها مائلًا على كتف واحدة، وقد ألقت مجلتها على الأرض، فيما كانت عيناها متسعتين تومضان وميضًا عذبًا، ثغرها باسم، يتهلل وجهها بإشراقة فرح لا مثيل له. إذاك هبّ

مدهوشًا، واقترب على رؤوس أصابعه ومال بإخلاص نحوها، ولكنه لم يستوعب سبب دفعه جانبًا بضيق ونفور. لكن ما حدث بالضبط أنها قبل ثمانية أيام في منعطف شارع جونو التقت شابًا في الخامسة والعشرين من عمره كانت عيناه سوداوين. ومنذ ذلك العهد شرع يعترض طريقها عمدًا، فقال لها ذات مرة «سيدتي»، وهنا رفعت سابين عينيها مذعورة: «لكن يا سيدي». وبعد أسبوع، وفي عشية تلك الأمسية، كانت سابين موجودة في منزلها وفي الوقت نفسه في بيت ذلك الفتى ذي العينين السوداوين، الذي كان يُدعى رسميًا ثيوريم ويزعم أنه فنان ورسام. في اللحظة نفسها التي صدت فيها زوجها متبرمة وأعادته إلى معاملاته المالية، كان ثيوريم في المرسم الذي يقطنه في شارع شوفالييه دو لا بار يمسك يد الفتاة ويقول لها: «أنت قلبي، وجناحي، وروحي! «وغيرها من الأشياء الجميلة التي تتفوه بها شفاه العاشقين بسهولة في الأيام الأولى من الحب. كانت سابين قد وعدت نفسها بالعودة والتوحّد في تمام الساعة العاشرة ليلًا على أبعد تقدير دون أن تقدم أي تضحيات كبيرة، لكن عندما حل منتصف الليل كانت لا تزال في شقة ثيوريم. لم يعد من المرجح أن تكون مخاوفها سوى تأنيب الضمير. في اليوم التالي، لم تتوحد إلا في الساعة الثانية صباحًا، وفي الأيام التالية تأخرت عن ذلك. كل مساء، كان بمقدور أنطوان لوموربيه أن ينظر بإعجاب إلى وجه زوجته المشرق بالفرح الجميل حتى أن الظنون ساورته بأن زوجته لم تعد من أهل الأرض. في أحد الأيام عندما كان يتبادل الأسرار مع زميل في مكتبه، سمح لنفسه بأن يعترف له في لحظة من الانفعال: « لو كان بمقدورك رؤيتها عندما نكون في غرفة الطعام في المساء: ستعتقد أنها تناجي الملائكة».

«طوال أربعة أشهر، واصلت سابين مناجاة الملائكة. كانت الإجازات التي قضتها في ذلك العام أجمل أيام حياتها. كانت توجد في الوقت نفسه على ضفاف بحيرة أوفيرني مع لوموربيه، وعلى شاطئ صغير في بروتون برفقة ثيوريم. كان زوجها يقول لها: «لم أركِ بمثل هذا الجمال من قبل» عيناك تلامسان شغاف القلب مثل البحيرة في السابعة والنصف صباحًا.

ترد سابين بابتسامة رائعة تبدو كأنها تهديها لروح الجبل غير المرئية. ومع ذلك،

فقد كانت في الوقت ذاته تصطاف على رمال شاطئ بروتون الصغير، تلفحها الشمس بصحبة ثيوريم، كانا شبه عاريين. الفتى ذو العينين السوداوين لم ينبس بكلمة، كأنه كان ضائعًا في إحساس عميق لا تستطيع الكلمات البسيطة التعبير عنه، بيد أنه في الواقع سئم بالفعل من تكرار الأشياء نفسها مرارًا وتكرارًا. وبينما كانت الشابة منبهرة بهذا الصمت الذي بدا لها كأنه يخفي شغفًا لا يوصف، في حين كان ثيوريم مخدرًا بسعادة حيوانية، ينتظر بهدوء أوقات الوجبات، مفكرًا بارتياح أن عطلاته لن تكلفه فلسًا واحدًا. في الواقع، كانت سابين قد باعت بعض جواهرها وتوسلت إلى رفيقها أن يقبل بأن تدفع تكاليف إقامتهما في بروتون. فوجئ قليلًا لأنها اتخذت كثيرًا من الاحتياطات لكي تقنعه بشيء يبدو بالنسبة إليه شيئًا عاديًا. قبل ثيوريم برحابة صدر. لم يكن يعتقد أن على الفنان -بأي حال- التضحية بأحكام مسبقة غبية، وهو ليس أقل من الآخرين. فقال لها: «أنا لن أسمح لوخز الضمير بأن يمنعني من القيام بأعمال مثل أعمال الغريكو أو فيلاسكيز».

كان ثيوريم يعتمد على معاش قليل يرسله عمه القاطن في ليموج، لم يكن ثيوريم يعول على الرسم للحصول على مصدر رزقه. كان لديه مفهوم متغطرس وعنيد للفن، يمنعه من الرسم دون أن يكون الإلهام باعثه.

ولهذا كان يقول: «إذا اضطررت إلى انتظاره عشر سنوات، فسأنتظره». وهذا تقريبًا ما كان يفعل. في أغلب الأوقات كان يعمل على إثراء حساسيته في مقاهي مونمارتر، أو صقل إحساسه النقدي من خلال مشاهدة أصدقائه وهم يرسمون، وعندما يسألونه عن رسوماته، كان يجيب منشغل البال: «أنا أبحث عن نفسي» الأمر الذي كان يستدعي الاحترام. علاوة على ذلك، فإن القباقيب الكبيرة والسروال المخملي الواسع -اللذين كانا جزءًا من لباسه الشتوي-أكسباه بين شارع كولانكور وساحة الأرض وشارع أبيس سمعة فنان لا يشق له غبار، بل إن الحاقدين أنفسهم اتفقوا رغم كل شيء على أنه يملك إمكانات هائلة.

في صباح أحد الأيام الأخيرة من العطلة، كان العاشقان قد أنهيا ارتداء ملابسهما في غرفتهما في نزل بروتون. على بعد خمسمئة أو ستمئة كيلومتر، في أوفيرني،

كان لومورييه هو وزوجته قد استيقظا منذ ثلاث ساعات، وكانت سابين ترد بكلمات متقطعة من وقت إلى آخر على زوجها الذي كان يجدف في البحيرة متباهيًا بجمال المكان. لكن في غرفة النوم في بروتون كانت تغني قبالة البحر: «حبيبي له أصابع بيضاء جميلة. الجسد والروح فداء لكل ما جرى». أخذ ثيوريم محفظته من رف الموقد، وقبل أن يدسها في الجيب الخلفي لسرواله القصير سحب منها صورة. وقال لها:

- انظري، وجدت صورة. هذا أنا، خلال هذا الشتاء، وبالقرب من طاحونة دو لا غاليت.

- أوه! قالت سابين، يا حبيبي.. واغرورقت عيناها بدموع الحماسة والزهو. في الصورة، كان ثيوريم يرتدي ملابس شتوية وقباقيبه وسرواله المخملي الواسع المقروص بشكل رائع على كاحليه، رأت سابين بوضوح أنه يتمتع بعبقرية كبيرة، فشعرت بآلام الندم تعصر قلبها، فوبخت نفسها لأنها أخفت بشكل مهين سرها عن هذا الفتى العزيز الذي كان في الوقت نفسه محبوبًا رقيقًا وفنانًا جميلًا.

- أنت جميل، قالت له، أنت عظيم بتلك القباقيب! وذلك السروال المخملي! وهذه القبعة المصنوعة من جلد الأرنب! أوه! يا حبيبي، أنت فنان نقي وعطوف، وأنا محظوظة بمقابلتك يا قلبي، ويا حبيبي، ويا كنزي الجميل، لقد أخفيت عنك سرّي.

- ما الذي تتحدثين عنه؟

- عزيزي، سأقول لك شيئًا أقسمت ألا أبوح به أبدًا: لدي موهبة الوجود في كل مكان.

ضحك ثيوريم، لكن سابين قالت له:

- انظر.

تضاعفت في الوقت نفسه إلى تسعة نسخ. وعندما رأى تسع سابينات على حد سواء تقف من حوله شعر للحظة بأنه سيفقد صوابه، فسألته إحداهن بخجل قلق.

- هل أنت مستاء؟

- لا، لا. أجاب ثيوريم. على العكس تمامًا. ابتسم بسعادة كأنه يعرب عن امتنانه. فاطمأنت سابين وقبلته بنزق.

في بداية شهر أكتوبر، بعد نحو شهر من عودتهما من الإجازة، لاحظ لوموريبه أن زوجته لم تعد تتحدث مع الملائكة كما سابق عهدها، بل لاحظ أنها ازدادت قلقًا وحزنًا.

فقال لها ذات مساء:

- أراك أقل بهجة. ربما لأنك لا تخرجين كفاية. غدًا نذهب إلى السينما إن رغبت.

في الوقت نفسه، كان ثيوريم يذرع صحن مرسمه، وهو يصرخ قائلًا:

- وما أدراني أين توجدين الآن؟ ربما أنت في جافيل أو مونبارناس، بين أحضان محتال؟ أو في ليون بين ذراعي تاجر حرير؟ أو في ناربون على سرير صانع نبيذ؟ أو في بلاد فارس أو في بلاد الشاه؟

- أقسم لك يا حبيبي.

- تقسمين لي، أنت تقسمين لي! ... وإذا كنت بين أحضان عشرين رجلًا آخر، هل كنت ستقسمين أيضًا، أليس كذلك؟ هذا جنون! أكاد أفقد عقلي. أنا مستعد لفعل أي شيء: يمكنني أن أرتكب مصيبة!

وعلى ذكر المصيبة، فقد نظر إلى سيف تركي محدب كان قد اشتراه في العام السابق من سوق الأثاث القديم. ولإنقاذه من ارتكاب جريمة، ضاعفت سابين عددها إلى اثني عشر، ووقفت مستعدة لمنعه من الوصول إلى السيف. هدأ ثيوريم. وعادت سابين إلى حالتها الأولى.

اشتكى الرسام «أنا أعيش شقاء». وأضيفت هذه الآلام إلى هموم جسيمة سابقة!

كان يلمح إلى مشكلاته المادية والروحية. وإذا صدقناه طبعًا، فقد كان يعيش وضعًا صعبًا، إذ هدده بالطرد صاحب البيت الذي يدين له بثلاثة أشهر. كما أن عمه

في ليموج علق مصروفه الشهري فجأة. أما مشكلاته الروحية فقد كان يمر بأزمة مؤلمة وإن كانت مبشرة بإلهام منتظر، فقد شعر بالقوى الإبداعية لعبقريته تنبثق وتنتظم بداخله، وكان الافتقار إلى المال بالتحديد يمنعه من تحقيقها.

- اذهب وارسم تحفة فنية عندما يكون محضر المحكمة والمجاعة يستعدان لمداهمتك في عقر دارك. كانت سابين ترتعش من شدة الألم، وتقاوم اختناق أنفاسها.

في الأسبوع الماضي، باعت مجوهراتها الأخيرة لتسوية دين على ثيوريم لصالح فحام وصاحب مقهى في شارع نورفين، ومع ذلك ما زال يرثي حالة اليأس التي يعيشها لأنه لا يجد ما يضحي به من أجل ازدهار موهبته. في الواقع، لم يكن وضع ثيوريم أسوأ ولا أفضل من المعتاد. كان العم المحب في ليموج، كما في الماضي، يضحي بالغالي والنفيس كي يصبح ابن أخيه رسامًا عظيمًا. أما المالك فقد كان يعتقد بسذاجة أنه يتعامل مع فنان ينتظره مستقبل عظيم، لهذا كان يقبل دائمًا عن طيب خاطر تماطل مستأجره عن الدفع. لكن ثيوريم، إلى جانب متعة لعب دور الشاعر الملعون والبطل البوهيمي، كان يأمل بشكل غامض أن تلهم الصورة القاتمة لمحنته الشابة كي تتخذ قرارات أكثر جرأة.

في تلك الليلة، وخوفًا من تركه بمفرده فريسة مخاوفه، باتت سابين مع حبيبها ولم تعد إلى المنزل في شارع لابروفوار للتوحد مع نسختها. في اليوم التالي استيقظت بجانبه وهي تبتسم ابتسامة منعشة وسعيدة.

وقالت:

- لقد حلمت للتو أننا نملك محل بقالة صغير في شارع سان روستيك، واجهته لا تتعدى مترين. كان لدينا زبون واحد فقط، تلميذ جاء لشراء سكر الشعير وحلوى رودودو. أنا كنت أرتدي وزرة زرقاء بجيوب كبيرة، وكنت أنت ترتدي بلوزة بقالة. في المساء، في الغرفة الخلفية، كتبت في كتاب كبير: مدخولات اليوم: ستة بنسات من الرودودو. وعندما استيقظت، كنت تقول لي: «لكي تسير أعمالنا بسلاسة، نحتاج إلى زبون آخر. أتخيله صاحب لحية بيضاء صغيرة...» كنت سأعارضك لأننا إذا أضفنا زبونًا آخر فسيرهقنا العمل، لكن لم يكن لدي الوقت، لأنني استيقظت.

قال ثيوريم:

- باختصار (بملامح ساخرة ونبرة مريرة مكشرًا عن أسنانه). وكرر.. باختصار (متألمًا ومتضايقًا بشدة، فارتفعت دماء الغضب إلى أذنيه وجحظت عيناه السوداوان). ثم قال أخيرًا: باختصار، هل طموحك كله أن تجعليني بقالًا؟

- كلا. أنا أروي لك حلمًا.

- وهذا ما قلته أيضًا. أنت تحلمين أن أكون بقالًا يرتدي وزرة.

قالت سابين محتجة بحنان:

- أوه! يا حبيبي. لو رأيت نفسك! لقد كانت وزرة بقالتك جميلة عليك كثيرًا!

استشاط ثيوريم سخطًا، فقفز من السرير وهو يصرخ مصرحًا أنه تعرض للخيانة. ألم يكن كافيًا أن يطرده المالك إلى الشارع، وأن عمه في ليموج رفض منحه حقه في الأكل، وفي اللحظة التي كان فيها على وشك أن يبزغ إبداعه ومعه تحفته العظيمة، ولكن الهشاشة التي كان يحملها بداخله أضفت على همومه سخرية المرأة التي أحبها كثيرًا وهي تحلم حلمها المستهزئ بأن يصير بقالًا وبذلك أجهضت كل شيء. لماذا لا تحلمين بأني أدخل الأكاديمية؟ كان ثيوريم يتجول مرتديًا منامته في مرسمه وهو يصرخ بصوت أجش ومتألم، وقام عدة مرات بإشارات إلى قلبه وهو يصرخ بأنه سيمزقه إربا إربا، ثم سيوزعه على صاحب البيت، وكذلك عمه في ليموج، وعلى من كان يحبها. كانت سابين ممزقة القلب فقد اكتشفت مرتجفة جوهر معاناة الفنان وأصبحت تدرك أنها لا تستحق حبه. عند عودته إلى المنزل ظهرًا، وجد لوموريبه زوجته في حالة من الاضطراب العارم. لقد نسيت أن تتوحد مع قرينتها، وعندما دخل المطبخ تجلت أمامه في أربع نسخ مغايرة، مشغولات بمهام مختلفة، لكن أعينهن تغمرها الكآبة أيضًا.

فشعر باستياء كبير وقال مخاطبًا نفسه:

- هيّا، هوّن عليك! الآن بدأ قصور الغدة النخامية مرة أخرى. سوف أضطر إلى

استئناف علاجي.

وبعد أن تلاشى الانزعاج، شعر بالقلق تجاه هذا الحزن المؤذي الذي رأى سابين تغرق في سحيقه كل يوم.

- حسنًا (كان يشعر بالضآلة لدرجة أن المشاعر الخيّرة دفعت هذا الرجل الطيب والمعطاء إلى اختيار امرأة شابة ومحبوبة)، لم أعد أتحمل أن أراك مكتئبة دائمًا. سوف ينتهي بي الأمر إلى أن أصبح بدوري مريضًا. في الشارع أو في مكتبي، لا أفكر إلا في عينيك الحزينتين، فيذوب قلبي فجأة، وأحيانًا أبكي على الورق النشاف، فيتشكل ضباب على عدسات نظارتي فأضطر إلى مسحها، هذه العملية تُعدّ إهدارًا كبيرًا للوقت، ناهيك بالتأثير السيئ الذي يمكن أن تحدثه هذه الدموع، سواء على رؤسائي أو من هم أدنى مني. أخيرًا، أقول أيضًا إن هذا الحزن الذي يملأ عينيك الصافيتين بسحر لا يمكن تحديد معناه، أنا لا أعارضه، لكنه مؤلم، أنا أستنكر هذا الحزن، وتداعياته الحتمية على صحتك، وأنتظر منك أن تتصرفي بقوة ضد هذه الحالة الذهنية التي أقدر أنها تشكل خطورة على حياتك.

هذا الصباح، حظيت بالتفاتة رقيقة من السيد بورتر، ممثلنا المفوض، وهو بالمناسبة رجل لطيف، ويتمتع بتعليم مثالي وكفاءة عالية، لا تحتاج إلى مديح، فقد أهداني بطاقة عبور إلى لوشامب، لأن صهره -الذي يبدو أنه شخصية باريسية مهمة- يحتل وضعًا مميزًا في السباقات. وما دمت تحتاجين إلى التسلية...

بعد ظهيرة ذلك اليوم، ولأول مرة في حياتها، ذهبت سابين إلى السباقات في لوشامب. بعد أن اشترت صحيفة في الطريق، كانت تحلم باسم حصان يدعى ثيوقراطيس السادس، وعقدت علاقة خاصة مع اسم هذا الحصان، معتقدة أنه فأل إيجابي. كانت سابين ترتدي معطفًا أزرق اللون مزين بالشاسوب، وتعتمر قبعة تونكينيزية ذات خمار خفيف، كانت محط نظرات إعجاب من الرجال. لم تبالِ تقريبًا بالسباقات الأولى. كانت تفكر في رسامها المحبوب الواقع فريسة عذاب الإلهام المحبط، وتخيلت بوضوح وميض عينيه السوداوين فيما كان يعمل في مرسمه، مرهقًا نفسه وهو يكابد اعتداءات واقع قذر. انتابتها الرغبة في مضاعفة نفسها،

لتنتقل على الفور إلى شارع دو شوفالييه دو لا باري لتضع يديها المنعشتين على الجبين الملتهب للفنان، كما يحدث عادة بين العشاق في المواقف الصعبة. لكن الخوف من إزعاجه في عمله منعها من تنفيذ فكرتها وكان هذا أفضل له، لأن ثيوريم بدلًا من أن يكون في مرسمه كان يشرب كأسًا من الأرامون في حانة شارع كولانكور متسائلًا إن كان الوقت قد تأخر قليلًا ليذهب إلى السينما.

أخيرًا، اصطفت الخيول لبدء سباق الجائزة الكبرى لوزير التسجيل، وبدأت سابين بمشاهدة الحصان ثيوقراطيس السادس. لقد راهنت عليه بنحو مئة وخمسين فرنكًا، وهو ما كان يمثل كل مدخراتها في ذلك الوقت، وتوقعت أن تجني أرباحًا كافية لإرضاء مالك مرسم ثيوريم. امتطى الفارس ثيوقراطيس السادس مرتديًا سترة فارس باهرة، جزء منها أبيض والجزء الآخر أخضر، وأخضر ناعم، ورهيف، وخفيف، وواهن ونضر، مثل الخس إذا كان ينمو في الجنة. كان الحصان نفسه أسود مثل خشب الأبنوس. منذ البداية، تولى قيادة المجموعة وانفصل عنها بعد ركض مسافات قصيرة. مثل هذه البداية، في رأي المولعين بسباق الخيول، لا يمكن أن تدفعك إلى توقع نتيجة السباق، لكن سابين التي كانت متأكدة حتمًا من الانتصار نهضت متحمسة وصرخت: «هيا يا ثيوقراطيس! هيا يا ثيوقراطيس!»، حولها كانت ارتسمت ابتسامات وضحكات على محيا الجالسين إلى يمينها، وكان رجل عجوز أنيق يرتدي قفازين ويضع عدسة أحادية، يراقبها بتعاطف من زاوية عينه، متأثرًا ببراءة طبعها. وفي ذروة نشوة الانتصار، صرخت سابين: ثيوريم! ثيوريم!

«كان الذين يجلسون حولها مستمتعين بشكل صاخب بهذا العرض الممتع حتى كادوا ينسون السباق. لكنها فطنت إلى الأمر أخيرًا، وأدركت غرابة موقفها، فارتبكت وتورد وجهها خجلًا. لكن الرجل العجوز نهض وصرخ بأعلى صوته: «هيا يا ثيوقراطيس! أسرع يا ثيوقراطيس!» فتلاشى الضحك على الفور، ومن خلال همس الجيران، علمت سابين أن هذا الرجل الشجاع لم يكن سوى اللورد بوربري.

ومع ذلك، فقد ثيوقراطيس السادس تقدمه وانتهى به المطاف خارج السباق.

عندما رأت آمالها تنهار، وأدركت أن ثيوريم حُكم عليه بالبؤس، وضاع كفنان،

شعرت بالعجز، فتنهدت سابين أولًا ثم أجهشت بالبكاء. أخيرًا، ارتجف أنفها وأصيبت بالذهول، واغرورقت عيناها بالدموع. كان اللورد بوربري يتمتع بقدر كبير من التعاطف. وبعد تبادل كلمات قليلة، سألها إذا كانت لا ترغب في أن تكون زوجته، لأن دخله السنوي يبلغ مئتي ألف جنيه إسترليني. في تلك اللحظة، تخيلت سابين ثيوريم يحمل على نقالة في المستشفى وهو يشتم إلهه واسم مالك مرسمه. ومن أجل شغف حبيبها وربما من أجل الرسم، ردت على الرجل العجوز بأنها موافقة أن تصبح زوجته، وأبلغته -مع ذلك- أنها لا تملك شيئًا ولا حتى اسمًا، ولكن الاسم الأول فقط والأكثر شيوعًا وهو ماري. وجد اللورد بوربري هذه الغرابة فاتنة ومفرحة بتأثيرها في أخته إميلي البتول في سن متقدمة، لأنها كرست حياتها للحفاظ على التقاليد المحترمة في العائلات التاريخية للمملكة. ودون انتظار نهاية السباق الأخير، غادر بالسيارة مع خطيبته إلى مطار لو بورجيه. وفي السادسة صباحًا وصلا لندن، وفي السابعة صباحًا تزوجا.

وبينما كانت تتزوج في لندن، كانت سابين تتناول العشاء في شارع لابروفوار قبالة زوجها أنطوان لومورييه، الذي لاحظ أنها تبدو أفضل حالًا. تكلمه بلطافة. تأثرت بهذا الاهتمام، ووقعت في حيرة من أمرها متسائلة إن كان بإمكانها الزواج من اللورد بوربري دون مخالفة القوانين البشرية والإلهية. كما ينطوي السؤال الشائك على سؤال آخر، عن تماثل زوجة أنطوان في الجوهر وزوجة اللورد. حتى إذا قبلنا بأن كل واحدة منهما مستقلة ذاتيًا وماديًا، ستظل حقيقة الزواج واقعًا لا مفر منه، إذا كان في ظل الأنواع الجسدية، هو أولًا وقبل كل شيء اتحاد النفوس. في الواقع، كانت هذه التخوفات مبالغًا فيها.

وبعد أن أغفل تشريع الزواج النظر في حالة التناسخ في كل مكان، كانت سابين حرة في التصرف كما تشاء، ويمكنها أيضًا، بحسن نية، أن تؤمن بأنها في وضع جيد لا يخالف تعاليم الرب، حيث لا يوجد صحاح أو موجز أو نص أو مرسوم، حاول ملامسة المشكلة من قريب أو بعيد. لكن منسوب تأنيب ضميرها كان مرتفعًا جدًا لكي تقتنع بأسباب دفاعها عن نفسها، لذلك اعتقدت أن من الضروري أن تعدّ زواجها من اللورد بوربري نتيجة وإطالة أمد لعلاقة غير شرعية، التي لم تكن مبررة بأي

حال، وبذلك ستظل ملعونة تمامًا. في سبيل رضا الرب والمجتمع وزوجها الذين أساءت إليهم جميعًا، منعت نفسها من رؤية ثيوريم مرة أخرى. إلى جانب ذلك، كانت تشعر بالخجل من لقائه مرة أخرى بعد إتمام زواج شرعي متفق عليه، بلا ريب، على حساب حبها وراحتها، لكنها اعتبرته ببراءة بمثابة وصمة عار على حبهما.

يجدر بنا القول إن بدايات حياتها في إنجلترا خففت من عذاب ضمير محتمل لسابين وحتى آلام الشعور بالفراق. كان اللورد بوربري شخصية بارزة حقًا. بالإضافة إلى كونه شديد الثراء، فقد كان سليلًا مباشرًا للملك جان سان تير، الذي عقد إبان ظرف لا يعرفه المؤرخون كثيرًا قرانه على إرمسيند دو ترونكافيل فرزقا معًا سبعة عشر ابنًا، جميعهم ماتوا في سن مبكرة. باستثناء الرابع عشر، ريتشارد هوغ، مؤسس دار بوربري. من بين الامتيازات الأخرى التي يحسده عليها النبلاء الإنجليز جميعهم، كان اللورد بوربري يتمتع بامتياز خاص يتمثل في أن يفتح مظلته ومظلة زوجته أيضًا في صالونات الملك.

كان زواجه من سابين حدثًا مهمًا، فقد غدت السيدة الجديدة موضوع فضول خيري عمومًا، على الرغم من أن أخت زوجها حاولت نشر شائعة بأنها كانت راقصة في تابارين. لكن سابين التي تُدعى ماري في إنجلترا، كانت مشغولة جدًا بالتزاماتها بوصفها سيدة عظيمة، فكانت توزع أوقاتها بين الاستقبالات وحفلات الشاي والحياكة الخيرية والغولف والتجهيزات. ومع ذلك، فإن هذه الانشغالات المتنوعة لم تساعدها على نسيان ثيوريم.

لم يكن الرسام يشك مطلقا في مصدر الشيكات التي كان يتلقاها بانتظام من إنجلترا، لكنه تعود غياب سابين عن مرسمه. بعد أن تحرر من انشغالاته المادية بدفعات شهرية تصل إلى عشرين ألف فرنك، أدرك أنه يمر بمرحلة من الحساسية المفرطة التي لم تكن مواتية جدًا لإنجاز عمله، وأنه بحاجة إلى صفاء ذهنه. وبذلك منح نفسه إجازة سنة من الراحة، وكان على استعداد لإطالتها إذا اقتضت الحاجة إلى ذلك. لم يشاهد في مونمارتر إلا نادرًا. وبدأ يظهر في حانات مونبارناس وملاهي الشانزليزيه حيث يحيا حياة مرفهة على الكافيار والشمبانيا وبصحبة فتيات

باهظات الثمن.

وبعد أن علمت أنه يعيش حياة غير منظمة إلى حد ما، اعتقدت سابين متحمسة أنه اتبع بعض صيغ فن الغوا التي هي تزاوج من ألعاب الضوء والتيارات الخفية المدنسة للقناع الأنثوي.

في ظهيرة أحد الأيام عندما كانت عائدة من قصر بوربري حيث أمضت ثلاثة أسابيع، وعند دخول السيدة بوربري إلى بيتها الفخم في ميدان ماليسون، وجدت أمامها أربعة صناديق تحتوي على: فستان سهرة من الإلياس، وفستان الزوال من الكريب الروماني، وفستان رياضي من الصوف وبدلة كلاسيكية من الثوب الشمعي اللاصق. وبعد أن صرفت خادمتها، تضاعفت خمس مرات لتجربة الفساتين والبدلات. لكن اللورد بوربري دخل بالخطأ، فصاح:

- عزيزتي! لم تقولي لنا إن لديك أربع أخوات جميلات!

لكن بدلًا من أن تتوحد مع جسدها، اضطربت السيدة بوربري ووجدت نفسها مضطرة إلى أن ترد على زوجها بما يأتي:

- لقد وصلن للتو. ألفونسين أكبر مني بسنة. بريجيت هي أختي التوأم. باربي وروزالي هما أصغر أخواتي أيضًا. يدعون أنهن يشبهنني كثيرًا.

بحفاوة استقبلت الأخوات الأربع في المجتمع الراقي واحتفي بهن في كل مكان.

تزوجت ألفونسين ملياردير أمريكيًا، ملك الجلد المجعد، وعبرت المحيط الأطلسي بصحبته، فيما تزوجت بريجيت مهراجا غوريسابور الذي اصطحبها إلى منزله الأميري، أما باربي فاقترنت بشخصية من نابولي شهيرة ورافقته في جولاته حول العالم، بيد أن روزالي ارتبطت بمستكشف إسباني وذهبت معه إلى غينيا الجديدة لمشاهدة العادات الغريبة لشعب البابوا.

تسببت هذه الزيجات الأربع -التي أقيمت احتفالاتها في وقت واحد تقريبًا- في إثارة ضجة كبيرة في إنجلترا وحتى في القارة كلها. في باريس، تحدثت عنها الصحف باهتمام نشرت صورًا لها. في إحدى الأمسيات، وفي غرفة الطعام في شارع

لابروفوار، قال أنطوان لوموريه لسابين:

- هل شاهدت صور السيدة بوربري وأخواتها الأربع؟ يا للغرابة، إنهن يشبهنك كثيرًا، لكن أنت تملكين عينين أكثر صفاء، ووجهًا مستطيلًا، وثغرًا أصغر، وأنفًا أقصر، وذقنًا أضعف. غدًا، سآخذ الصحيفة مع صورتك الحقيقية لأعرضها على السيد بورتر. لن يصدق الأمر.

بدأ أنطوان يضحك، لأنه كان سعيدًا بقدرته على إبهار السيد بورتر، الممثل المعتمد للشركة المالية.

وأوضح قائلًا:

- أضحك وأنا أفكر في ملامح وجه السيد بورتر. يا للسيد بورتر المسكين! بالمناسبة، لقد أهداني بطاقة حضور سباقات الخيل مرة أخرى، خاصة يوم الأربعاء. ما الذي يجب فعله في رأيك؟

أجابت سابين:

- لا أعرف. الأمر صعب جدًا.

بدت قلقة، وتساءلت إن كان من المناسب أن يرسل السيد لوموريه الزهور إلى السيدة بورتر، زوجة رئيسه الإداري أم لا. وفي تلك اللحظة، كانت تجلس السيدة بوربري على طاولة البريدج مقابل الكونت ليسيستر. أما عاهلة غوريسابور، فكانت تركب هودج فيل مستلقية في استرخاء. أما السيدة سميثسون، فقد كانت مشغولة في ولاية بنسلفانيا بحفل تدشين قصرها المشيد بطراز النهضة الصناعية، بيد أن باربي كاتزاريني كانت تجلس في شرفة أوبرا فيينا حيث تعرض فخامة شخصيتها المرموقة، في حين كانت روزالي فالديز إي سامانييغو مستلقية على سرير محمي بناموسية داخل كوخ في قرية من قرى شعب البابوا. كانت الزوجات كلهن منشغلات يتساءلن عن مدى مناسبة تقديم الزهور للسيدة بورتر.

بعدما صار ثيوريم على علم بالأخبار المنشورة في الصحف عن احتفالات الزفاف هذه، وبعد رؤية الصور التي ترافق التقارير ولم يكن لديه أدنى شك في أن كل

هؤلاء العرائس كن تجسيدات جديدة لسابين. وباستثناء اختيارها المستكشف، الذي بدا له أنه يمارس مهنة غير مربحة، فقد اعتبر اختيار الأزواج الآخرين في غاية الحكمة. في هذه المدة تقريبًا شعر بالحاجة إلى العودة إلى مونمارتر. لقد أتعبه مناخ مونبارناس الممطر وجفاف الشانزليزيه الصاخبة. إلى جانب ذلك، فقد منحته مدفوعات السيدة بوربري الشهرية مكانة بارزة في مقاهي دو لا بوت أكثر من هذه الأمكنة الغريبة. أما عن الأشياء الأخرى، فلم يغير أي شيء، في طريقة حياته ولم يمضِ وقت طويل حتى اكتسب سمعة في مونمارتر بصفة متسكع ليلي صاخب ومدمن على الشرب والحفلات. كان أصدقاؤه يستمتعون بقصة مغامراته، فحسدوه قليلًا على البذخ الجديد، الذي كانوا -مع ذلك- يستمتعون به، كما كرروا بارتياح أنه ضاع بسبب الرسم، ثم أضافوا أنه أمر مؤسف، لأنه كان يتمتع بمزاج فني حقيقي. علمت سابين بتصرفاته السيئة وأدركت أنه يهوي إلى منحدر قاتل. فاهتز إيمانها به وبما سيؤول إليه، لكنها أحبته كثيرًا فاتهمت نفسها بأنها كانت السبب فيما آل إليه من سقوطه.

خلال أسبوع تقريبًا، كانت منشغلة وقلقة في أنحاء العالم. في إحدى الليالي عند منتصف الليل، عندما كانت عائدة من السينما برفقة زوجها، رأت عند مفترق طرق جونو جيراردون ثيوريم متشبثًا بذراعي فتاتين ثملتين وضاحكتين. كان سكران وضائعًا، تقيأ النبيذ الأسود وتجشأ إهانات دنيئة في وجه المخلوقتين، كانت إحداهما تمسك رأسه، وتناديه بلا تكلف بخنزيري، فيما كانت الأخرى في الخدمة، وتحاول مساعدته بصفتها حبيبته. بعد أن تعرف على سابين، التفت بوجهه المتسخ نحوها، ونطق اسم بوربري، وأتبعه بتعليق قصير ولكنه مقزز، وانهار عند قدم عمود كهربائي. ومنذ ذلك اللقاء لم يعد بالنسبة إليها أكثر من مجرد مصدر كراهية واشمئزاز، لهذا وعدت نفسها بنسيانه كليًا.

بعد أسبوعين، وقعت الليدي بوربري التي كانت تقيم مع زوجها في منزلهم في مزرعة بوربري في حب قس شاب من المنطقة جاء لتناول الغداء في القصر. لم تكن عيناه سوداوين، بل كانتا زرقاوين باهتتين، ولم يكن فمه مثيرًا، بل كان مقروصًا ومزمومًا، كان مظهره نظيفًا وأنيقًا وهادئًا ونقيًا، مصممًا على ازدراء ما يتجاهله. منذ

الفطور الأول، صارت السيدة بوربري بجنون عاشقة له. في المساء قالت لزوجها:

- نسيت أن أخبرك، لا تزال عندي أخت. اسمها جوديث.

في الأسبوع التالي، جاءت جوديث إلى القصر حيث تناولت الغداء بصحبة القس الذي بدا مهذبًا لكنه عبر عن تحفظه تجاهها كما يليق بكاثوليكية يحتمل أن تكون مترعة بالأفكار السيئة. بعد الغداء، سارا معًا في الحديقة، واقتبست جوديث -كما لو كان ذلك مصادفة- من سفر أيوب والأرقام وسفر التثنية. إذاك أدرك القس أن الأرض خصبة. بعد ثمانية أيام قام بهداية جوديث إلى مذهبه، وتزوج بعد خمسة عشر يومًا آخر. كانت سعادتهما قصيرة. كان القس لا يملك غير أحاديث باهرة، وحتى في أثناء النوم، كان يتكلم بكلمات تكشف عن مستوى رفيع في التفكير. بدأت جوديث تشعر بالملل برفقته، لدرجة أنها استغلت نزهة قاما بها معًا على بحيرة في إسكتلندا لتغرق نفسها عن طريق الخطأ. في الواقع، تركت نفسها تغرق وهي تحبس أنفاسها، وما إن اختفت عن رؤية زوجها، عادت لتتوحد جزئيًا مع السيدة بوربري.

شعر المبجل بحزن شديد، ومع ذلك شكر الرب لأنه يريد أن يختبره بهذه المحنة، ثم أنشأ نصبًا صغيرًا في حديقته تخليدًا لذكراها.

في هذه الأثناء، كان ثيوريم قلقًا بشأن توقف آخر دفعة شهرية من المال. اعتقد في البداية أن خطأ تسبب في تأخير بسيط، فأجبر نفسه على التحلي بالصبر، ولكن بعد أن عاش على رصيده لأكثر من شهر، قرر أن يتحدث إلى سابين حول مشكلاته. ثلاث مرات متتالية، انتظرها عبثًا في شارع لابروفوار لمفاجأتها، صادفها أخيرًا في إحدى الأمسيات عند الساعة السادسة.

فقال لها:

- سابين، كنت أبحث عنك منذ ثلاثة أيام.

أجابت سابين:

- لكن يا سيدي، أنا لا أعرفك. أرادت المضي قدمًا. فوضع ثيوريم يده على كتفها.

- مهلًا، يا سابين، ما سبب غضبك مني؟ لقد فعلت ما تريدين. في أحد الأيام الجميلة، قررت أن لا تأتي مطلقًا إلى منزلي وعانيت في صمت، حتى دون أن أسألك عن سبب تخليك عن لقاءاتنا.

- سيدي، أنا لا أفهم ما تقول، لكن رفعك الكلفة بيننا وإشاراتك غير المفهومة تعدّ إهانة لي. دعني أمضي في حال سبيلي.

- سابين، لا يمكنك أن تنسي كل شيء. تذكري.

ولم يجرؤ ثيوريم بعد أن يطرح السؤال عن الإعانات المتوقفة، لكنه سعى لادعاء الحميمية المثيرة للشفقة، فذكرها بذكريات مؤثرة عن قصة حبهما. لكن سابين نظرت إليه بعينين مدهوشتين وخائفتين بعض الشيء تحتجان بسخط أقل من دهشتهما. كان الفتى عنيدًا.

- على كل حال، تذكري ذلك الصيف، وتلك الإجازات التي قضيناها معًا في بروتون، تذكري غرفة نومنا المطلة على البحر.

- هذا الصيف؟ لكنني قضيت عطلتي مع زوجي في أوفيرني!

- بطبيعة الحال! إذا تواريت وراء الحقائق!

- كيف! إذا تواريت وراء الحقائق! أنت تسخر مني أو أنك فقدت عقلك. اسمح لي بالمرور أو سأنادي!

منزعجًا من سوء النية الواضح، أمسك ثيوريم بذراعيها وبدأ يهزها، وهو يلعن السماء. ثم رأت سابين زوجها يمر على الجانب الآخر من الشارع لكنه لم يلمحهما نادته باسمه الأول، فلبى نداءها على الفور، ودون أن يفهم الوضع، حيّا ثيوريم.

وشرعت سابين تشرح لزوجها:

- هذا الرجل الذي أراه لأول مرة في حياتي، استوقفني في الشارع. ولم يكتفِ برفع الكلفة بيننا، بل عاملني كما لو كنت عشيقته، وناداني يا حبيبتي واستحضر ذكريات مفترضة عن حبنا الماضي.

فسأل أنطوان لوموريه بعجرفة:

- ماذا تقصد يا سيدي؟ هل أستنتج أنك تريد الانغماس في مناورات ملتوية وغير لائقة؟ مهما كان الأمر، فلن تقنعني بأنها صادرة عن رجل شجاع، أنا أحذرك.

قال ثيوريم متذمرًا:

- حسنًا، لا أريد أن أنتهز الموقف.

قالت سابين وهي تضحك:

- تنتهز الموقف يا سيدي، لا تتردد.

ثم انتقلت لتخاطب أنطوان:

-من بين ذكريات أخرى عن حبنا المفترض، ذكر السيد أنه، في وقت سابق، قضى معي ثلاثة أسابيع في الصيف الماضي على شاطئ في بروتون. ما رأيك فيما يدعيه؟

- لنفترض أنني لم أقل شيئًا. قال ثيوريم مستشيطًا غضبًا.

قال الزوج موافقًا:

- ليس لديك بالتأكيد شيء أفضل لتفعله. اعلم يا سيدي أنني وزوجتي لم نفترق طوال الصيف وأننا قضينا عطلتنا...

- مفهوم، على ضفاف بحيرة في أوفيرني، قال ثيوريم مقاطعًا كلام الزوج.

- كيف علمت بذلك؟ سألت سابين ببراعة.

- أخبرتني إصبعي الصغيرة(1)، ذات يوم بينما كان يرتدي سروال سباحة على شاطئ في بروتون.

يبدو أن هذه الإجابة تركت الشابة غارقة في التفكير. حدق إليها الرسام بعينين سوداوين مستغربتين. ابتسمت وسألت:

- باختصار، إذا فهمت بشكل صحيح، هل تدعي أنني كنت في الوقت نفسه على

ضفاف بحيرة أوفيرني مع زوجي وعلى شاطئ بروتون معك؟

أومأ ثيوريم بعينيه موافقًا. أصبحت قضيته واضحة لأنطوان لومورييه الذي كان مستعدًا لركله في بطنه.

قال الرجل الصالح:

-سيدي، أفترض أنك لست وحدك في الحياة. لا شك في أن لديك شخصًا يعتني بك: صديق، زوجة، أقارب. إن كنت تعيش في الحي، يمكنني أن أوصلك إلى المنزل.

- إذن أنت لا تعرف من أنا؟ تساءل الرسام.

- اعذرني.

- أنا فرسن جتريكس(2). بالنسبة إلى عودتي، فلا تقلق. سأستقل المترو في لامارك وسأصل إلى أليسيا لتناول العشاء. هيا، مساء الخير، عد إلى المنزل بسرعة وداعب زوجتك البورجوازية.

بينما كان ثيوريم ينطق هذه الكلمات الأخيرة، حدق في سابين بكل ما أوتي من وقاحة ممكنة وذهب بعيدًا، وهو ينفث الشتائم الفظيعة.

لم يخفِ الشاب المسكين جنونه، وتفاجأ لأنه لم يكتشف ذلك من قبل. وكان من السهل إثبات جنونه. إذا لم تكن عطلة بروتون حقيقية واستنساخ سابين في كل مكان حقيقي إلا في عقله، فقد كانت أوهام مجنون قطعًا. حتى وإن افترضنا عكس ذلك، أي كل شيء كان صحيحًا، فقد وجد ثيوريم نفسه في وضع رجل يؤمن بحقيقة عبثية، ولعمري هي سمة من سمات الجنون العقلي. لقد أثر اقتناعه بجنونه في الرسام تأثيرًا عميقًا، فأصبح غامضًا ومنغلقًا ومريبًا ومتبرمًا من أصدقائه مانعًا نفسه من مخالطتهم. كما نبذ مجتمع النساء، ولم يعد يتردد على مقاهي لابوت وظل حبيس مرسمه شاردًا يفكر في جنونه. وإذا لم يكن قد فقد ذاكرته، فإنه لا يظن أن بإمكانه أن يُعالجَ على الإطلاق. كان للوحدة نتيجة سعيدة، لأنها أعادته إلى الرسم، فبدأ الرسم بتصميم شرس، وبعنف جنوني في كثير من الأحيان. ثم شرعت عبقريته

الجميلة -التي اعتاد أن يضيعها في المقاهي والحانات والمخادع المعتمة- في التألق، ثم السطوع، والتجلي. وبعد ستة أشهر من الجهد من البحث الشغوف، تحقق مراده تمامًا ورسم روائع خالدة كلها تقريبًا. نذكر من بينها امرأته الشهيرة ذات الرؤوس التسعة التي تسببت بالفعل في كثير من الضوضاء بين الفنانين، كانت المرأة الجالسة على أريكتها الوثيرة مثيرة للحيرة. كما أن عمه في ليموج كان في غاية السعادة لتحقيقه حلمه الفني.

***

في هذه الأثناء، كانت السيدة بوربري تنتظر مولودًا من القس. وينبغي أن نعجل بالقول إنّ لا أحد منهما اقترف سلوكًا مخلًا بالشرف، لأن جوديث، عندما انسحبت إلى حضن أختها، حملت معها ثمار زواجها من القس. أنجبت السيدة بوربري -ودون إحراج أخلاقي يذكر- صبيًا حسن الخلقة، عمده القس بلا مبالاة. وأطلقوا على الطفل اسم أنتوني، ولا داعي للإسهاب حول الموضوع. في الوقت نفسه تقريبًا، أنجبت عاهلة غوريسابور توأمين يشبهان المهراجا تمامًا، فعمت بهجة عظيمة بين الناس، كما هي العادة هناك، قدموا للمولودين وزنهما من الذهب الخالص. ومن جانبهما، أصبحت باربي كازاريني وروزالي فالديز إي سامانيغو أمهات أيضًا، أنجبت الأولى صبيًا والثانية بنتًا. وأقيمت هناك احتفالات عظيمة أيضًا.

أما السيدة سميثسون، زوجة الملياردير، فإنها لم تحذُ حذو أخواتها، فقد أصيبت بمرض خطِر كاد يودي بحياتها. وخلال فترة النقاهة التي قضتها في كاليفورنيا، بدأت بقراءة تلك الروايات الخطِرة التي تسلط ضوءًا ساحرًا على الأزواج سيئي السمعة الذين حطمتهم الخطيئة، وحيث لا يخشى المؤلفون حتى وصفها بنفس راضية، ولكن أيضًا، واحسرتاه! بأي كلمات ممالقة، وبأي فن مزخرف للحقيقة الرهيبة، جاعلين المواقف الأكثر إثارة للاشمئزاز محببة، محيطين أبطالهم بهالات تكسبهم جمالًا وروعة، فيما يقودوننا بشكل شيطاني إلى النسيان، إذا لم نوافق على (سلوكهم) الحقيقة الشخصية لمن يمارسون هذه الأعمال الشائنة. - لذلك لا تتردد هذه الروايات في أن تصف لنا ملذات الحب ومغامراته الشهوانية. لا يوجد شيء

أسوأ من هذه الكتب. لكن السّيدة سميثسون استسلمت لها واندمجت في عوالمها، فكانت تتنهد تنهيدة عميقة، ثم تغرق في التفكير وهي تقول لنفسها: «أملك خمسة أزواج، وكان لديّ نحو ستة أزواج دفعة واحدة. لكن في الحقيقة لم يكن لدي سوى حبيب واحد، وقد منحني كثيرًا من الفرح خلال ستة أشهر أكثر مما حصلت عليه في عام من الأزواج كلهم. إنه لا يزال لا يستحق حبي. لقد تركته بدافع تأنيب الضمير. (هنا تنهدت السيدة سميثسون وتركت صفحات روايتها تمر تحت إبهامها). عشاق الحب المؤرقون لا يعلمون ما معنى تأنيب الضمير، وهم سعداء كالثيران (تقصد مثل آلهة)، ولكن غرائزي لا يمكن تبريرها، لأن ما تنطوي عليه خطيئة الزنا، تتمثل في تكريم الآخرين لما هو مستحق لشخص واحد فقط. ولكن أنا لا شيء يمنعني من أن يكون لدي حبيب ومن أن أبقى مخلصة لسميثسون.

لم تدم تأملاتها طويلًا حتى أتت أكلها. لكن الأسوأ ما في الأمر أنها لم تكن وحدها المعنية بصنيعها، بل كان السمّ يتسلل في الوقت نفسه، وفقًا لقوانين التناسخ، إلى تفكير أخواتها. في الأيام الأخيرة من شفائها على شاطئ دورادو بكاليفورنيا، ذهبت السيدة سميثسون ذات مساء إلى حفلة موسيقية. كانت الفرقة تعزف سوناتا قمر الليل بأسلوب موسيقى الجاز. أثر سحر بيتهوفن وموسيقاه المسعورة في خيالها بحيث وقعت في حب عازف الطبول، الذي كان سيتوجه بعد يومين إلى الفلبين. وبعد أسبوعين، أرسلت نسخة منها إلى مانيلا، واصطحبت الموسيقي عند وصوله وجعلته يحبها. في الوقت نفسه، وقعت السيدة بوربري في حب صائد الفهود لمجرد أنها رأت صورته في إحدى المجلات، فأرسلت إليه نسخة إلى جافا. فيما تركت زوجة الوجيه -عندما غادرت ستوكهولم- نسخة مكانها لمقابلة مغنٍّ شاب أعجبها في الأوبرا، وتضاعفت روزالي فالديز إي سامانيغو بعدما افترست إحدى قبائل بابوان زوجها خلال عيد ديني إلى أربع نسخ من أجل عشق أكبر عدد ممكن من الشبان الوسيمين الذين التقتهم في مواني أوقيانوسيا المختلفة. وسرعان ما استحوذ عليها -للأسف- جنون الشهوة، فاستسلمت للعشاق في جميع أنحاء العالم.

زاد العدد بمعدل تقدم هندسي كانت نسبته 2.7 في المئة، تضمنت هذه الكتائب المتناثرة رجالًا من جميع الأنواع: البحارة، المزارعون، القراصنة الصينيون، الضباط،

رعاة البقر، أبطال الشطرنج، الرياضيون الإسكندنافيون، غواصو اللؤلؤ، مفوضو الشعب، طلاب المدارس الثانوية، مربو الثيران، مصارعو الثيران، صبيان الجزار، أربعة عشر صانع أفلام، صانع خزف، سبعة وستون طبيبًا، ونبلاء، وأربعة أمراء روس، وموظفان في السكة الحديدية، ومدرس الهندسة، وصانع سروج، وأحد عشر محاميًا، وغيرهم.

ومع ذلك، لا بدّ أن نشير إلى أن أحد أعضاء الأكاديمية الفرنسية قام بجولة لإلقاء محاضرة في البلقان، فلاحظ في إحدى جزر الماركيز وحدها، أن العرق الموجود فيها كان في غاية الجمال، تضاعف الشغف والنهم بمقدار 39 مرة. وفي غضون ثلاثة أشهر، انتشرت في جميع أنحاء العالم تسعمئة وخمسون نسخة. وبعد ستة أشهر أخرى، وصل هذا العدد إلى نحو ثمانية عشر ألفًا، وهو عدد كبير. يمكن أن يغير نسل العالم تقريبًا. ثمانية عشر ألفَ عاشق استسلموا لتأثير المرأة نفسها، ودون علمهم نشأ بينهم نوع من القرابة في سلوكهم ورغباتهم وشعورهم وتقديرهم للأشياء. علاوة على ذلك، تشكلت من خلال نصيحتهن الرغبة نفسها في إرضائهن، فقد أصبحوا متشابهين في المظهر، والمشية، وارتداء الملابس ولون ربطة العنق، وحتى في تعابير الوجوه وقسماتها. وهكذا بدا أستاذ الهندسة مثل قرصان صيني، والأكاديمي -على الرغم من لحيته- مثل مصارع الثيران. لقد خلقن لأنفسهن نوعًا من الرجال أفلتت خصائصهم الجسدية من أي تمحيص. اعتادت سابين دندنة أغنية تبدأ على هذا النحو: في الحرس الفرنسي، كان لدي حبيب. فتجري هذه الأغنية على ألسنة محبيها الذين لا حصر لهم وأصدقائهم ومعارفهم، لتصبح لازمة عالمية. غناها أفراد عصابات آل باكون في أثناء سطوهم على البنك الرئيس في شيكاغو، كما فعل قراصنة وو-ناي- نا، في أثناء نهبهم السفن الشراعية في النهر الأزرق، وجرت كذلك على لسان الخالدين في أثناء كتابة قاموس الأكاديمية.

أخيرًا، يبدو أن هيئة سابين ووجهها، وشكل عينيها، ومظهر ساقيها، سرعان ما فرضت شرائع جديدة للجمال الأنثوي. تفاجأ الرحالة المشهورون، المراسلون الصحفيون خاصة، عند عثورهم على المرأة نفسها في كل مكان، فهي تشبه نفسها تمامًا. تأثرت الصحف بالاكتشاف، وقدم العالم العلمي عدة تفسيرات للظاهرة؛ ما أدى

إلى نشوء نزاعات كبيرة لن تتوقف بكل تأكيد. سادت بين الجمهور نظرية شبه نهائية لتسوية الأجناس عن طريق الطفرة الجينية والخيار غير الواعي للأنواع بشكل عام. بدأ اللورد بوربري -الذي كان يتابع هذه المناقشات من كثب- ينظر إلى زوجته نظرة لا تخلو من الطرافة.

في شارع لابروفوار، واصلت سابين لومورييه في هدوء واضح حياة زوجة واعية وربة منزل جيدة، تذهب إلى السوق، وتطهو شرائح اللحم، وتخيط الأزرار، وتعتني بملابس زوجها، وتتبادل الزيارات مع زوجات زملائه وتكتب في الموعد المحدد للعم كليرمون فيران العجوز. على عكس شقيقاتها الأربع، بدت غير راغبة في اتباع الاقتراحات الخائنة للسيدة سميثسون فقد حرمت على نفسها أن تتناسخ لملاحقة العشاق. سينظر إلى هذا الاحتياط على أنه سلوك مخادع وماكر ومنافق، ما دامت سابين وأخواتها العديدات الآثمات كن الشخص ذاته. لكن كما هو شائع فإن أعظم المذنبين لم يتخلَ عنهم الرب نهائيًا، لأنه يعول على بصيص النور المشع في ظلمة هذه النفوس المسكينة.

كان بلا شك هذا الوميض موجود ويتجسد في ثمانية عشر ألفًا من العشيقات اللواتي يتعذر عذهن. في الحقيقة، كانت سابين تنوي في البداية تكريم أنطوان لومورييه كونه أول زوج شرعي. كان سلوكه تجاهها يشهد باستمرار على اهتمامه المشرف بها. بعد أن مرض لومورييه في اللحظة التي قام فيها بتدابير مالية سيئة النتائج، فغرق في الديون غرقًا ذريعًا، وهكذا وجدت الأسرة نفسها تعاني معاناة شديدة، وتقترب من البؤس. وفي كثير من الأحيان، لا تجد المال من أجل الدواء والخبز وكراء المنزل.

عاشت سابين أيامًا حزينة، لكنها عرفت كيف تقاوم الإغراءات، حتى عندما طرق الحاجب الباب وطلب أنطوان الكاهن، فهي لم تلجأ إلى ملايين السيدة بوربري أو السيدة سميثسون. ومع ذلك، وبينما كانت جالسة بجوار سرير المريض تراقب أنفاسه الصعبة، ظلت منتبهة لسلوك أخواتها (كان هناك سبعة وأربعون ألفًا منهن في ذلك الوقت)، ومنتبهة لحركاتهن جميعها ومصغية إلى همهماتهن الشهوانية الهائلة

التي تمزق أحيانًا قلبها بالزفرات، وفي بعض الأحيان كانت تبدو بأسنانها المصطكة، وبشرتها المفعمة بالحيوية، وحدقتي عينيها الواسعتين كأنها عاملة الربط الهاتفي، تراقب لوحة مفاتيح ضخمة وتثابر بشغف لتوزيع المكالمات الهاتفية.

رغم مشاركتها في هذا الاندماج الحسي، الوقح، والفاسق، والمفعم بالعرق والتأوهات، كانت تستمتع به حتمًا (حتمية فرضتها الضرورة الفيزيولوجية والتوافق التام والضروري للاندماج)، وعلى الرغم من ذلك، ظلت سابين غير راضية وروحها حسية، تتذكر حبها لثيوريم مرة أخرى بنية حازمة للسماح له بتجاهلها. ربما كان عشاقها البالغ عددهم سبعة وأربعون ألفًا مجرد تنويع لهذا الشغف اليائس. يجوز لنا الاعتقاد بذلك. من ناحية أخرى، يمكننا أن نفترض أنها انجرفت ببساطة وبشكل لا يقاوم إلى مصيرها المفضي إلى الهاوية (راجع هذه الفكرة لدى شارل فورييه التي يمكن للجميع قراءتها على قاعدة تمثاله، عند ملتقى بوليفار دو كليشي ودو لاكليشي: عوامل الجذب تتناسب مع الأقدار). كانت سابين قد عرفت أولًا من بائعة الألبان ثم عن طريق الصحف بنجاحات ثيوريم. في معرضه، أعجبت منبهرة واغرورقت عيناها عند مشاهدتها امرأته ذات الرؤوس التسعة الشديدة العذوبة والمغرقة في الفجائعية والأوهام. بدا لها حبيبها السابق مطهّرًا ومخلصًا ومفتدى ومبتعثًا ومتجددًا ومشرقًا. لذلك ومن أجله وحده، تجرأت على الدعاء والصلاة، فتذرعت إلى الرب بأن يحظى بمرقد دافئ وطعام جيد ونضارة روح في الفصول كلها، وأن تصبح رسوماته أكثر جمالًا.

كان ثيوريم لا يزال غارقًا في السكر، لكنه برأ من جنونه، رغم أن لديه المبررات نفسها ليعود إلى سابق عهده. بحكمة، قال لنفسه إن هناك أسبابًا جيدة لأي شيء، وأن هناك بالتأكيد من هي قادرة على أن تزيل عنه جنونه، ولكنه لم يكلف نفسه عناء البحث عنها.

ومع ذلك، بقيت حياته كما هي شاقة، يعيش وحيدًا في الغالب. واستجابة لدعوات سابين، أصبحت رسوماته أكثر جمالًا، وقال نقاد الفن أشياء في غاية الدقة عن الجوانب الروحية في لوحاته. ولم يعد يرتاد المقاهي، ولا يلتقي أصدقاءه إلا نادرًا،

ولا يتكلم إلا قليلًا كان يبدو بوجهه ومظهره الكئيب كمن يكابد وجعًا شديدًا.

وكان مرد ذلك إلى إعادة النظر بجدية إلى عيوب نفسه وشجبه سلوكه السابق تجاه سابين. وكلما تذكر دناءته، احمر وجهه خجلًا عشرين مرة في اليوم، واصفًا نفسه بصوت عالٍ بالأحمق والفظ والضفدع السام والخنزير المتغطرس. كان يمني النفس أن يلتقي سابين ليحاكم نفسه أمامها ويطلب منها المغفرة، غير أنه عدّ نفسه غير جدير بها. بعد أن حجّ إلى شاطئ بروتون، أحضر لوحتين رائعتين، أفجعت مشاهديهما بكاء، كانت ذكرى قوية عن فظاظته. كانت تمت كثيرًا من التواضع في شغفه بسابين، حتى أنه تأسف على نفسه لأنه كان في يوم من الأيام محبوبًا.

لحسن الحظ، عاد أنطوان لوموريه من الموت، وتعافى من المرض، واستأنف خدمته في المكتب، وعالج جراحه المالية قدر استطاعته. خلال هذه المحنة، ابتهج الجيران معتقدين أن الزوج سيموت وسيباع الأثاث وتصبح الزوجة في الشارع. على الرغم من أنهم جميعًا كانوا أشخاصًا ممتازين وقلوبهم في غاية الطيبة مثل الآخرين، كما أنهم لم يكونوا مستائين بأي حال من أسرة لوموريه، لكنهم رأوا مأساة قاتمة تجري بالقرب منهم بتقلباتها وانعطافاتها وحشرجات الموت القادم إليها ومحضر المحكمة وارتفاع الحمى، فعاشوا بفارغ الصبر في انتظار خاتمة تستحقها هذه المأساة.

لم يكن الناس غاضبين من لوموريه لأنه لم يمت، ولأنه أفسد كل شيء. ردًا على ذلك، بدأ الناس يشفقون على زوجته ويعجبون بها. قالوا لها: «سيدة لوموريه، يا لشجاعتك، لقد فكرنا فيك، أردنا أن نأتي لرؤيتك، لكن فريدريك قال لنا لا تفعلوا ستزعجونها، لكننا بقينا نتابع أحوالك، وقد قلنا للسيد بريفيه مرارًا وتكرارًا وبالأمس أيضًا: لقد كانت السيدة لوموريه استثنائية ورائعة». «كما قيلت هذه الأشياء بقدر المستطاع أمام لوموريه، وكررها مرارًا البواب والجيران لدرجة أن الرجل المسكين بدا له أن تعبيره عن امتنانه غير كافٍ. وذات مساء، وتحت نور المصباح، بدت له سابين متعبة. كانت مع عشيقها السادس والخمسين ألفًا، كان نقيبًا في الدرك ورجلًا وسيمًا، كان يربط حزامه في فندق بالدار البيضاء، ويخبرها أنه بعد الأكل الجيد

والسيجار الجيد، يعدّ الحب شيئًا سماويًا. في اللحظة نفسها نظر أنطوان لومورييه إلى زوجته باحترام، وأمسك يدها وضغط عليها بشفتيه.

وقال لها:

- عزيزتي، أنت قديسة. أنت أحلى القديسات وأجملهن. أنت قديسة، قديسة حقيقية.

غمرت سابين السخرية اللا إرادية لهذا التكريم وهذه النظرة العاشقة.

سحبت يدها وانفجرت بالبكاء واعتذرت عن أعصابها الهشة وانسحبت إلى غرفتها. بينما كانت تضع ملاقط شعرها، مات الأكاديمي ذو اللحية المنمقة بسبب تمزق في أوعيته الدموية في أحد مطاعم أثينا حيث كان جالسًا برفقة سابين التي كانت تُدعى هناك كونيغوند وتدعي أنها ابنة أختها. قد تبدو كونيغوند اسمًا مرغوبًا فيه، بل وحتى اسمًا أدبيًا، ولكن دعونا نفكر في الأمر: لا توجد ستة وخمسون ألف قديسة في التقويم، وكان من واجبنا تكريمهن جميعًا. بعد أن تأكدت أن رفات الرجل العظيم سيعتنى به أشد الاعتناء، انسحبت كونيغوند إلى حضن سابين التي أرسلتها في صباح اليوم التالي إلى كوخ في المنطقة لتكفر عن الإساءات العديدة التي تعرض لها أنطوان لومورييه.

عاشت كونيغوند، باسم لويز مينيا، في أحد أفقر الأكواخ في منطقة سان-أوين، حيث ترتفع في الجزء السفلي من الحيّ الحقير أكوام القمامة الكبيرة المكدسة في تربة من الفضلات ذات رائحة رماد البشرية الأسود. كان كوخها مصنوعًا من خشب الهدم القديم وأوراق قماشية مطلية بالأسفلت، يتألف من غرفتين مفصولتين بحاجز من الألواح الخشبية، إحداهما كانت تضم رجلًا عجوزًا معلولًا وواهنًا، يعتني به صبي معتوه، كان العجوز يهينه ليل نهار بصوت متحشرج. تحتاج لويز مينيا بلا شك إلى وقت طويل لتعتاد هذا الحي، وأيضًا الحشرات والروائح والجرذان، وعلى صخب المشاجرات وفظاظة الحياة والمضايقات الدنيئة كلها التي يفرضها العيش في هذه الدائرة الأخيرة من الجحيم الأرضية.

فقدت السيدة بوربري وأخواتها المتزوجات، وكذلك الستة والخمسون ألف عاشقة (اللاتي استمر عددهن في الازدياد)، الشهية للطعام أيامًا طوالًا. كان اللورد بوربري متفاجئًا من رؤية زوجته وهي تشحب كآبة، رأسها يهتز ويداها ترتجفان، وعيناها تعكر صفوهما. وطفق يخاطب نفسه «هل تخفي عني شيئًا ما؟» بيد أن ما حدث ببساطة هو أن لويز مينيان كانت في كوخها، إما تواجه جرذًا سمينًا وإما تنازع البق في فراشها الحقير، لكن كيف يمكنه أن يطلع على ذلك.

يمكن أن نفترض بلا ريب أن هذا النزول التكفيري إلى منزلة الملعونين وجامعي القمامة وسط الرائحة النتنة والحشرات والجروح والبثور والجوع والسكاكين والخرق والنبيذ الحريف وأفواه الحمقى قد يخطو بالمذنبة ذات الأجساد المتعددة خطوات حثيثة نحو الفضيلة والثواب. لكن كلا، على العكس من ذلك.. كانت لويز مينيان وشقيقاتها البالغ عددهن ستة وخمسون ألفًا (الآن صار العدد ستين ألفًا) وزوجة تيتراكارن يحاولن أن يذهلن أنفسهن من أجل نسيان دائرة سان أوين. بدلًا من أن تطهر نفسها بمعاناتها -وهو ما سيكون عادلًا ونافعًا- بذلت لويز قصارى جهدها كي لا ترى شيئًا ولا تسمع شيئًا، وأن تنتشر عبر القارات الخمس لمشاهدة الألاعيب الشائنة. كان ذلك سهلًا، حينما يكون لديك ستون ألف زوج من الأعين، يمكنك دون عناء أن تشتت انتباهك عن المشهد الذي تقدمه إحداهن. كذلك الشأن بالنسبة إلى السمع. يمكنك ألا تسمع شيئًا.

لحسن الحظ، كانت عناية القدير راعية ساهرة. في إحدى الأمسيات، عند الغسق، كان الهواء معتدلًا جدًا، وكانت الأبخرة القادمة من الأكواخ والمقطورات وأكوام القذارة تذوب في روائح شديدة تحيل على رائحة الجيف. فوق الحي يطوف ضباب خفيف فوق المنطقة طامسًا المنظر المتذبذب والأزقة المملوءة بالنفايات الحديدية، فيما تشتم رباث البيوت بعضهن بالعاهرات والقمامة والسارقات، وفي أحد المقاهي الخشبية، كان الراديو يجري مقابلة مع متسابق دراجات شهير.

كانت لويز مينان تملأ وعاء الماء عند صنبور النافورة حين رأت رجلًا متوحشًا يخرج من مقطورة ويتجه نحو النافورة. كان المخلوق يشبه الغوريلا في بنيته،

بوجهه وذراعيه الطويلتين المتدليتين على ارتفاع الركبتين، كان ينتعل نعلين ويرتدي طماقًا قصيرًا. يمشي إلى الأمام مائلًا بكتفيه. توقف بجانب لويز دون أن ينبس بكلمة، رمقها بعينيه الصغيرتين اللامعتين في وجهه ذي اللحية الكثيفة. كان رجال آخرون قد اقتربوا منها بالفعل عند النافورة، حتى أن بعضهم حام حول كوخها، لكن الأكثر فظاظة ظلوا متلهفين لملاحظة بعض التحولات في الطقوس اليومية. من المؤكد أن الأخير لم يفكر في الأمر وبدا قراره محسومًا وهادئًا كما لو كان الأمر يتعلق بمسألة تتعلق بركوب حافلة.

لم تجرؤ لويز على رفع عينيها، حدقت برعب في الأيدي الضخمة المعلقة، المكسوة بشعر أسود كثيف تتراكم الأوساخ في أماكن من خصلاته المتمردة. ملأت وعاء الماء وعادت أدراجها، لكن الغوريلا رافقها وهو لا يزال صامتًا. سار بجانبها بخطوات صغيرة، بسبب رجليه القصيرتين اللتين لا تتناسبان مع جسمه، أحيانًا كان يبصق عصارة التبغ من فمه. سألته لويز:

- حسنًا، لماذا تتبعني؟

قال الغوريلا:

- بدأ جرحي يتدفق مرة أخرى.

وبينما كان يسير قرصَ قماشَ سرواله الداخلي الذي كان يلتصق بفخذه. وصلا إلى الكوخ. كانت لويز ترتعد من الخوف، تقدمت خطوة إلى الأمام، ودخلت بسرعة وأوصدت الباب في وجهه. ولكن قبل أن تغلقه بالمفتاح، دفعه الغوريلا بعيدًا بيد واحدة وتقدم إلى الداخل. ودون أن يهتم بوجودها، مرر أصابعه الحذرة على فخذه ليدرك ملامح الجرح المتقيح من خلال القماش. استمرت المناورة مدة طويلة. في الغرفة المجاورة، كان الرجل العجوز يشتم بألعن الشتائم وبصوت متحشرج، مشتكيًا أن الصبي يريد اغتياله. وقفت لويز في وسط الغرفة مرعوبة وعيناها مثبتتان على الغوريلا. حين قامت رأت نظراته، لوح لها كأنه يطلب منها أن تنتظر، وبعد أن أغلق الباب، وضع مضغة التبغ فوق الكرسي.

في باريس، ولندن، وشنغهاي، وباماكو، وباتون روج، وفانكوفر، ونيويورك، وبريسلاو، ووارسو، وروما، وبونديشيري، وسيدني، وبرشلونة وفي أنحاء العالم كله، تابعت سابين متقطعة الأنفاس تحركات الغوريلا. كانت السيدة بوربري قد دخلت للتو إلى قاعة الضيوف ورأت سيدة المنزل التي كانت تتقدم لمقابلتها، فتراجعت أمامها، أنفها مقروص وعيناها ممتلئتان بالرعب إلى أن سقطت على ركبتي عقيد عجوز. في نابير (نيوزيلندا)، غرست إرنستين -وهي آخر مواليد الخمسة والستين ألفًا- أظافرها بعمق شديد في يدي موظف بنك شاب دهش متسائلًا عمَّ تفعله. كان بإمكان سابين أن تستعيد لويز مينيان في أحد أجسادها العديدة، وقد فكرت في ذلك بالفعل، لكنها خالت أنه ليس حقها أن ترفض هذا الاختبار.

اغتصب الغوريلا لويز مينيان عدة مرات. وخلال المدد الفاصلة، كان يلتقط مضغة التبغ مرة أخرى، ثم يعيدها إلى الكرسي. على الجانب الآخر من الحاجز، واصل الرجل العجوز طلباته، وبيده الواهنة يلقي قباقيبه في الغرفة وهو يحاول أن يصرع رفيقه الشاب الذي كان يطلق في كل مرة ضحكات بلهاء. كان الليل قد خيم تقريبًا. في شبه عتمة، أثارت حركات الغوريلا روائح ثقيلة من القذارة والطعام الفاسد والشبق والصديد، التي كانت مركزة في زغبه الحيواني وفي ملابسه. أخيرًا، بعد أن استأنف لوك مضغة التبغ إلى الأبد، وضع قطعة من عشرين فلسًا على الطاولة، ومثل رجل يعرف كيف يستمتع بالحياة، قال صارخًا وهو يغادر:

- سأعود.

في تلك الليلة، لم تستطع النوم أيّ من الأخوات البالغ عددهن خمسة وستون ألفًا، وبدا أن دموعهن لن تجف أبدًا. لقد رأوا بوضوح الآن أن ملذات الحب الموصوفة في روايات السيدة سميثسون مجرد أوهام مصطنعة، وأن الرجل الأكثر وسامة في العالم، خارج روابط الزواج المقدسة، لا يمكنه أن يقدم إلا القليل مقابل ما قدمه الغوريلا. بعد أن تشاجر آلاف منهن مع عشاقهن الذين استاؤوا من هذه الدموع والوجوه المشمئزة، قطعن على الفور علاقاتهن بهم وسعين للحصول على رزق مشرف. عمل بعض منهن في المصانع عاملات أو خادمات، ووجدت أخريات عملًا

في المستشفيات أو المصحات. في جزر الماركيز، كان هناك اثنتا عشرة منهن عملن في مستوصفات لعلاج المصابين بالجذام. للأسف، لا ينبغي للمرء أن يعتقد أن هذه الحركة كانت عامة على الفور. على العكس من ذلك، فقد حدثت عمليات تكاثر جديدة للمذنبات لتعويض هذه الانتكاسات المجيدة وما حصل بعدها. وخلال حملة الترويج للتوبة، استسلم بعضهن للإغراء والعودة إلى الملذات الشائنة.

لحسن الحظ، زار الغوريلا لويز منيان بشكل متكرر. ولأنه كان لا يزال قبيحًا ووحشيًا، ولا تزال رائحته النتنة متواصلة، فقد كانت شهوته باهرة ورائعة. وعقب كل زيارة إلى الكوخ، كانت تخترق العاشقات ارتعاشات هائلة من الاشمئزاز، كما تلجأ ألف أو ألفان منهن إلى الاحتماء بكرامة العمل والأعمال الصالحة، حتى لو كان ذلك يعني تغيير رأيهن والعودة إلى حياة الشبق. في النهاية، إذا أخذنا بعين الاعتبار الأرقام فقط، فإن سابين لم تحرز أي تقدم ملحوظ في طريق الفضيلة، لكن عدد عشاقها استقر عند نحو سبعة وستين ألفًا، وهذا وحده كان تقدمًا ملموسًا.

وفي صباح أحد الأيام، قدم الغوريلا عند لويز مينيان حاملًا معه كيسًا كبيرًا من القماش يحتوي على ثماني علب من معجون الكبد، وست علب من سمك السلمون، وثلاث من جبن الماعز، وثلاث من جبن الكاموميبير، وست بيضات مسلوقة، وخمسة عشر فلسًا من الخيار المخلل، ووعاء من مفروم الخنزير، ونقانق، أربع كيلوغرامات من الخبز الطازج، واثنتي عشرة زجاجة من النبيذ الأحمر وواحدة من الروم، وأيضًا فونوغراف يرجع تاريخه إلى عام 1912، وثلاثة تسجيلات على أسطوانات، مرتبة بحسب تفضيلات الغوريلا: أغنية القمح الذهبي، ومونولوغ الصفيق، وثنائي شارلوت وويرثر. وصل الغوريلا إذن وعلى كتفه كيسه، وحبس نفسه في الكوخ مع لويز مينيان ولم يغادر إلا في اليوم التالي في الساعة الخامسة صباحًا.

من اللائق ألا يقال أي شيء عن الفظائع التي ارتكبت خلال هذين اليومين من المواجهة الثنائية. ولكن ما يجدر بك معرفته أن في تلك الأثناء تخلت عشرون ألفًا من العاشقات -بخيبة أمل- عن عشاقهن لتكريس أنفسهن لمهام جاحدة ولمساعدة المنكوبين. صحيح أيضًا أن تسعة آلاف منهن (نصفهن تقريبًا) سقطن مرة أخرى في

الخطيئة. لكن المكسب كان جيدًا. منذ ذلك الحين، كانت المكاسب ثابتة تقريبًا، على الرغم من الارتدادات والانتكاسات. كانت هذه الأجساد التي تعد ولا تحصى تحركها روح واحدة، ربما سيفاجأ المرء أن النتيجة لم تكن بالسرعة المأمولة.

لكن هذه من عادات الحياة، خصوصًا المتكررة كل يوم والأكثر تفاهة والأقل أهمية مثل التحام الروح بالجسد.

لقد شاهدنا ذلك جيدًا مع سابين وشقيقاتها اللائي عشن حياة الملذات، اليوم عاشقة لهذا، في اليوم التالي عاشقة لشخص آخر وفي يوم آخر تحزم حقائبها وتعلن التوبة، فيما احتفظت معظم الأخريات بنزعة شهوانية في أوقات محددة، وشقة مريحة، وعشاءات في المطعم، وابتسامة مرحبة، وقطة سيامية، وكلب صيد، وتجعيد الشعر أسبوعيًا، وجهاز راديو، وخياطة، وكنبة وثيرة، وشركاء في لعبة البريدج، وأخيرًا الحضور المنتظم للرجل، وتبادل الآراء معه حول الطقس، أو ربطات العنق، أو السينما، أو الموت، أو الحب، أو التبغ، أو تصلب الرقبة. ومع ذلك، بدت هذه الأمور الغريبة كأنها تتلاشى الواحدة تلو الأخرى.

كان الغوريلا يأتي كل أسبوع عند لويز ليقضي يومين أو ثلاثة أيام متتالية. كان يسكر بشكل مثير للاشمئزاز ويتعامل معها بوحشية.

كانت تنبعث رائحة كريهة من جسده تشبه الصديد. وكانت آلاف وآلاف من العاشقات يحاولن أن يتغلبن على خطاياهن، فيندفعن إلى الطهارة والأعمال الصالحة، أو يعدن إلى الرذيلة ويتوقفن عن ارتكابها، ويترددن، ويناقشن، ويخترن، ويتلمسن، ويتعثرن، ويتحررن، ويتعافين، ومن أجل أكبر عدد منهن، وضعن أنفسهن أخيرًا على محك حياة العفة والعمل الخيري ونكران الذات.

كانت الملائكة مدهوشة ومنبهرة من فوق حواجز السماء وهي تتابع هذا الصراع المجيد، وحين كانت ترى الغوريلا تدخل كوخ لويز مينيان، لم تستطع منع أنفسهن من ترديد ترنيمة مبهجة.

كان الإله نفسه يلقي نظرة من وقت إلى آخر، لكنه لم يكن يشاطر الملائكة

حماسهن، كان يبتسم فحسب، وكان أحيانًا يوبخهن (ولكن أبويًا). (يقول الإله): «أيتها الملائكة، هوني عليك، هوني عليك إنها روح مثل أي روح أخرى. ما تروه، هو ما يحدث مع كل النفوس المسكينة التي لم أكلف نفسي عناء منحها سبعة وستين ألف جسد. أعترف أن النقاش حول هذا الموضوع مذهل جدًا، لكن ذلك ما أردته حقًا».

في شارع لابروفوار، كانت سابين تعيش حياة قلقة وحذرة، حيث كانت تراقب حركات روحها وتسجلها بأرقام في مذكرة تدبير المنزل.

وحين بلغ عدد أخواتها التائبات أربعين ألفًا، ارتسم على وجهها تعبير أكثر هدوءًا، رغم أنها ظلت في غاية التأهب واليقظة. في غرفة الطعام وخلال المساء، كانت في كثير من الأحيان يشرق وجهها بابتسامة تزين محياها بضوء شفاف، فيحسب أنطوان لوموريبه، أكثر من أي وقت مضى، أن زوجته تواصل وشوشتها مع الملائكة. ذات أحد، في الصباح، كانت تنفض بساطًا بجانب السرير عند النافذة وبجانبها لوموريبه يفكر في كلمات متقاطعة صعبة حين مر ثيوريم من شارع لابروفوار.

فقال لوموريبه:

- انظري، ها هو الرجل المجنون. إننا لم نره منذ مدة طويلة.

وهنا احتجت سابين برفق قائلة:

- لا تقل عنه مجنونًا. إن السيد ثيوريم رسام عظيم!

بخطوات متسكعة، كان ثيوريم يتجه رأسا نحو مصيره الذي أخذه أولًا إلى شارع الصفصاف ثم قاده إلى السوق المتجولة، خلف لابورت دو كلينياكور. كان غير مبال بالبضائع المخفضة، تجول عشوائيًا وانتهى به الأمر إلى أن دخل مناطق المنبوذين الذين شيعوه بعدائية مكتومة، وخمنوا أن هذا الغريب حسن الملبس ليس سوى مشاء فضولي مفتون بالبؤس الخلاب. سارع ثيوريم إلى الرفع من وتيرة سيره، فوصل إلى آخر الأكواخ، حيث وجد نفسه تقريبًا وجهًا لوجه مع لويز مينيان التي كانت تحمل وعاء الماء. كانت تنتعل خفين وترتدي ثوبًا أسود رهيفًا ومرقعًا ومرتقًا.

دون أن ينبس بكلمة، أخذ وعاءها وسار وراءها إلى غرفتها البئيسة. كان جارها العجوز قد جرجر نفسه إلى سوق السلع المستعملة ليشتري طبقًا مستعملًا، لهذا كان الكوخ صامتًا. أخذ ثيوريم يدي سابين ولم يجد أيّ منهما صوتًا ليطلب الصفح من الآخر عن الأذى الذي اعتقد أنه ألحقه بالآخر. وبينما كان يجثو عند قدميها، أرادت أن ترفعه، لكنها سقطت على ركبتيها وأجهشا منتحبين.

في تلك الأثناء دخل الغوريلا. كان يحمل كيسًا كبيرًا من الطعام على كتفه، ناويًا الإقامة أسبوعًا في كوخ لويز. وضع حقيبته صامتًا، ودون أن يقول شيئًا، أمسك حنجرتي العاشقين -رقبة واحدة في كل يد- ورفعهما، وخضخضهما كقارورتين، ثم خنقهما. ماتا في الوقت نفسه، وهما ينظران وجهًا لوجه. بعد أن وضع كلًّا منهما على كرسي، جلس الغوريلا لتناول الطعام معهما، فتح علبة من معجون الكبد وشرب زجاجة من النبيذ الأحمر. وهكذا أمضى اليوم كله يأكل ويشرب ويعلي صوت الفونوغراف للاستماع إلى أغنية القمح الذهبي.

حين حل المساء، ربط الجثتين معًا ووضعهما في كيسه الكبير. حين غادر الكوخ وحمله على كتفه، شعر بنوع من الارتعاش في المنطقة العلوية من صدره، كأن إحساسًا بالعطف داهمه فجأة، عندها تكبد عناء إعادة فتح الكيس ليلقي بداخله زهرة من زهور إبرة الراعي، قطفها من نافذة مقطورة في الجوار. وعبر الطرق الرئيسة نزل إلى نهر السين، حيث وصل قرابة الساعة الحادية عشرة مساءً.

منحته هذه المغامرة كلها قليلًا من الخيال. عند رصيف لاميساجري، حين ألقى الجثتين في النهر، حسب الغوريلا أنه أخيرًا اكتشف أن الحياة مملة ومرهقة مثل قراءة كتاب، فخطرت على باله فكرة أن يضع حدًّا لها، ولكن بدلًا من أن يلقي بنفسه في الماء، راقته فكرة أن يتناول طعامًا شهيًّا ثم يذهب ويقطع حلقه تحت الشرفة في شارع دي لافانديير سانت-أوبورتون.

في اللحظة التي خنقت فيها لويز مينيان حتى الموت، لفظت سبع وستون ألفًا من شقيقاتها وبعض الأخوات أنفاسهن الأخيرة مبتسمات ابتسامة سعيدة، رافعات أيديهن إلى أعناقهن. بعض منهن، مثل السيدة بوربيري والسيدة سميثسون دفن في

قبور فخمة، فيما اختفت آثار الأخريات اللائي دفن تحت أكوام بسيطة من التراب. أما سابين فدفنت في مونمارتر في مقبرة سان فانسان الصغيرة، حيث لا يزال أصدقاؤها يزورونها من حين إلى آخر.

يُعتقد أنها في الجنة وربما سيكون من دواعي سرورها، أن تبعث روحها مرة أخرى في سبعة وستين ألف جسد.

البطاقة

مقتطفات من مذكرات جول فلغمون.

10 فبراير - انتشرت شائعة سخيفة في الحي حول القيود الجديدة المفروضة. تقول الشائعة: من أجل درء المجاعة وضمان موارد أفضل للعنصر العامل من السكان، سيُشرع في إعدام المستهلكين غير المنتجين: العجائز، والمتقاعدين، والعاطلين، وغيرهم من الأفواه عديمة الفائدة. في الأساس، أعتقد أن هذا الإجراء سيكون عادلًا بما يكفي. التقيت للتو جاري روكينتون أمام منزلي، هذا الرجل السبعيني المتقد نشاطًا، الذي تزوج في العام الماضي امرأة شابة في الرابعة والعشرين. عندما التقيته صرخ ساخطًا: «ما أهمية العمر ما دمت أجعل دميتي الجميلة سعيدة!». بعبارات نبيلة، نصحته بأن يقبل بسرور وفخر التضحية بشخصه من أجل خير المجتمع.

12 فبراير - لا يوجد دخان من دون نار. تناولت الغداء اليوم مع صديقي القديم مالفَزوَ مستشار محافظة السين. لقد طهوت له بمهارة، وبعد ذلك سحبت لسانه بزجاجة من نبيذ أربوَا. بطبيعة الحال، لا يوجد قتل لعديمي الفائدة. سنقلص ببساطة زمن حياتهم. أوضح لي مالفَزوَ أنه سيحق لهم الحصول على أيام عديدة من الحياة شهريًا، وفقًا لدرجة لا جدواهم. يبدو أن بطاقات الزمن قد طبعت بالفعل. لقد اعتبرت هذه الفكرة أكثر شاعرية من بهجتها. أتذكر أني ربما قلت بعض الأشياء الساحرة حول هذا الموضوع. مما لا شك فيه أن مالفَزوَ -الذي تأثر قليلًا بالنبيذ- شاطرني الرأي، شرع ينظر إليّ بعينين لطيفتين مترعتين بالصداقة.

13 فبراير - «إنه عار! وإنكار للعدالة! واغتيال وحشي! لقد ظهر المرسوم للتو في الصحف وتبيّن أن من بين «المستهدفين الذين لا تعوض صحتهم بأي اعتبار حقيقي»، يوجد الفنانون والكتاب! كنت سأتفهم إن لزم الأمر أن الإجراء يطبق على الرسامين والنحاتين والموسيقيين. لكن على الكتاب! هناك تضارب وانحراف سيظل هذا العار الأعظم في عصرنا. لأن في النهاية، لا يجب إظهار فائدة الكتاب، خاصةً ما يتعلق بي، يمكنني أن أقولها بكل تواضع. ولكني لن أمنح سوى خمسة عشر يومًا من الحياة في الشهر.

16 فبراير - مع دخول المرسوم حيز التنفيذ في الأول من مارس وجب أن تبدأ التسجيلات اعتبارًا من 18 مارس، انشغل الأشخاص الذين حكموا بناء على وضعهم الاجتماعي بحياة جزئية بالبحث عن وظيفة تسمح بتصنيفهم ضمن فئة الكائنات التي تحيا حياة كاملة. لكن الإدارة، ببصيرة شيطانية، حظرت تحركات الأفراد كلهم قبل 25 فبراير.

خطرت لي فكرة للاتصال بصديقي مالْفَزوَ حتى يتمكن من أن يحصل لي على وظيفة بواب أو حارس متحف في غضون ثمان وأربعين ساعة. لكن طلبي جاء بعد فات الأوان. لقد منح للتو آخر منصب ساعي المكتب متوافر لديه. قال لي:

- ولكن لماذا بحق السماء انتظرت إلى غاية اليوم لتطلب مني وظيفة؟

- ولكن كيف لي أن أفترض أن هذا الإجراء سيمسني؟ عندما تناولنا الغداء معًا، لم تخبرني بذلك...

- اسمح لي. لقد حددت ابتداء من 17 فبراير، ولا يمكن أن يكون كلامي أكثر وضوحًا لقد قلت إن التدبير يتعلق بكل من لا منفعة ترجى منه.

لا شك في أن بوابة سكني تعتبرني بالفعل نصف حي، شبحًا، ظلًا خرج بالكاد من الجحيم، لأنها أهملت هذا الصباح أن تحضر لي بريدي. نزلت، ففاجأتها بالأمر الجلل.

- قلت لها من الأفضل أن تضحي النخبة بحياتها من أجل من هم كسالى مثلك. وفي العمق، هذا صحيح جدًا. كلما فكرت في الأمر، بدا لي أن هذا المرسوم غير عادل وظالم.

منذ قليل التقيت روكتون وزوجته الشابة. لقد شعرت بالشفقة على الرجل العجوز المسكين. عمومًا، سيحصل على ستة أيام من الحياة في الشهر، لكن الأفدح أن السيدة روكتون، نظرًا إلى شبابها، ستحصل على خمسة عشر يومًا. سيلقي هذا الفارق الزمني بالزوج العجوز في قلق جنوني. يبدو أن الفتاة تقبلت مصيرها بمعنويات فلسفية أكثر عمقًا.

التقيت خلال هذا اليوم عديدًا من الأشخاص الذين لم يصلهم المرسوم. إن قصورهم وجحودهم بخصوص التضحية يثير اشمئزازي كثيرًا. لا يبدو هذا الإجراء الجائر بالنسبة إليهم أكثر الأشياء طبيعية في العالم فحسب، بل بدوا مسرورين به. لا يمكن أبدًا أن تكون أنانية البشر بهذه الفظاعة.

18 فبراير - وقفت ثلاث ساعات في طابور مبنى البلدية في الدائرة الثامنة عشرة لآخذ بطاقتي الزمنية. كنا هناك، موزعين إلى طابورين، نحو ألفي بائس منذورين لشهية الجماهير العاملة. وهذه ليست سوى الدفعة الأولى فقط. بدا لي أن عدد العجائز يفوق النصف. كان هناك شابات جميلات واهنات حزينات يزفرن متنهدات: لا نريد أن نموت الآن. كنَّ المحترفات في ممارسة المتعة كثيرات. أثر المرسوم فيهن بقسوة بعد تقليص مدة حياتهن إلى سبعة أيام في الشهر. أمامي، اشتكت إحداهن من إدانتها إلى الأبد بسبب وضعها فتاةً للمتعة. وزعمت أنه خلال سبعة أيام، لن يكون للرجال وقت للتعلق بهن. لا يبدو ذلك مؤكدًا. بين طوابير الانتظار، تعرفت بتأثر كبير، ويجب أن أعترف أني شعرت برضا متكتم، على رفاق مونمارتر والكتاب والفنانين: سيلين، وجين بول، ودارانيس، وفوشوا، وسوبول، وتانتان، وديسباربيس وآخرين. كان سيلين يمر بيوم حزين. قال إنها مناورة أخرى لليهود، لكني أعتقد - بخصوص هذه النقطة بالذات- أن مزاجه السيئ كان يضلله. في الواقع، بموجب أحكام المرسوم، منح اليهود، دون تمييز في العمر أو الجنس أو النشاط، نصف يوم من الحياة في الشهر فقط.

عمومًا، كان الحشد غاضبًا وصاخبًا. لقد عاملَنا عديد من العملاء المكلفين بخدمة النظام بازدراء شديد، ومن الواضح أنهم كانوا يعدّوننا حثالة البشرية. في عدة مرات، عندما سئمنا من هذا الانتظار الطويل، استرضوا نفاد صبرنا بركلات في المؤخرة. ابتلعت هذا الإذلال بكرامة صامتة، لكني حدقت في عميد شرطة، وأنا أصرخ في ذهني صرخة ثورة. الآن بتنا نحن ملعوني الأرض.

تمكنت أخيرًا من سحب بطاقتي الزمنية، ومعها التذاكر المحددة كل منها في 24 ساعة من الحياة، كانت زرقاء وفي غاية الليونة، عناقيّة اللون وناعمة لدرجة أن

عينيّ اغرورقتا بالدموع.

24 فبراير - منذ أسبوع كتبت إلى الإدارة المختصة لتأخذ حالتي الشخصية بعين الاعتبار. حصلت على أربع وعشرين ساعة إضافية من الحياة في الشهر. أخبروني أن الأمر سيبقى هكذا دائمًا.

5 مارس - منذ عشرة أيام، وأنا أعيش حياة محمومة جعلتني أتخلى عن كتابة يومياتي. وحتى لا أفقد شيئًا من هذه الحياة القصيرة، تخليت عن نومي الليلي تقريبًا. في هذه الأيام الأربعة الماضية، سأكون قد سوّدت أوراقًا أكثر مما كنت سأفعل خلال ثلاثة أسابيع من حياتي الطبيعية، ومع ذلك فإن أسلوبي احتفظ بالتألق نفسه، وفكرتي بالعمق ذاته. وكرست نفسي للمتعة بالجنون عينه.

أتمنى لو كانت كل النساء الجميلات ملكي، لكن هذا مستحيل. مع الرغبة دائمًا في الاستفادة من الساعة التي تمضي، وربما بروح الانتقام أيضا، كنت أتناول وجبتين دسمتين جدًا من السوق السوداء كل يوم. في الظهيرة، أكلت ثلاث دزينات من المحار، وبيضة مسلوقة، وربع إوزة، وشريحة لحم بقر تندرلوين، وخضراوات، وسلطة، وأنواعًا مختلفة من الجبن، وحلوى من الشوكولاتة، وليمون هندي، وثلاث برتقالات يوسفي. بينما كنت أشرب قهوتي، وعلى الرغم من أن فكرة مصيري الحزين ما زالت تهيمن على ذهني، فإنني شعرت بسعادة من نوع خاص. هل سأصبح رواقيًا مثاليًا؟ غادرت المطعم، وصادفت زوجي روكينتون. كان الرجل يعيش يومه الأخير من شهر مارس. في هذا المساء وعند منتصف الليل، ستنتهي صلاحية تذكرته السادسة، بعدها سيغرق في العدم وسيبقى قابعًا هناك طوال خمسة وعشرين يومًا.

7 مارس - زرت السيدة روكينتون الشابة التي أصبحت منذ منتصف الليل أرملة مؤقتًا. استقبلتني بترحيب كئيب جعلها أكثر سحرًا. تحدثنا عن أشياء مختلفة، وكذلك عن زوجها. أخبرتني كيف اختفى في العدم. كان كلاهما في السرير. وعند الدقيقة الأخيرة المفضية إلى منتصف الليل، أمسك روكينتون بيد زوجته وقدم لها توصياته الأخيرة. ومع حلول منتصف الليل، شعرت فجأة بأن يد رفيقها تذوب في يدها. لم يتبق بجانبها سوى منامته الفارغة وطاقم أسنانه فوق المخدة. هذا

الاستحضار حركنا بعمق. بينما كانت لوسيت روكينتون تذرف بعض الدموع، فتحت لها ذراعي وحضني.

12 مارس - الليلة الماضية، في الساعة السادسة صباحًا، ذهبت لأتناول كوب شراب لدى الأكاديمي بيروك. كما نعلم، فإن الإدارة -حتى لا تكذب سمعتها بالخلود- تمنح بقايا منتسبيها امتياز الظهور بين الأحياء بصفتهم الشخصية المرموقة. وكان بيروك حقيرًا بعجرفته ونفاقه وشرهه. كنا في منزله نحو خمسة عشر شخصًا، كلنا قرابين، نعيش على تذاكرنا الأخيرة لهذا الشهر. كان بيروك وحده كامل الأهلية، كان يعاملنا بلطف، مثل كائنات ضئيلة وضعيفة. لقد أشفق علينا بنظرات ذات نيّات سيئة، لكنه وعد بالدفاع عن مصالحنا في غيابنا. لقد استمتع بكونه مميزًا وذا مكانة أهم منا.

لقد كبحت جماح غضبي حتى لا أصفه بالحقير والوضيع. آه! لو لم يكن لدي أمل في خلافته في الأكاديمية في يوم من الأيام!

13 مارس - تناول الغداء عند الظهيرة مع آل دومون. كما هو الحال دائمًا، تشاجرا وبلغا حد إهانة بعضهما بعضًا. بنبرة صريحة لا لبس فيها، صرخ دومون: «لو كان بإمكاني استخدام تذاكر حياتي فقط في النصف الثاني من الشهر، حتى لا أعيش الزمن الذي تعيشينه!» إذ ذاك بكت السيدة دومون بحرقة.

16 مارس - لوسيت روكينتون دخلت العدم الليلة الماضية. ولأنها كانت في منتهى الخوف، فقد ساعدتها في لحظاتها الأخيرة. كانت بالفعل في السرير عندما ذهبت إلى شقتها في التاسعة والنصف. ولتجنب آلام اللحظة الأخيرة، تمكنت من تأخير الساعة التي كانت على طاولة السرير ربع ساعة. وقبل خمس دقائق من الغوص، أصيبت بنوبة بكاء. بعد ذلك، واعتقادًا منها أنه لا يزال أمامها متسع عشرين دقيقة، أخذت وقتها الكافي لتعود إلى الانشغال بغنجها الذي بدا لي في غاية التأثير. خلال لحظة العبور، حرصت على ألا أرفع عيني عنها. كانت تضحك على ملاحظة أدليت بها للتو، وفجأة انقطعت ضحكاتها في الوقت نفسه الذي كانت تختفي فيه عن نظري، كما لو أن حاويًا أخفاها. تلمست المكان الدافئ حيث كان جسدها يستريح، وشعرت بصمت ينزل إلى أعماقي، ذلك السكون الذي يفرضه حضور الموت.

كنت في منتهى الانفعال. وإلى غاية هذا الصباح، وأنا أكتب هذه السطور، لا أزال أشعر بالحزن. منذ أن استيقظت وأنا أعد ما تبقى لي من ساعات لأعيشها. الليلة، في منتصف الليل، سيحين دوري. في اليوم نفسه، في الثانية عشرة ليلًا إلا ربعًا، سأتناول مذكراتي مرة أخرى. ذهبت إلى سريري وأنا أريد أن تداهمني هذه الوفاة المؤقتة وأنا أمسك قلمي بيدي، وأنا أمارس مهنتي. أجد هذا الموقف غريبًا. أنا أحب هذا الشكل من الشجاعة والأناقة والسريّة. في الحقيقة، هل الموت الذي ينتظرني مؤقت حقًّا، وليس موتًا خالصًا وبسيطًا.

هذا الوعد بالانبعاث لا يعني لي شيئًا ولا يستحق حتى العناء. أحاول الآن أن أراه طريقة ذكية لتلوينه بالحقيقة القاتمة. إذا لم ينبعث أيّ من الضحايا خلال أسبوعين، فمن سيطالب بحقهم في الانبعاث؟ ليس ورثتهم بالطبع! ومن سيطالبون بالعزاء الجميل! وفجأة تذكرت أن انبعاث الضحايا دفعة واحدة، سيكون في اليوم الأول من الشهر المقبل، أي الأول من أبريل. قد تكون هذه فرصة لكذبة أبريل الجميلة. أشعر بالذعر الشديد وأنا...

1 أبريل - أنا لا أزال على قيد الحياة وبصحة جيدة. لم تكن كذبة أبريل حقيقية. علاوة على ذلك، لم أشعر بمرور الوقت. وجدتني في سريري، وكنت لا أزال تحت تأثير هذا الذعر الذي يسبق موتي. تركت مذكراتي على السرير، ووددت أن أنهي الجملة حيث بقيت فكرتي عالقة، لكن الحبر في قلمي انتهى. عندما اكتشفت أن ساعتي الحائطية توقفت عند الساعة الرابعة وعشر دقائق، بدأت أشك في الحقيقة. كانت ساعتي قد توقفت أيضًا. خطرت على بالي فكرة الاتصال هاتفيًا بمالْفَرْوَ لأسأله عن التاريخ. لم يخفِ روح الدعابة السيئة حين سحبته من فراشه في منتصف الليل، لكنه لم يشاطرني فرحة انبعاثي إلا قليلًا. كنت بحاجة فقط إلى التنفيس عن نفسي، فقلت له:

- كما ترى، فإن التمييز بين الزمان المكاني والزمان المعيش ليس من خيال فيلسوف. أنا برهان على ذلك. في الواقع الزمن المطلق لا وجود له...

- ممكن تمامًا، لكن ما زلنا في الثانية عشرة ليلًا وثلاثين دقيقة، وأنا أعتقد...

- لاحظ أنه مصدر سلوى. هذه الأيام الخمسة عشر التي لم أعشها، لم تكن بالنسبة إليّ وقتًا ضائعًا. أخطط لاستعادتها في وقت لاحق.

أنهى مالفَزوَ المكالمة قائلًا:

- حظًا سعيدًا وليلة سعيدة.

هذا الصباح، عند التاسعة صباحًا، خرجت وشعرت بتغيير مفاجئ. بدا لي أن الفصل قد حقق قفزة كبيرة إلى الأمام. في الحقيقة، كانت الأشجار قد تغيرت فعلًا، والهواء لطيفًا، وبدت الشوارع مختلفة. والنساء أيضًا شبيهات بالربيع. بدت فكرة أن العالم استطاع أن يعيش من دوني في غاية الغم وما زالت تسبب لي بعض الانزعاج. رأيت أشخاصًا كثيرين انبعثوا هذه الليلة، فتبادلنا بعض الانطباعات.

أمسكت الأم بورديبه بساقي عشرين دقيقة لتخبرني أنها عاشت منفصلة عن جسدها خمسة عشر يومًا من الأفراح الرائعة والفردوسية. ظل أطرف لقاء لي هو بالتأكيد لقاء بوشاردون الذي كان يغادر منزله. كان الموت المؤقت قد احتجزه في أثناء نومه ليلة 15 مارس، فاستيقظ هذا الصباح مقتنعًا أنه أفلت من مصيره. انتهز الفرصة للذهاب إلى حفل زفاف كان يعتقد أنه سيكون اليوم، لكنه في الواقع، كان الاحتفال قد أقيم منذ أسبوعين. أنا لم أخدعه.

2 أبريل- ذهبت لتناول الشاي مع عائلة روكينتون. كان الرجل سعيدًا تمامًا. ما دام لم يشعر بوقت غيابه، فإن الأحداث التي وقعت ليست حقيقية في ذهنه. من الواضح أن فكرة إمكانية خيانة زوجته خلال الأيام التسعة التي عاشت من دونه، تبدو له فكرة ميتافيزيقية. أنا في غاية السعادة من أجله. لم تتوقف لوسيت عن النظر إليّ بعينين مبللتين وذابلتين. أكره هذه الرسائل العاطفية المرسلة دون علم الطرف الثالث.

5 أبريل - لم أفقد أعصابي منذ الصباح، بينما كنت ميتًا، قام بيروك بالمناورة حتى يكون افتتاح متحف ميريمي في 18 أبريل. بمناسبة هذا الحفل، المخادع القديم كان يعلم ذلك، كنت سألقي خطابًا مهمًا جدًا كان سيفتح لي أبواب الأكاديمية. لكن

في 18 أبريل، سأكون نسيًا منسيًا.

7 أبريل - مات روكينتون مرة أخرى. هذه المرة قبل مصيره بروح من الدعابة فدعاني لتناول العشاء في منزله وفي منتصف الليل كنا في غرفة المعيشة نشرب الشمبانيا. عندما غاص في العدم، كان روكينتون واقفًا على قدميه، وفجأة رأينا ملابسه تتساقط كومة فوق السجادة. في الواقع كان المشهد هزليًا تمامًا، إلا أن اندفاع لوسيت إلى البهجة، بدا لي غير لائق وفي غير محله.

12 أبريل. زيارة مؤثرة صباح اليوم، زارني رجل في الأربعين تقريبًا، فقير، خجول، وفي حالة بدنية سيئة إلى حدّ ما. كان عاملًا مريضًا، متزوجًا وأبًا لثلاثة أطفال، أراد أن يبيع لي جزءًا من تذاكر حياته حتى يتمكن من إطعام أسرته. كانت زوجته مريضة، وكان واهن القوى بسبب حرمان نفسه والقيام بعمل شاق، بالكاد سمح له مرتبه بإعالة أسرته التي كانت في حالة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة. أحسَسني اقتراحه ببيع تذاكر حياته بالارتباك. شعرت كأني غول أسطوري، وأحد وحوش الخرافة القديمة يجبي جزية من اللحم البشري. تلعثمت محتجًا، ورفضت تذاكر الزائر، وعرضت عليه مبلغًا معينًا من المال دون مقابل. ولأنه كان مدركًا عظمة تضحيته، فقد أعرب عن كبرياء مشروعة بحيث لم يقبل أي شيء مجانًا إن لم يدفع ثمنه من حياته. بعد أن فشلت في إقناعه، أخذت منه في النهاية تذكرة. وبعد أن غادر، وضعتها في درجي مصممًا على عدم استخدامها. وهكذا شعرت أن الاستفادة من يوم إضافي من حياة رجل بئيس سيكون شيئًا بغيضًا.

14 أبريل - التقيت مالفرو في المترو. وأوضح لي أن قرار التخفيض بدأ يؤتي ثماره. لقد تأثر الأغنياء بشدة، وفقدت السوق السوداء منافذ مهمة وانخفضت أسعارها بشكل كبير حقًا. في الجهات العليا، نأمل أن ننتهي قريبًا من هذا الطاعون. عمومًا، يبدو أن الناس يزودون بالموارد بشكل أفضل، وقد أوضح لي مالفَزوَ أن الباريسيين أصبحت حالتهم أفضل. لقد منحتني ملاحظته فرحة مربكة.

وتابع مالفَزوَ أن:

- ما لا يقل أهمية هو جو السلام والارتياح الذي نعيش فيه في غياب هؤلاء

المقننين الجدد. يدرك المرء بعد ذلك مدى خطورة الأغنياء والعاطلين عن العمل والمثقفين والعاهرات في مجتمع لا يدخلون فيه سوى الفوضى والإثارة العبثية والفسوق والحنين إلى المستحيل.

15 أبريل - رفضت دعوة أسرة كارثُري لهذا المساء الذين توسلوا إلي لحضور «سكرات موتهم». إنها موضة شرع في تبنيها الناس المتأرجحون بحيث يلمون فيها بمناسبة وفاتهم المؤقتة شمل الأصدقاء، قيل لي إن هذه الاجتماعات تؤدي في بعض الأحيان إلى تلاحمات متهتكة. وهذا أعدّه شيئًا مقرفًا.

16 أبريل - سأموت الليلة، لست خائفًا.

1 مايو - الليلة الماضية، عندما عدت إلى الحياة، وجدتني أمام مفاجأة. كان قد داهمني الموت النسبي (إنه التعبير العصري) وأنا واقف فسقطت ملابسي على السجادة، لهذا وجدت نفسي عاريًا تمامًا. حدثت المغامرة نفسها للرسام روندو الذي جمع عشرات الضيوف من كلا الجنسين، مرشحون جميعهم للموت النسبي. يجب أن يكون ما حصل مضحكًا جدًا. يعد شهر مايو بأن يكون في غاية البهاء حتى أنه قد يكلفني التخلي عن الأسبوعين الأخيرين.

5 مايو - خلال الجزء الأخير من حياتي، شعرت بميلاد نوع من التناقض بين الأحياء كليًا والآخرين. يبدو أن بعضهم أصبح يتهم بعضًا، ولا يمكن للمرء، بأي حال، أن يشك في وجوده. إنها أولًا وقبل كل شيء غيرة متبادلة. يمكن تفسير هذه الغيرة بسهولة بين الأشخاص الذين يحملون بطاقة الزمن. ليس من المستغرب أن يقترن ذلك بانتشار استياء شديد تجاه أصحاب الامتيازات. بالنسبة إلى هؤلاء، كانت لدي الفرصة في كل لحظة كي يدركوا ذلك، فهم يحسدوننا خفية لكوننا أبطال الغموض والمجهول، خاصة أن حاجز العدم الذي يفصلنا عنهم يبدو لهم أكثر حساسية رغم أننا لا نشعر بذلك. ولهذا يساورهم انطباع أن الموت النسبي بمثابة عطلة ممنوحة لنا فيما هم يمكثون مقيدين بسلاسل الحياة.

عمومًا، هم يميلون إلى الاستسلام إلى نوع من التشاؤم والعدوانية المقيتة. على العكس من ذلك، فإن الشعور الدائم بمرور الوقت، والحاجة إلى تبني وتيرة حياة

أسرع، يدفعان الناس من فتتي إلى الشعور بمزاج جيد. كنت أفكر في هذه الأمور كلها عند الظهيرة في أثناء تناولي الغداء برفقة مالفرو، الذي بدا لي يائسًا وساخرًا أحيانا، وأحيانًا أخرى عدوانيًا، كأنه يأخذ الأمور على محمل الجد، ليثنيني عن مصيري، من الواضح أنه يشعر برغبة ملحة لإقناع نفسه. لقد تحدث معي كما لو أنه يكلم صديقًا ينتمي إلى أمة معادية.

8 مايو - هذا الصباح جاء شخص ليعرض علي تذاكر الحياة بسعر مئتي فرنك لكل واحدة. كان لديه نحو خمسين تذكرة للبيع. طلبت منه أن يغرب عن وجهي قبل أن أركله بقدمي على مؤخرته.

10 مايو - مضت هذه الليلة أربعة أيام، منذ أن دخل روكينتون للمرة الثالثة في موته النسبي. لم أر لوسيت منذ ذلك الحين، لكنني علمت للتو أنها مفتونة بشاب أشقر غامض. أرى هذا الحيوان من هنا، إنه عجل صغير ينتمي إلى فصيلة السوينغ. باختصار، أنا لا أهتم. هذه المرأة الصغيرة الطيبة لا تتمتع بالذوق، أنا لم أنتظر حتى اليوم لألاحظ ذلك.

12 مايو - بدأت السوق السوداء الخاصة بتذاكر الحياة تنظم نفسها وعلى نطاق واسع. يزور الوسطاء الفقراء ويقنعونهم ببيع بضعة أيام من حياتهم من أجل تزويد أسرهم بوسائل عيش إضافية. كبار السن من الرجال الذين أحيلوا على التقاعد، وزوجات السجناء العاطلين عن العمل هم أيضًا فريسة سهلة. يبلغ سعر التذكرة حاليًا بين مئتين ومئتين وخمسين فرنكًا. لا أعتقد أنه سيرتفع أكثر من ذلك، لأن الزبائن من الأغنياء أو الأثرياء -مع ذلك- محدودون جدًا إذا قارناهم بعدد الفقراء. علاوة على ذلك، يرفض كثير من الناس أن يقبلوا أن تعامل الحياة البشرية على أنها سلعة أساسية. من ناحيتي، لن أخون ضميري.

14 مايو - السيدة دومون أضاعت بطاقة الزمن الخاصة بها. الأمر في غاية الإحراج، لأن الحصول على واحدة أخرى يتطلب الانتظار شهرين على الأقل. اتهمت زوجها بإخفائها عنها للتخلص منها. لا أعتقد أنه يملك مثل هذه الروح الشريرة. لم يكن الربيع جميلًا قطكما هو الحال هذا العام. أشعر بالندم لأني سأموت بعد غد.

16 مايو - تناولت العشاء أمس مع البارونة كليم. من بين الضيوف، كان الأسقف دولابون هو الوحيد الذي كان يعيش حياة كاملة. بعد أن تحدث شخص ما عن السوق السوداء لتذاكر الحياة، احتججت على هذه الممارسة التي اعتبرتها مخزية. لا أستطيع أن أكون أكثر صدقًا. ربما أردت أيضًا أن أترك انطباعًا جيدًا لدى الأسقف الذي يتوافر على عديد من الأصوات في الأكاديمية.

شعرت على الفور بأن الحاضرين استقبلوا كلامي ببرود. ابتسم المونسنيور في وجهي بلطف كما كان سيفعل مع اعترافات كاهن شاب مغرم بالحماسة الرسولية. تحدثنا عن شيء آخر. بعد العشاء، في الصالون، بدأت البارونة التحدثَ معي، في البداية بصوت خافت، حول السوق السوداء لتذاكر الحياة. لقد أوضحت لي أن موهبتي الهائلة بلا منازع بصفتي كاتبًا، وعمق آرائي، والدور الكبير الذي دُعيت لأدائه، جعل من واجبي أن أكون ملتزمًا أخلاقيًا لإضافة امتدادات لوجود مكرس لإثراء الفكر والسمو بالدولة. عندما رأتني مضطربًا، نقلت النقاش إلى الضيوف. كان هؤلاء متفقين على أن يلقوا اللوم على وساوسي التي ضللتني بفعل غشاوة العاطفة الزائفة، عن المسارات الصحيحة للعدالة. طلب المونسنيور إبداء رأيه، ورفض البت في القضية، لكنه قدم مثلًا مشبعًا بالمعنى عن مزارع مجتهد لكنه يفتقر إلى الأرض فيما يترك جيرانه أرضهم بائرة، فيشتري من هؤلاء الجيران المهملين جزءًا من حقولهم، ويحرثها، ويزرعها، ويحصد المحاصيل الكثيرة التي تعود بالنفع على الجميع.

لقد أقنعت نفسي برأي هذا المحفل الرائع، وفي هذا الصباح كنت أكثر اقتناعا بفكرة شراء خمس تذاكر للحياة. ولكي أستحق هذا الوجود الإضافي، سأعتزل في الريف حيث سأعمل بلا كلل أو ملل على تأليف كتابي.

20 مايو - أنا في النورماندي منذ أربعة أيام. باستثناء نزهات قليلة من المشي، فإن وقتي مكرس بالكامل للكتابة. المزارعون بالكاد يعرفون بطاقة الزمن. يحق لكبار السن أنفسهم خمسة وعشرون يومًا في الشهر. بما أنني سأحتاج إلى يوم إضافي لإكمال فصل من كتابي، فقد طلبت من فلاح عجوز أن يعطيني تذكرة. وعلقت على

سؤاله أن التذكرة في باريس تشترى بمئتي فرنك. فصاح قائلًا: «هل تمازحني! هذا السعر لا يساوي قدم خنزير، هيهات أن تنفعك مئتا فرنك!» سأستقل قطار ما بعد ظهيرة الغد لأكون في باريس مساءً وأموت في بيتي.

3 يونيو - يا لها من مغامرة! بعد أن تأخر القطار كثيرًا، فاجأني الموت المؤقت قبل دقائق قليلة من وصولي إلى باريس. عدت إلى الحياة فينفسها، لكن السيارة كانت في نانت. وبالطبع كنت عاريًا تمامًا. يا لها من مضايقات وانزعاجات كان عليّ أن أتحملها: لا أزال في حالة سيئة. لحسن الحظ، كنت مسافرًا مع صديق أرسل أمتعتي إلى المنزل.

4 يونيو - قابلت ميلينا بادان ممثلة أرغوس التي أخبرتني قصة سخيفة. بعد أن أصر بعض المعجبين بها على منحها جزءًا من الحياة، وجدت نفسها، في 15 مايو، تتوافر على إحدى وعشرين تذكرة. ومع ذلك، تدعي أنها استخدمتها كلها، حتى تعيش ستة وثلاثين يومًا في الشهر. اعتقدت أنها كانت تمزح، فقلت لها:

- يبدو أن شهر مايو هذا قد وافق على تمديد أيامه بخمسة أيام، فقط من أجلك وحدك، إنه شهر ظريف. بدت ميلينا في غاية الأسف إزاء شكوكي. أنا أعتقد أنها مختلة عقليًا.

11 يونيو- مأساة في بيت الروكينتون. لم أعلم بالأمر إلا بعد ظهر هذا اليوم.

في 15 مايو، استقبلت لوسيت عاشقها الجميل الصغير ذا الشعر الأشقر في منزلها، وفي منتصف الليل، غاصا في العدم. وعند عودتهما إلى الحياة، استأنفا حبهما في السرير حيث كانا ينامان، لكنهما لم يعودوا بمفردهما، لأن روكينتون انبعث بينهما. تظاهرت لوسيت والأشقر بأنهما لا يعرف بعضهما بعضًا، لكن روكينتون يعتقد أن حدوث هذا الأمر مستحيل.

12 يونيو - يمكن شراء تذاكر الحياة بأسعار خيالية ولا يمكنك العثور على أي منها بأقل من خمسمئة فرنك. عليك أن تصدق أن الفقراء أصبحوا أكثر بخلًا بحياتهم والأغنياء باتوا أكثر جشعًا. اشتريت عشر تذاكر في بداية الشهر بمئتي فرنك لكل

منها، وفي اليوم التالي لعملية الشراء هذه، تلقيت رسالة من أورليانز من عمي أنطوان الذي أرسل لي تسعة تذاكر. يعاني الرجل الفقير روماتيزم عضال لدرجة أنه عقد العزم على الانتظار في العدم حتى تتحسن حالته. لذلك أنا هنا أملك تسع عشرة تذكرة. يتألف الشهر من ثلاثين يومًا، ولدي خمسة أيام فوق الحاجة. سأجد طريقة لبيعها بسهولة.

15 يونيو. الليلة الماضية، جاء مالفَرزوَ إلى منزلي. كان في حالة معنوية ممتازة. أن يوجد بعض الناس القادرين على أن يدفعوا مبالغ كبيرة للعيش، كان مالفروَ من هؤلاء، فهو يتمتع بشهر كامل، وهذا الأمر أفعمه بالتفاؤل. لم يتطلب الأمر أقل من ذلك لإقناعه أن الأحياء يُحسدون على مصيرهم.

20 يونيو - أنا أعمل بضراوة. إذا ما صدقنا بعض الشائعات، فميلينا بادان ليست مجنونة كما يبدو. في الواقع، يفخر كثير من الناس بأنهم عاشوا أكثر من واحد وثلاثين يومًا خلال الشهر الأخير من شهر مايو. من جهتي، لقد سمعت ذلك من كثيرين. بالطبع، لا يوجد خصاص في الأشخاص البسطاء الذين يؤمنون بهذه الخرافات.

Telegram:@mbooks90

22 يونيو - اشترى روكينتون ما قيمته عشرة آلاف فرنك من التذاكر في السوق السوداء للانتقام من لوسيت، واحتفظ بها لاستخدامها الحصري. كانت زوجته في العدم منذ عشرة أيام، أحسب أنه نادم لكونه كان شديد القسوة. يبدو أن الوحدة تلقي بعبء قسوتها على كاهله. لقد ألفيته تغير كثيرًا، وبالكاد يمكن التعرف عليه.

27 يونيو - إن الحكاية التي تقول إن شهر مايو يتمدد لفائدة عدد قليل من أصحاب الامتيازات أصبحت مؤكدة كل التأكيد. وقد برهن لي لافيردون، وهو رجل جدير بالتصديق، أنه عاش خمسة وثلاثين يومًا في شهر مايو وحده. أخشى أن يكون التقنين الزمني قد أزعج كثيرًا من العقول.

28 حزيران. مات روكينتون صباح أمس، ربما بسبب الحزن. لا يتعلق الأمر بموت نسبي، ولكنه موت بكل بساطة. سندفنه غدًا. في الأول من يوليو، بعد عودتها إلى الحياة، ستجد لوسيت نفسها باتت أرملة.

32 يونيو - يجب الاعتراف بأن للوقت منظورات لا تزال مجهولة. يا له من لغز! ذهبت صباح أمس إلى متجر لشراء صحيفة، فكان تاريخها 31 يونيو.

- حسنًا، قلت، الشهر فيه واحد وثلاثون يومًا؟

كانت البائعة، التي أعرفها منذ سنوات، تنظر إلي نظرات غير مفهومة. وعندما ألقيت نظرة على عناوين الصحف قرأت:

«السيد تشرشل سيزور نيويورك بين 39 و45 يونيو. في الشارع، ألتقط جزءًا من محادثة بين رجلين:

قال أحدهما: «يجب أن أكون في أورليان في اليوم السابع والثلاثين». بعد ذلك بقليل، صادفت بوريفاج وهو يتجول، وكان يبدو حائرًا. فأطلعني على دهشته ممّا يحدث. أحاول مواساته. ليس بمقدورنا أن نفعل شيئًا سوى أخذ الأمور كما تفرض علينا.

عند حلول الزوال، كنت قد أدليت بالملاحظة التالية: الأشخاص الذين يعيشون حياة كاملة ليس لديهم أدنى وعي بوجود حالة شاذة في سيرورة الزمن. الأشخاص من فئتي، الذين تسللوا بصورة غير مشروعة من خلال هذا التمديد لشهر يونيو، هم الوحيدون الذين يجب أن يختلط بعضهم ببعض. شاركت مالْفَزوَ دهشتي، لكنه لم يستوعب الأمر وظن أني أصبت بالجنون.

لكن فيما سينفعني هذا التبرعم الزمني الناشئ! منذ الليلة الماضية، وأنا في حالة حب مجنون. لقد قابلتها للتو في بيت مالْفَزوَ. رأى بعضنا بعضًا، ووقعنا في الحب لأول وهلة. إنها الجميلة إليزا.

34 يونيو - رأيت إليزا مرة أخرى أمس واليوم. قابلت أخيرًا امرأة حياتي. نحن مخطوبان. ستغادر غدًا في رحلة تستغرق ثلاثة أسابيع إلى منطقة غير مأهولة. قررنا أن نتزوج عندما تعود. أنا في غاية السعادة لأني أتحدث عن سعادتي في هذه اليوميات.

35 يونيو - قُدت إليزا إلى المحطة. قبل أن تدخل مقصورتها، قالت لي: «سأبذل قصارى جهدي للعودة قبل 60 يونيو». عندما أفكر في هذا الوعد ينتابني القلق. أخيرًا، سأستهلك آخر تذكرتي في الحياة. ماذا سيكون تاريخ يوم غد؟

الأول من يوليو. الناس الذين أتحدث معهم عن 35 يونيو لا يفهمون شيئًا مما أقوله. لا يتذكرون تلك الأيام الخمسة البتة. لحسن الحظ، قابلت عددًا قليلًا من الأشخاص الذين اختبروا ذلك بطريقة غير شرعية وتمكنوا من التحدث معهم حول هذا الأمر. محادثة غريبة. بالنسبة إليّ، كان يوم أمس 35 يونيو. بالنسبة إلى الآخرين يوم أمس هو يوم 32 أو 43. في المطعم، رأيت رجلًا عاش 66 يومًا في شهر يونيو، وهو ما يمثل مخزونًا جيدًا من التذاكر.

2 يوليو - ما دامت إليزا مسافرة، لن أجد مبررًا للخروج.

ساورني شك فاتصلت بها. قالت إليزا إنها لا تعرفني، ولم ترني من قبل. حاولت قدر ما أستطيع أن أشرح لها أنها عاشت مستمتعة -دون أن أشك في ذلك- ببعض الأيام الممتعة، لكنها غير مقتنعة، توافق على رؤيتي يوم الخميس. أنا في منتهى القلق.

4 يوليو - الصحف مليئة بـ«قضية التذاكر». ستكون حركة مرور بطاقات الزمن هي الفضيحة الكبرى لهذا الموسم. بسبب احتكار الأثرياء تذاكر الحياة، فإن التوفير في المواد الغذائية يكاد يكون معدومًا. بالإضافة إلى ذلك، تثير بعض الحالات المحددة عاطفة كبيرة. وسنقتبس من بين أمور أخرى مثالًا حيًا عن السيد «وادي» الفاحش الثراء، الذي عاش بين 30 يونيو و1 يوليو ألفًا وتسعمئة وسبعة وستين يومًا، أي خمس سنوات وأربعة أشهر. التقيت في وقت سابق إيف ميرونو، الفيلسوف الشهير، فأوضح لي أن كل فرد قد يعيش مليارات السنين، لكن وعينا لا يملك سوى رؤية مختصرة ومتقطعة لهذه اللانهاية التي تتقاطع وتجاور مع وجودنا القصير. قال أشياء في منتهى الذكاء، لكنني لم أفهم كثيرًا منها. صحيح أن عقلي كان شاردًا ويوجد في مكان آخر، لأني كنت منشغلًا بموعدي مع إليزا غدًا.

5 يوليو - رأيت إليزا. واحسرتاه! ضاع كل شيء وتهخرت الأمنيات. وما زادني كربًا

أنها لم تكن تشك مطلقًا في صدق قصتي. ربما هذا الاستحضار قد حرك عاطفتها، لكن دون أن يثير فيها أي شعور بالحنان أو التعاطف. فهمت من كلامها أنها تميل إلى مالفرق. على أي حال، كانت فصاحتي عديمة الجدوى. كانت الشرارة التي اندلعت بيننا مساء يوم 31 يونيو مجرد مصادفة، نتجت عن ظرفية صنعتها اللحظة. بعد ما وقع، لا أحد ليحدثني عن تقارب النفوس وتجاذبها! أنا أعاني مثل ملعون. آمل أن أحول معاناتي إلى كتاب يباع بشكل جيد.

6 يوليو - صدور مرسوم بإلغاء بطاقة الزمن. ورغم أهمية الحدث فإني تلقيت الخبر باستخفاف ولا مبالاة.

المرسوم

في ذروة الحرب، انتبهت القوى المتحاربة إلى مشكلة التوقيت الصيفي، التي-على ما يبدو- لم ينظر إليها بشكل معمق وشامل. لقد شعرنا بالفعل أنهم لم يتخذوا أي إجراء جاد في هذا الاتجاه وأن العبقرية البشرية -كما يحدث غالبًا- سمحت لنفسها بأن تُفرض عليها العادات الراسخة. لكن ما بدا للوهلة الأولى لافتًا للنظر حول هذه القضية السهولة الاستثنائية التي زيدت بها وحدة أو وحدتين زمنيتين من التوقيت الصيفي.

لكن، عند التفكير في الأمر، فلا شيء يمنع من تقديم اثنتي عشرة وحدة أو أربع وعشرين وحدة، أو حتى مضاعفتها إلى أربع وعشرين. تدريجيًا، تبلورت فكرة أن البشر يمكنهم التخلص من الزمن. في جميع القارات وفي جميع البلدان، بدأ رؤساء الدول والوزراء استشارةَ أصحاب الأطروحات الفلسفية. وفي المجالس الحكومية تحدثوا كثيرًا عن الوقت النسبي والوقت الفسيولوجي والوقت الشخصي وحتى الوقت القابل للتقليص. أصبح من الواضح أن فكرة الزمن -كما ورثها أجدادنا من الألفية إلى الألفية- كانت مجرد أرجوحة مثيرة للضحك. وبذلك فقد كرونوس الإله القديم عديم الرحمة الذي فرض حتى ذلك الحين إيقاعه المزيف كثيرًا من رصيده. لم يقتصر الأمر على أن يصبح متساهلًا مع الجنس البشري، بل طُلب منه أيضًا أن يطيعه، والتحرك بالإيقاع المفروض عليه، والسير في حركة بطيئة أو القيام بخطوة جمبازية، لكي لا يقول أي شيء عن السرعات المذهلة التي تطوي رياحها المذهلة لحيته المسكينة خلف رقبته. انتهى عهد قطار السيناتور. في الحقيقة، صار كرونوس بطيئًا وخاملًا، لأن البشر أصبحوا سادة الزمن، وما لبثوا يوزعون زمنهم بخيال جامح أكثر سرعة بكثير مما استخدمه الإله المنزوع عن عرشه خلال مسيرته الأكثر هدوءًا.

يبدو أن الحكومات في البداية لم تجنِ سوى ربح متواضع من غزوها الجديد، ولم تحقق المحاولات التي تمت سرًا أي فائدة (انظر إلى خارطة الزمن). ومع ذلك، سئمت الشعوب. ومهما كان موطنهم كان المدنيون يتصفون بالكآبة والمزاج العكر. وهم يقضمون خبزهم الأسود أو يشربون السكرين المصنع، حالمين بالولائم والتبغ.

كانت الحرب طويلة. ولم نكن نعلم أوان نهايتها. لكن هل ستنتهي ذات يوم؟ في المعسكرات كلها انتشر إيمان بالنصر، لكنهم كانوا يخشون أن يتأخر. كان القادة يشعرون بالمخاوف نفسها فبدأ يستحوذ عليهم القلق. كما أنّ عبء مسؤولياتهم دفعهم إلى الشفقة. بالطبع، لا يمكن أن يتحول الأمر إلى معاهدة سلام، لأن الشرف يعارضه واعتبارات أخرى أيضًا تفنده. أما الأمر المثير للغضب فيتجلى في أنهم يعرفون مدى توافرهم على الوقت، ولا يجدون طريقة لجعله يعمل لمصلحتهم.

وأخيرًا، وبوساطة من الفاتيكان توصلوا إلى اتفاق دولي، أنقذ الشعوب من كابوس الحرب دون أن يغيّر شيئًا في النتيجة الطبيعية للأعمال العدائية. كان الأمر بسيطًا جدًا. تقرر في جميع أنحاء العالم، أن يُدفع الزمن سبعة عشر عامًا إلى الأمام. وقد أخذ هذا الرقم في الحسبان الاحتمالات القصوى لمدة الصراع. ومع ذلك، لم تهدأ الدوائر الرسمية، لأنها خشيت أن يكون التقدم غير كافٍ. لكن، حمدًا للرب، فعندما شاخ العالم فجأة سبعة عشر عامًا -بموجب المرسوم- اتضح أن الحرب قد انتهت. وحدث أيضًا أن الحرب لم تندلع في أي مكان آخر مرة أخرى. وبكل بساطة كان نجاح المخطط أو فشله مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالحرب.

قد يظن المرء أن الشعوب أطلقت صرخة طويلة من الفرح والخلاص. ذلك لم يحدث. ومردّه إلى أن الجميع لم يحسّوا بعودة الزمن إلى الوراء. ثم إن الأحداث التي كان ينبغي أن تقع في تلك المدة الطويلة من الزمن، التي غض عنها الطرف فجأة، كانت محفورة في ذاكرة الكل. لقد تذكرها الجميع، أو بالأحرى اعتقدوا أنهم يتذكرون الحياة التي بدت لهم أنهم عاشوها خلال تلك السنوات السبع عشرة. لقد نمت الأشجار، وولد الأطفال، ومات الناس، وحقق آخرون ثروة أو أفلسوا تمامًا، وتعتق النبيذ في القنينات، وانهارت الدول، تمامًا كما لو أن حياة العالم قد استغرقت وقتها لتتحقق. لقد كان الوهم مثاليًا.

فيما يخصني، فإني أتذكر عند دخول المرسوم حيز التنفيذ، كنت في باريس، في منزلي، جالسًا إلى طاولتي وأعمل على كتاب كنت قد كتبت أول خمسين صفحة منه حين سمعت زوجتي، في غرفة مجاورة، تتحدث مع طفليّ، ماري تيريز وكلوفيس،

البالغين من العمر خمسة أعوام وعامين. وبعد ثانية، كنت في لوهافر عند محطة العبّارات عائدًا من رحلة إلى المكسيك استغرقت ثلاثة أشهر. على الرغم من أني كنت بحال جيدة إلى حد ما، بدأ الشيب يغزو شعر رأسي. أنهيت كتابي منذ وقت طويل ولم تكن النهاية أقل إشراقًا من البداية، حتى إني شككت في أني من كتبه حقًا. وقد كتبت (كما بدا لي) اثني عشر كتابًا آخر، ويجب أن أقول إن كتبي هي أيضًا طواها النسيان (الجمهور ناكر للجميل). خلال رحلتي إلى المكسيك، تلقيت أخبارًا منتظمة من زوجتي وأولادي الأربعة، وكان آخر أطفالي لوي وجولييت، وقد وُلدا منذ صدور المرسوم. لم تكن الذكريات التي احتفظت بها عن هذه الحياة الوهمية أقل يقينًا ولا أقل جاذبية من تلك المرتبطة بالمرحلة السابقة.

لم أتذكر مطلقًا أنني شعرت بالإحباط من أي شيء، ولو كنت أجهل وجود المرسوم، ما شككت البتة في مغامرتي. باختصار، إن ما حدث للجنس البشري كله، بدا كأنه عاشه بالفعل خلال هذه السنوات السبع عشرة التي حدثت رغم ذلك في جزء من الثانية. وربما كان قد عاشها حقًا. تجادلنا كثيرًا حول هذه النقطة. وقد كتب الفلاسفة وعلماء الرياضيات والأطباء واللاهوتيون والفيزيائيون والميتافيزيقيون والحكماء الصوفيون والأكاديميون والميكانيكيون عددًا كبيرًا من الأطروحات والحواشي والأطروحات المضادة والاستنتاجات حول هذا الموضوع. في القطار الذي أقلني من لوهافر إلى باريس، صادفت ثلاثة كتيبات درست الإشكال وتعمقت فيه.

أظهر الفيزيائي الكبير فيليبر كوستوم في ملخص نظريته عن نتوءات الزمن أن السبعة عشر عامًا قد عاشها البشر فعلًا. وأبرز ر. ب. بيشون في بحثه عن السوبمترية «القياس الفرعي للزمن» أن هذه السنوات لم يعشها البشر. أخيرًا، أكّد بونوميه، أستاذ الفكاهة في جامعة السوربون، في ملاحظاته عن الضحك في الدولة أن الزمن لم يتقدم، وأن المرسوم الشهير كان مهزلة هوميروسية، تخيلتها الحكومات في ذلك الوقت. فيما يخصني، فقد بدا لي هذا التفسير الأخير نوعًا من الدعابة المبالغ فيها وغير اللائقة أيضًا من أستاذ في جامعة السوربون. أنا متأكد من أن السيد بونوميه لن يدخل أبدًا إلى الأكاديمية، وسيكون ذلك جيدًا. أما إن كانت السبع عشرة سنة قد

عاشها البشر أم لا، فلا يمكنني أن أقدم رأيي حول الموضوع.

في باريس، وجدت نفسي في شقة مألوفة، ولكن ربما دخلتها لأول مرة. خلال السبعة عشر عامًا الشهيرة، كنت قد انتقلت بالفعل وغادرت مونمارتر للمجيء والعيش في أوتوي. كانت عائلتي تنتظرني في المنزل، قابلتهم مرة أخرى بفرح، لكن دون أن أشعر أني متفاجئ. حقيقية أو افتراضية، كانت سنوات وجودنا المشمولة بين أقواس الزمن مرتبطة بالآخرين دون أي نقص في الاستمرارية، ودون أي التحام ظاهر. كان كل شيء في بوتقة واحدة. مشهد شوارع باريس المكتظة بحركة السيارات، لا شيء من ذلك كله يمكن أن يذهلني. أصبحت الإضاءة الليلية وسيارات الأجرة والشقق المُدَفَّأة والبيع الحر للبضائع عادات قديمة مرة أخرى. قالت لي زوجتي ساعة فيض عاطفي وهي تضاحكني:

- أخيرا! ها نحن بعضنا مع بعض، بعد أزيد من سبعة عشر عامًا! ودفعت أمامها لوي وجولييت البالغين على التوالي ثمانية وستة أعوام، وأضافت:

- أقدم لك آخر أبنائك لوي وجولييت اللذين لم تسعد بمعرفتهما بعد.

تعرف إليّ الأخيرين تمامًا. وبينما كانا معلقين حول رقبتي، كنت أميل إلى الاعتقاد أن البروفيسور بونوميه لم يكن بعيدًا عن الصواب في تأكيد أن تقدم الزمن ما هو إلا مزحة هزلية.

في بداية الصيف، اتخذنا قرارًا بالذهاب لقضاء عطلتنا على شاطئ بروتون. حددت موعد رحلتنا في 15 يوليو. في السابق، كان عليّ القيام برحلة قصيرة إلى جورا لتلبية دعوة صديق قديم، مؤلف موسيقي اعتزل في قريته الأصلية حيث يقضي منذ خمس أو ست سنوات حياة شخص يعاني مرض العضال.. أتذكر أنه في صباح يوم 2 يوليو، قبل يوم من مغادرتي اضطررت إلى التسوق في وسط باريس، أخذت جولييت ابنتي البالغة من العمر ستة أعوام. في ساحة لاكونكورد. بينما كنا ننتظر على الرصيف حتى يتوقف تدفق السيارات، نبهتني جولييت إلى فندق غريو وفندق البحرية. بعد أن قدمت لها التفسيرات التي طلبتها، تذكرت بحزن زمن الاحتلال الألماني، وأضفت كأنني أخاطب نفسي وليس الطفلة:

- أنت لم تكوني قد ولدت بعد. كانت الحرب. هُزمت فرنسا، واحتل الألمان باريس، ورفعوا علمهم فوق وزارة البحرية.

كان البحارة الألمان يحرسون على الرصيف أمام المدخل. وفي الميدان وفي الشانزليزيه، في كل مكان، كانوا موجودين بزيهم الأخضر فيما اعتقد الفرنسيون العجائز أنهم لن يرحلوا أبدًا.

في صباح يوم 3 يوليو/ تموز 1959، ركبت القطار في محطة ليون ووصلت إلى دول في الظهيرة تقريبًا. كان مضيفي يقيم على بعد ثمانية عشر كيلومترًا من المدينة، وهي قرية في وسط غابة شو. غادرت الحافلة التي كانت تقدم خدمة منتظمة في الساعة الثانية عشرة والنصف، لكن معلوماتي عنها كانت سيئة، فاتني موعده ببضع دقائق. ولكي لا أقلق الصديق الذي كان ينتظرني استأجرت دراجة، لكن الحرارة كانت شديدة فأجلت مغادرتي إلى الزوال؛ ما أتاح لي وقتًا لتناول الغداء دون استعجال. كان الطعام جيدًا ونبيذ أزبوا ممتازًا. لقد شعرت بالزهو لأنني تمكنت من قطع المسافة خلال ساعة. عندما انطلقت، كان الطقس عاصفيًا، وكانت السماء ملبدة بغيوم منخفضة وكثيفة. كانت الحرارة بالكاد خانقة وأكثر احتمالًا مما كانت عليه في بداية فترة ما بعد الظهيرة. بالإضافة إلى ذلك، كنت متضايقًا بسبب صداع عنيف عزوته إلى وجبتي الدسمة وإلى جودة نبيذ أربوا. وتفاديًا لخطر العاصفة، سلكت على عجل طريقًا جانبيًا، فتهت في الغابة. وبعد الرجوع والالتفاف وجدت نفسي وقت اندلاع العاصفة في طريق غابوي سيئ، مخدد بحفر العربات التي حرثت شقوقًا عميقة صلّبتها حرارة الصيف. احتميت تحت الشجيرات لكن المطر كان يتساقط بعنف وسرعان ما اخترق أوراقها. حينها لمحت في نهاية المسلك ملجأ يتكون من سقف مرتكز على أربع أوتاد.

لقد وجدت كتلة من خشب البلوط حيث يمكنني الجلوس عليها بشكل مريح في انتظار نهاية العاصفة. عجلت السماء الملبدة والأمطار الغزيرة برحيل ضوء النهار، وقد زاد غطاء الغابة من ظلال الشفق، المضاء بوميض برق هائل يميل إلى زرقة تنبثق منها مشاهد عميقة تتخللها جذوع أشجار السنديان الطويلة. بين دوي الرعد

الذي تردد صداه لمدة طويلة، كنت أسمع في البداية حفيفًا رتيبًا للأصوات القادمة من عمق الأدغال، لكنها سرعان ما تكاثف هسيسها، لكن الأذن تتعلم سريعًا تمييز الاختلافات المتعددة، ثم بدأ يتناهى إلى سمعي طقطقات المطر الذي يقطر بين الأغصان من ورقة إلى ورقة. كنت منهكًا، فرفعت رأسي المتراخي وقاومت النوم للحظة، ولكني استسلمت في النهاية للنوم مسندًا جبهتي فوق ركبتيّ.

أيقظني إحساس بأني أسقط من مهوى الذي خلته في النوم بلا نهاية، كما لو كنت أسقط من أعلى ناطحة سحاب. توقفت العاصفة وعاد النهار. في الحقيقة، بدا الطقس صافيًا كأن العاصفة لم تحدث مطلقًا.

كانت الأرض جافة وعطشى ولم تعد تلمع أدنى قطرة ماء في الأشجار وفي الأدغال أو عند أطراف الأعشاب البرية. بدت الغابة من حولي كما كانت بعد أيام من الجفاف. كانت السماء التي ظهرت من فرجة أوراق الشجر ذات لون أزرق فاتح ولطيف وليس ذلك اللون الأزرق الحليبي الذي يمكن رؤيته بعد هطول الأمطار.

فجأة أدركت أن الغابة من حولي قد تغيرت. لم تعد الغابة الشاهقة التي وجدت نفسي داخلها عند وصولي، بل غابة مزروعة بشجيرات عمرها نحو عشرين عامًا. لقد اختفى ملجئي المصنوع من الأعواد، وكذلك شجرة الزان الكبيرة التي كانت متكئي قبل قليل. كما اختفت الكتلة الخشبية التي كانت مقعدي الآن. كنت أجلس على التراب. وكذلك اختفى المسلك أيضًا.

كان الشيء الوحيد الذي يمكن التعرف عليه هو النصب المزدوج العالي الذي حدد بلا شك حدود بعض التقسيمات البلدية. كنت منزعجًا من التعرف عليه لأن وجود هذه الشاهدة لن يبسط المشكلة. حاولت إقناع نفسي أن منظر الغابة هذا قد شوهه انعكاس الضوء السيئ. إلى جانب ذلك، لم أكن قلقًا بشأن هذا التحول الفريد. تلاشى صداع رأسي وشعرت في أطرافي وفي أنحاء جسدي كله براحة غير عادية وفرحة جسدية. تخيلت بمرح أني ضللت طريقي في غابة بروسيلياند حيث ألقت بعض جنيات مورغان سحرهن على المكان. أخذت دراجتي، وعدت إلى الطريق الذي تركته من أجل الاحتماء.

كنت أتوقع أن أجده موحلًا، ببرك وأخاديد لزجة، لكني وجدته جافًا وصلبًا، لا أثر لبلل الأمطار. «ما زال السحر متواصلًا»، قلت لنفسي مرحى. قدت دراجتي ربع ساعة، خرجت إلى سهل صغير على شكل مستطيل ممدود، حقل صغير بجانب إسطبل في الغابة. كانت أسطح القرية وبرج الكنيسة مضاءة بشمس الغروب، ومغمورة بين حقول القمح والمروج. غادرت طريقي السيئ إلى طريق ضيق لكنه مليء بالحصى، وكان بإمكاني قراءة اسم القرية على علامة كيلومترية. لم تكن قرية الشخص الذي أبحث عنه.

أجبرتني حادثة تعرضت لها العجلة الأمامية على بعد مئتي متر أو ثلاثمئة متر من القرية على مواصلة السير على الأقدام. على طول الطريق، رأيت على بعد خطوات قليلة من مجموعة أشجار البندق على حافة الخندق فلاحًا عجوزًا شاردًا يتأمل حقل القمح. بجانبه تقريبًا، مقابل كتلة أشجار البندق التي أخفت عني الرؤية، اكتشفت بعد ذلك رجلين كانا ينظران أيضًا إلى حقل القمح المرتفع. وكان هذان الرجلان يرتديان أحذية وبزتين خضراوين، كان يرتديها الجيش الألماني إبان الاحتلال.

لم يفاجئني الأمر كثيرًا لأن أول ما تبادر إلى ذهني أن هذه البزّات الرسمية نسيها الألمان وقت إخلاء المنطقة، فعثر عليها المزارعون المحليون وصاروا يرتدونها. كان صاحباها الحاليان شخصين قويين يبلغان الخامسة والأربعين من العمر، بشرتهما ملفوحة بالشمس ويبدو أنهما فلاحان. ومع ذلك، فقد احتفظا بهيئة الجنود، وكانت الأحزمة والقبعتان والرقبتان الحليقتان جدًا مدعاة للتدبر والتفكير، لكن الرجل العجوز بدا كأنه يتجاهل وجودهما. كان طويل القامة ونحيفًا، ظل ثابتًا ومنتصبًا، مبديًا تلك الكبرياء العظيمة التي يتسم بها غالبًا الفلاحون العجائز في جورا. عندما اقتربت منه، التفت إليه أحد الرجلين بالزي الرسمي وتحدثا بنبرة خبير، بضع كلمات باللغة الألمانية، مشيدًا بالمظهر الجميل لمحاصيل الذرة. ثم أدار العجوز رأسه ببطء وقال بصوت هادئ وصارم:

- لقد أوديتما نفسيكما إلى التهلكة. الأمريكيون سيصلون. من الأفضل العودة إلى المنزل على الفور.

من الواضح أن الآخر لم يفهم معنى هذه الكلمات فابتسم بثقة. لكن عندما اقتربت منه، ناداني الرجل العجوز وجعلني شاهدًا على سذاجتهما.

وقال:

- هذا لا يفهم شيئًا من كلامنا، ولن نفهم شيئًا من كلامه. إنهما لا ينتميان إلى العالم المتحضر.

رمقته مدهوشًا دون أن أنبس بكلمة، لكني أخيرًا سألته:

- مهلًا، ألست مخطئًا؟ هل هؤلاء جنود ألمان؟

قال الرجل العجوز:

- بالنسبة إليّ يبدو الأمر كذلك، دون أن تخلو نبرته من بعض السخرية.

- ولكن كيف حصل هذا؟ وماذا يفعلون هناك؟

نظر إليّ بحزم وأوشك ألا يرد على سؤالي. لكنه غير رأيه، فسألني بدوره:

- أنت، ربما أتيت من المنطقة الحرة؟

تلعثمت ببعض كلمات متفرقة، حاول أن يعرف جوابي عن سؤاله لأنه تعهد بأن يبلغني بظروف الحياة في «المنطقة المحتلة». كان ذهني في حالة من الفوضى، لم أتمكن من متابعة تسلسل ملاحظاته، فقد استمرت هذه الكلمات السخيفة في التكرار: منطقة حرة، منطقة محتلة، السلطات الألمانية، طلبات الشراء، السجناء، وغيرها من الكلمات التي لا تقل حيرة. كان الألمانيان قد ابتعدا وسارا باتجاه القرية، وبدت مشية الجنديين بطيئة ومتذبذبة كأنهما فريسة ملل من التجوال بلا هدف. قاطعت الرجل العجوز بغضب مفاجئ وصوت عال:

- لكن في النهاية! ما هذا الهذيان؟ ما تقوله لا يصدق! لقد انتهت الحرب منذ سنوات!

فقال بهدوء:

- كان ذلك صعبًا منذ سنوات. لقد مر عامان فقط منذ أن بدأت.

في القرية وداخل أحد المتاجر كان ضابط صف ألماني منهمك في اختيار البطاقات البريدية، اشتريت الجريدة اليومية. كنت قد وضعت عملة معدنية على المنضدة والتقطت النقود المتبقية آليًا ودون النظر إليها. كانت الجريدة مؤرخة في 3 يوليو 1942. وكانت العناوين الرئيسة: الحرب في روسيا، الحرب في إفريقيا، تستحضر أحداثًا كنت حتمًا ذات يوم معاصرًا لها، كما أني أعرف مسارها المستقبلي والنتيجة النهائية.

شردت قليلًا عما يحيطني وظللت قابعًا أمام المنضدة، مستغرقًا في قراءتي. جاءت إحدى الفلاحات لشراء مشتريات تتحدث عن ابنها السجين وعن طرد تريد بعثه إليه. في ذلك الصباح بالذات تلقت رسالة من بروسيا الشرقية حيث كان يعمل في مزرعة. ما سمعته لم يكن أقل أهمية من تاريخ الصحيفة، ومع ذلك ما زلت أرفض تصديق ما أراه وأسمعه. دخل المتجر رجل يبلغ من العمر نحو خمسين عامًا، يرتدي سروالًا ضيقًا، ذو شعر أنيق وبشرة منتعشة، وأسلوب رجل قروي نبيل. من الملاحظات التي تبادلها مع التاجر، فهمت أنه كان عمدة البلدية. فبدأت محادثة فطنة معه وخرجنا معًا بحيث تحدثت معه بحرص غريزي حتى لا أكشف وضعي غير المنتظم، عن التوقيت الصيفي، ثم تحدثنا عن تقديم الزمن. فقال مقهقهًا:

- آه! نعم، تقديم الزمن. في رحلتي الأخيرة إلى دول قبل شهرين، أخبرني نائب المحافظ عن ذلك. أتذكر أيضًا أن الصحف تطرقت إلى هذا الموضوع. هذه مزحة جيدة لتسلية الناس. هل تعتقد أن بإمكاننا تقديم الزمن إلى الأمام!

بعد أن طرحت عليه بعض الأسئلة الدقيقة، أظن أني أدركت ما حدث في القرية بارتياح كبير، نتيجة إهمال الإدارة أو خطأ في التواصل، لمث خطر البلدية الصغيرة المفقودة وسط الغابة بمرسوم التقديم الزمني، وبذلك ظلت تعيش تحت النظام القديم.

كان بمقدوري أن أشرح للعمدة بالضبط ما وقع من مغالطة تاريخية في حق وضعية قريته، لكن في اللحظة الأخيرة ارتأيت أن من الحكمة أن أتجنب الخوض في

ذلك الموضوع، لأنه لن يصدقني، وبذلك أصبح مهددًا بأن يظنني مجنونًا. استمرت المحادثة بطريقة ودية وعندما كنت على وشك الحديث بشأن الحرب، راودني فضول لصياغة بعض التكهنات، الأمر الذي أدخل محاوري في حالة من الارتياب التام لأن المستقبل -وهذا صحيح- لا يتوافق مع الاحتمالات المنطقية إلا قليلًا. قبل أن نفترق، دلني على الطريق الذي يجب أن أسلكه للوصول إلى فيين- لوَا، وجهة رحلتي. لقد انحرفت عنها كثيرًا، لا تزال أمامي ثلاثة عشر كيلومترًا عليّ أن أقطعها. ثم قال لي:

- بواسطة الدراجة الهوائية، ستستغرق ثلاثة أرباع الساعة. لا يزال بإمكانك الوصول قبل حلول الظلام.

عندما ترددت في مواصلة الطريق في ذلك المساء نفسه، قال لي، يعدّ سباق ثلاثة عشر كيلومترًا بالنسبة إلى شاب في مثل عمري مسافة صغيرة جدًا، فنبهته إلى أن من بلغ سن السادسة والخمسين لم يعد شابًا، فعبر عن دهشته الكبيرة وأخبرني بأن مظهري أصغر من عمري.

قضيت الليلة في النزل الوحيد الموجود في هذه المنطقة. وقبل أن أنام، فكرت للحظة في مغامرتي، لكن دهشتي الأولى تلاشت ولم أشعر بأدنى انزعاج. إذا وفرت لي رحلتي مزيدًا من أوقات الفراغ. لهذا أتمنى أن أقضي بضعة أيام لأعيد اكتشاف هذه القرية، في صحبة هؤلاء الفقراء العالقين في النصف الأول من القرن، ولأعيش بخشوع مصائب بلدي. ثم وجدتني أمعن في بعض الألغاز التي يعرضها هذا المنفى في الوقت المناسب وما دام الأمر في بدايته فقد أثار انتباهي. على سبيل المثال، أنه من المستغرب أن تستمر القرية في تلقي الصحف من باريس ورسائل الجنود السجناء في شرق بروسيا، كأن القرية تنتمي إلى عام 1942 فيما زاد عمر بقية الكون سبعة عشر عامًا، كانت هناك مبادلات أو مظاهر مبادلات. وهذه الصحف التي كانت قد غادرت باريس قبل سبعة عشر عامًا، في أي غرفة تخزين، وفي أي خزانة زمنية مكثت قابعة قبل أن تصل إلى وجهتها؟ وهؤلاء السجناء الذين لم يعودوا سجناء ولم يعد بإمكانهم البقاء في شرق بروسيا، أين هم؟ خلدت للنوم وأنا أفكر في

هذه الروابط الغامضة بين عصرين.

في اليوم التالي استيقظت مبكرًا، وفطنت إلى بعض الاكتشافات الغريبة. في غرفتي ذات الأثاث المتقشف لا توجد مرآة، وكان من الضروري استعمال واحدة من مجموعة لوازم سفري من الحلاقة، نظرت إلى نفسي في المرآة، أدركت أنني لم أعد في السادسة والخمسين، بل في التاسعة والثلاثين. علاوة على ذلك، كنت أشعر براحة وحيوية بدنية أكثر خفة. لم تكن المفاجأة مزعجة، لكني صرت مشوش الذهن. بعد بضع دقائق، قمت باكتشافات أخرى. فقد أصبحت ملابسي أصغر سنًا. كما غدت البذلة الرمادية التي ارتديتها في اليوم السابق بذلة أخرى، تقريبًا من طراز عفا عليه الزمن، وتعذر عليّ بشكل غامض أن أتذكر زمن ارتدائها في الماضي.

ولم تعد الأوراق النقدية في محفظتي تلك المتداولة في عام 1959، بل صدرت في عام 1941 أو قبل ذلك التاريخ. تكثفت ألغاز المغامرة. بدلًا من السفر عبر الزمن الماضي والوجود هناك كمتفرج لا مبالٍ، صرت مندمجًا في الوقائع القديمة. لا شيء يسمح لي بأن أصدق يقينًا بأنني سأنجح في الهروب من هذه القبضة الزمنية. طمأنت نفسي بحجج واهية جدًا. ومن ذلك فكرت: «أن تنتمي إلى عصر، أي أن تشعر بطريقة معينة بالكون وذاتك، أي إنك تنتمي إلى تلك الحقبة». أردت أن أصدق أن بمجرد تجاوزي حدود البلدية، سأستعيد نظري وحواسي السابقة، وأن العالم لن يحتاج إلى التغيير لأنه سيظهر لي بمظهر آخر.

وصلت إلى فيي لوا في السابعة صباحًا. كنت في عجلة من أمري لرؤية صديقي بورنييه ولأحدثه عن محنتي وقبل كل شيء لأطمئنه عني مادام ينتظرني. على الطريق، مررت باثنين من سائقي الدراجات النارية الألمان يرتديان خوذات ميدانية، فبدأت أتساءل، بارتياب ملح، إن كنت سأعود قريبًا إلى عام 1959. عبرت نصف القرية دون أن أرى أي ألماني، ثم تعرفت على المنزل الذي زرت فيه صديقي بورنييه قبل عامين. كانت مصاريعه موصدة، وباب الحديقة مقفلًا أيضًا. كنت أعرف أنه لا يتستيقظ مبكرًا فترددت في إيقاظه، لكنني كنت بحاجة إلى رؤيته والاستماع إليه. ناديته عدة مرات باسمه، لكن المنزل ظل صامتًا. سمعني ثلاثة شبان عابرين،

يحملون مذارًا على أكتافهم، فتوقفوا على جانب الطريق، وأخبروني أن صديقي سجين في سيليزيا وأن زوجته التي مكثت في باريس هي من أطلعتهم على أنبائه.

قال أحدهم:

- إنه يعمل في مزرعة. لم تكن هذه مهنة مناسبة له.

سادت لحظة صمت. فكرت في جسم الملحن النحيل والمتصقع، المنحني وهو يحفر بالمعول.

تنهدت قائلًا:

- عزيزي المسكين بورنييه. لقد قضى شتاء في منتهى القسوة فعلًا، لكن عندما فكرت في ذلك الالتهاب الرئوي الذي سيصاب به في غضون ستة أشهر. قلت متحسرًا: يا لشقائه!

نظر الشباب الثلاثة بعضهم إلى بعض بدهشة وابتعدوا في صمت. وقفت للحظة أحدق في المنزل ومصاريعه المغلقة. تذكرت زيارتي الأخيرة إلى بورنييه. خلته مرة أخرى جالسًا على البيانو الخاص به، يعزف لي أغنية «غابة القلق» التي كان بصدد تأليفها. ومنذ ذلك الحين، شرعت ابنتي بعزفها كثيرًا، واحتفظت ذاكرتي ببعض عباراتها. كنت أرغب في أن أدندنها تكريمًا للصديق الذي كان يعاني على الأراضي الألمانية والذي سيعود مريضًا إلى بيته ليؤلف لاحقًا عملًا موسيقيًا ربما لم يفكر فيه بعد. لكن صوتي خذلني.

انتابتني رغبة رهيبة في الهروب من الارتداد الزمني، فقفزت على دراجتي وابتعدت في اتجاه دُول. في طريقي، لاحظت مرة أخرى عددًا من العلامات التي تدل على استمرار الاحتلال الأجنبي. أدرت الدواستين بأقصى سرعة مستعجلًا مغادرة هذه الغابة التي بدت لي حدودها مماثلة للزمن المستعاد، كما لو أن ظلال الشجيرات قد عززت الاستيقاظ الخفي للسنوات الماضية.

عندما وصلت إلى أطراف غابة شو شعرت بارتياح كبير، وقد أقنعت نفسي بأنني خرجت أخيرًا من الدائرة المسحورة. لكن منيت بخيبة أمل قاسية عندما مررت من

مدخل المدينة على جسر دوبس، بقسم من المشاة الألمان العائدين من التدريب وهم يغنون. كان تأخير الزمن في قرى الغابة أمرًا مفاجئًا، لكنها كانت في رأيي منطقة منسحبة كليًا من سلطة المرسوم. هنا المنطق لا يكاد يؤتي ثماره.

فجأة، تغيرت الأمور ليس في الأبعاد فحسب، ولكن في المظهر أيضًا. فقد انقلبت جميع البيانات رأسًا على عقب. بالأمس، 3 يوليو 1959، كنت قد غادرت بلدة دُول، ولكني عدت إلى هناك في اليوم التالي، وهو 4 يوليو 1942. كنت أميل إلى الاعتقاد أن مرسومًا جديدًا -في تحد لمبدأ عدم رجوع الزمن- قد ألغى المرسوم الأول. لكن في هذه الحالة كان على سكان المدينة -مثلي- أن يتذكروا حياتهم المستقبلية، وكنت قادرًا على إقناع نفسي بأن الأمر لم يكن كذلك. توصلت إلى هذا الاستنتاج الغريب بأن في دُول مدينتين في وقت واحد، واحدة تعيش في عام 1942، والأخرى تعيش في عام 1959.

ولا شك في أن الشيء نفسه قد حدث لبقية العالم. لم أستطع أن أتصور أن باريس، باريس التي سيأخذني القطار إليها حاليًا، تنتمي إلى عصر آخر.

كنت في حالة ذهول، نزلت من دراجتي عند مدخل المدينة وجلست على الجسر الصغير فوق قناة دي تانور. شعرت بالخيبة لأني سأبدأ الحياة التي عشتها سابقًا. ولم يرق لي على الإطلاق الشباب النسبي الذي استعدته منذ قليل.

فكرت «ربما وهم الإحساس بشباب ليس لديه ما يكتشفه لا يعد شبابًا حقيقيًا. أمام هذا المجال الزمني الممتد والمنفتح سبعة عشر عامًا، والمنفتح لا قيمة له لأني اكتشفته سابقًا، وأضحت السنوات السبع عشرة معروفة ومكشوفة، لدي خبرة أكثر من الرجال المسنين كلهم في فرنسا ونافار، أنا عجوز مسكين. لا غد لي أو فرصة. لن يخفق قلبي دهشة بعد الآن عقب توقعات الأيام القادمة. أنا صرت عجوزًا، اختزلت إلى حالة من العزلة والكآبة. خلال سبعة عشر عامًا لن أعيش سوى اليقين. ولن أعرف الأمل بعد الآن». قبل ركوب القطار، كنت أرغب في إعادة دراجتي، لكن متجر الدراجات الذي استأجرتها منه لم يكن موجودًا بعد. كان الموقع مشغولًا بمتجر لبيع المظلات. كان التاجر -شاب بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمره- واقفًا على

عتبة بابه. ولإراحة ضميري، سألته إن كان يعرف تاجر دراجات في المدينة اسمه جان دريبه.

فقال لي:

- هذا الشخص غير موجود هنا. لأني كنت سأعرفه. لكن المضحك أن اسمي جان دريبه أيضًا.

قلت له:

- بالفعل، هذه مصادفة غريبة. أليس لديك نية أو رغبة في بيع الدراجات ذات يوم؟

ضحك من قلبه. من الواضح أن فكرة بيعه الدراجات في يوم من الأيام بدت له أكثر سخافة.

- لا، شكرًا لك، لا يمكن لهذه الحرفة أن تغريني. أنا لا أقول شيئًا سيئًا عنها، ولكن الدراجات لا تشبه المظلات كثيرًا.

بينما كان يتحدث بهذه الطريقة، قارنت هذا الوجه الشاب النضر والضاحك، بالوجه الآخر الأكبر بسبعة عشر عامًا، وقد شوه مرض الذئبة جانبًا منه.

عندما غادر القطار، كنت لا أزال أملك بعض الأمل في العثور على باريس التي تركتها.

كانت مغامرتي في منتهى الغرابة بحيث أحسّستني بضرورة الإيمان قليلًا بجدوى العبث، لكن القطار كان يتقدم في عالم صارم كأنه صادق مع نفسه.

في الريف وفي جميع المحطات التي توقفنا فيها، رأيت جنودًا ألمانًا ولا يبدو عليهم حتمًا التردد بين عصرين. على حد تعبير رفاقي في السفر، الذين غادر بعضهم باريس منذ أقل من أسبوع، كان من الواضح أن العاصمة لا تزال تعيش في عام 1942. استسلمت للأمر الواقع، ولكن بشعور مؤلم. في مقصورة السكك الحديدية هذه وجدت الجو المضني لسنوات الحرب والاحتلال. لا في دول حيث توقفت

لحظة، ولا في بلدات غابة شو، هل كان للأخبار هذا الحضور الجائر. هنا، كانت الأحاديث كلها تدور حول هموم الساعة ومنعطفاتها، تحدثنا عن فرص الحرب، عن الأسرى، وعن صعوبات الحياة، وعن السوق السوداء، والمنطقة الحرة، وفيشي، والبؤس المتفشي. سمعت بقلب منقبض المسافرين يتحدثون عن تطور الأحداث العالمية وكيف يكيفون مصيرهم مع الاحتمالات التي يتعاملون معها بيقين راسخ.

كنت أعرف كل شيء، لهذا تمنيت أن أكون قادرًا على إقناعهم بما سيحدث، لكن الحقيقة المفرطة في الخيال، لم تقدم لي موارد لهذه الحجج الصارمة المقنعة التي تستند إليها قناعة مرافقي في السفر. أخبرتني سيدة عجوز تجلس بجواري أنها أتت إلى باريس لاصطحاب حفيدها، وهو طفل يبلغ من العمر تسع سنوات يعيش في أوتوي، أصيب بأعراض السل. وقد كلفها والداه بأن يقضي العطلة عندها، لكنهما طالباها بإعادته في شهر أكتوبر، ليستأنف دراسته. كانت تنوي أن تبقيه معها مرة أخرى بدعوى استمرار مرض رئتيه.

في محطة ليون، وحتى قبل أن يتوقف القطار، لمحت صورة ظل شرطي ألماني يسير على طول الرصيف. كانت باريس قد احتلت قطعًا.

في الحقيقة، لم أكن محتاجًا إلى أدلة بصرية كي أتأكد. غادرت عربة القطار وتوجهت نحو المخرج، عندها أدركت أنني نسيت قبعتي فعدت على أعقابي، وجدتها في المقصورة الفارغة واكتشفت في الوقت نفسه أن السيدة العجوز جارتي في المقعد قد نسيت طردًا ضخمًا بعض الشيء. أخذته على أمل أن أدركها وأعيده إليها، لكنها لم تكن عند المخرج، ولم أجدها في المترو حيث اعتقدت أنها سبقتني إليه، ما دامت ستتوجه مثلي إلى أوتوي، ولمنحها وقتًا للوصول تركت قطاري أنفاق يعبران دوني، لكني في الأخير صعدت إلى الثالث وجلست أمام ضابط ألماني. كنت محملًا بطرد السيدة العجوز، وصلت إلى أوتوي عند الثامنة مساءً، وما زال النهار ينير السماء بقوة، بحثت عن منزلي دون جدوى. فبدلًا من المبنى الجديد الذي أقمت فيه عام 1950، لم أجد سوى جدار مغلق تبدو من خلفه بعض الأشجار. ثم تذكرت أن شقتي لا تزال في مونمارتر شارع لامارك، حيث سأقيم هناك ثماني سنوات. عدت

إلى المترو مرة أخرى.

في شارع لامارك، فتحت الخادمة الباب أمامي، فتذكرت فجأة اسمها المنسي.

سألتني إذا كنت قد حظيت برحلة جيدة. أجبتها بتعاطف شديد، وأنا أفكر أنها في العام المقبل سيختطفها زنجي في ساحة بيغال من مطبخها ويرميها على الرصيف. إنها التاسعة مساءً. زوجتي التي لا تتوقع مني القدوم أنهت عشاءها. لقد تعرفت على صوتي، فهرولت نحوي في الدهليز. عندما رأيتها فجأة في ريعان الشباب، في الثامنة والعشرين تقريبًا، تأثرت، فعانقتها والدموع تترقرق من عيني.

لكن بالنسبة إليها، وهي التي لا تتذكر أنها رأتني في اليوم السابق، فقد كنت أكبر منها بسبعة عشر عامًا، أنا لم أشعر بأني تغيرت، لكنها أحست أن مشاعري مفاجئة ومضطربة بعض الشيء. في الحمام حيث شرعت في استحمام سريع، سألتني عن رحلتي إلى لاجيروند، وفي أثناء الرد عليها تذكرت أن هذه الرحلة كنت قد قمت بها مرة واحدة في هذا التاريخ، فأخبرتها بالحوادث البسيطة التي وقعت على طول الطريق ويبدو لي أني استخدمت العبارات نفسها التي عبرت بها في الماضي. إلى جانب ذلك، كنت أشعر بأنني لست مسيطرًا تمامًا على كلماتي، ولكنني أتحمل ضرورتها فأجد نفسي مضطرًا إلى قولها، كما لو كنت أؤدي دورًا مسرحيًا. أخبرتني زوجتي عن كلوفيس الذي ينام في الغرفة المجاورة، والصعوبة التي تجدها كي توفر له مسحوق الحليب. إنه في حالة جيدة، لكن بالنسبة إلى طفل يبلغ من العمر أربعة عشر شهرًا، فإن وزنه ليس طبيعيًا تمامًا. أول من أمس، عندما غادرت باريس، كان كلوفيس يخوض الامتحانات الكتابية للحصول على البكالوريا. أنا لم أسأل عن أخبار لوي وجولييت الأخيرين؛ أعلم أنهما غير موجودين. يجب أن أنتظر تسع سنوات حتى ولادة لوي وأحد عشر عامًا لولادة جولييت.

في القطار، فكرت كثيرًا في هذا الغياب، فاستعددت له، والآن أجد صعوبة في أن أسلّم به. انتهى بي الأمر إلى التساؤل باستخدام صيغة حذرة: «والأطفال الآخرون؟» رفعت زوجتي حاجبيها مستغربة، فأسرعت مستدركًا «نعم، أبناء لوسيان». لكن حظي سيئ، لأن أخي لوسيان من المقرر أن يتزوج في غضون عامين وليس لديه

أطفال حتى الآن. صححت قولي على الفور معلنًا أن اللغة خانتني وأني أردت قول فيكتور بدلًا من لوسيان. هذه الزلة أقلقتني قليلًا. أخشى أن يكون الأمر أصعب عند التكلم عن أشياء أكثر أهمية، فأنا بهذه الطريقة أخلط بين حقبتين.

في الرواق، توقفنا للاطمئنان على ماري تيريز التي كانت تحملها الخادمة بين ذراعيها لتضعها في الفراش. ابنتي الأولى، التي خطبت بالأمس، تبلغ الآن ثلاث سنوات. على الرغم من أنني توقعت هذا التغيير، غير أني أشعر بخيبة أمل عميقة، فانتابني حنان أبوة متردد قليلًا. كانت بيني وبينها وهي شابة إشارات وطرق تفاهم لم تعد ممكنة الآن مع هذه الطفلة الصغيرة. صحيح، سأحظى بأفراح أخرى. واسيت نفسي وأنا أفكر أن ماري تيريز لا تزال أمامها سنوات عديدة من الطفولة، وستكون في غاية الجمال.

ذهبت وزوجتي إلى غرفة الطعام، فاعتذرت لي عن الطعام البسيط:

- لن تحصل على عشاء جيد. في هذه الأيام لا يمكنك العثور على أي شيء. لحسن الحظ، وجدت منذ قليل عند بروني بيضتين ونصف نِقنِق.

أسمع نفسي تقول لها:

- بالمناسبة، لقد تمكنت من العثور على بعض الإمدادات هناك. ليس بالقدر الذي كنت أرغب فيه، لكن هذا ما يحدث باستمرار.

ثم أتحدث عن دزينة البيض، ورطل الزبدة، ومئة غرام من القهوة الحقيقية، ولحم الإوز المدخن وزجاجة صغيرة من الزيت. ثم أذهب إلى الدهليز حيث وضعت الطرد، عندما دخلت، أبحث عن الطرد الذي تركته السيدة العجوز في القطار وأفتحه دون أعي ما أقوم به، فألفيه يحتوي بالضبط على ما أشرت إليه قبل قليل، غير أني لم أشعر بأي نوع من تأنيب الضمير. كان يجب أن يصل هذا الطرد إلى يدي وأن يُفتح هنا، وفي هذه الساعة، وفي حضور زوجتي. كان كل شيء يسير بنظام محدد، وما عليّ إلا أن أذعن بالضرورة إلى ما يحدث، بل ساورني الشك في أن يكون هذا الطرد في ملكية السيدة العجوز.

تبدو لي الآن القبعة المنسية في المقصورة واحدة من آلاف الحيل التي يلجأ إليها القدر لسحبي إلى الوراء وإعادتي إلى أصغر ثنايا تفاصيل الحياة التي عشتها سابقًا.

كنت أتناول الحلوى عندما فتح الباب الأمامي وأغلق بصوت عال. وسمعت صوتًا في الدهليز.

فقالت زوجتي:

- إنه العم توم جاء سكران مرة أخرى.

هذا صحيح، لقد نسيت أمر العم توم. في العام الماضي دُمر المنزل الذي كان يعيش فيه في النورماندي بقصف، وقُتلت زوجته في أثناء فرارها من الغزو، وسُجن ابناه. لقد لجأ إلينا. ولكي ينسى محنته، يقضي معظم وقته في المقهى. كانت تهزمه الكحول فهو لا يقوى على تحملها، تجعله فظًا وصاخبًا. كما أن وجوده صار شيئًا فشيئًا عبئًا ثقيلًا علينا. لكن الليلة، على الرغم من مزاجه السيئ العدواني، أرحب به بصبر وتسامح كبيرين. من المقرر أن يموت العم توم في غضون ثلاثة أشهر لا أزال أتذكر عذابه المرير. كان يطالب بالإفراج عن ابنيه السجينين ويكرر في كل لحظة: «أريد أن أعود إلى فرنسا».

«قضيت الليلة غافيًا ودون أحلام. عندما استيقظت، لم أحس بالاغتراب الذي كنت أخشاه البارحة. أصبحت الشقة مألوفة تمامًا. لعبت مع طفلي من دون دوافع خفية مفرطة. لقد اشتقت إلى وجود جولييت وشقيقها لوي، ولكن بإحساس أقل قسوة من مساء أمس، لقد أضحت ذكريات وجهيهما الطفولي في داخلي مثل بصيص أمل مرتجى. يبدو لي، وربما كان ذلك وهمًا، أن ذاكرتي عن المستقبل ليست يقينية تمامًا. قرأت الصحف هذا الصباح باهتمام. على الرغم من أن نتيجة الأحداث الحالية أعرفها تمام المعرفة، فإنني أتذكر بشكل غامض مراحل الصراع وتحولاته.

أخذت المترو إلى لامادلين وتجولت في أنحاء المدينة، لكن منظر الشارع لم يفاجئني. ما بعد السبعة عشر عامًا الماضية أصبح الحاضر ملتحمًا بالماضي. في ساحة الكونكورد رأيت البحارة الألمان مرة أخرى يحرسون فندق لامارين، حينها لم

أشعر بالندم على غياب ابنتي جولييت.

خلال هذا الصباح صادفت واقعة مفاجئة قليلًا، لكن ما أثار إعجابي أكثر أني صادفت صديقي العظيم الرسام د... وجهًا لوجه في زاوية شارع دو لاركاد وشارع ماتورين. ابتسمت له برضا وكدت أمد يدي لأصافحه، لكنه نظر إليّ متجاهلًا ابتسامتي الودية، ومضى إلى حال سبيله. تذكرت في الوقت المناسب أنه يُفترض أن نلتقي بعد عشر سنوات.

كان بإمكاني أن أركض خلفه وأجد ذريعة لأقدم له نفسي، لكنني لا أعرف هل الاحترام الإنساني أو الخضوع للقدر ما منعني من فعل ذلك، ودون قناعة وعدت نفسي بتقديم زمن صداقتنا بغض النظر عن الترتيب الذي حدده القدر. ومع ذلك، أستطيع أن أقيس خيبة أملي ونفاد صبري بحجم الحزن الذي شعرت به عقب هذه الواقعة.

قبل لحظة التقيت جاك ساريت خطيب ابنتي ماري تيريز. كان طفلًا، يمسك تنورة والدته المطوقة لها. توقفت بالقرب من السيدة ساريت، فتحدثت معي عن أبنائها وعن جاك خصوصًا. أطلعتني الزوجة الماهرة التي لا تقل قلقًا عن زوجها الذي يعمل من أجل نهضة أخلاقية في فرنسا أنهما قد ينذران الصبي الصغير للدراسة الكنسية، فأرد عليها أنهما محقان. في مترو الأنفاق الذي أعادني إلى مونمارتر، وجدت نفسي بصحبة روجيه ل...، شاب في الثلاثينيات من عمره لم أستلطفه قط، لأنه دائم الاكتئاب وقد أسرّ لي أنه يمر بوضع في غاية الصعوبة. أنظر بفضول إلى هذا الشخص المثير للشفقة الذي سيجد نفسه، في غضون عشر سنوات تقريبًا، على رأس ثروة هائلة، فاز بها بطريقة غير شريفة في عمليات تجارية شائنة، في حين هو جالس أمامي يتحدث معي عن بؤسه الحالي، أراه مرة أخرى بفخامته المستقبلية، منتصرًا بالفساد الأسطوري الذي لطالما كان مصدر تباه وتفاخر. في الوقت الحالي، هو شخص فقير نحيل، ذو عينين حزينتين، وصوت متواضع وخائف. انتابني شعور منشطر بين التسامح أو الاشمئزاز من مسيرته المهنية الرائعة.

بعد ظهيرة اليوم نفسه، مكثت في المنزل وأخذت عملي قيد التنفيذ من الدرج،

الذي كنت قد كتبت منه نحو خمسين صفحة. لأني كنت أعرف جيدًا ما سأكتبه من صفحات قادمة، لم تعد لدي أي رغبة في العمل عليه، ففكرت بخيبة أمل أن حياتي طوال السبعة عشر عامًا القادمة ستكون تكرارًا مملًا وكدحًا مضجرًا. لم أعد أشعر بالفضول إلا إزاء غموض هذه القفزات والارتدادات عبر الزمن. ومع ذلك، فإن الاستنتاجات التي توصلت إليها كانت في غاية الإحباط. في اليوم السابق، تصورت فعلًا أن الوجود المتزامن لكونين انفصلا واحد عن الآخر طوال سبعة عشر عامًا. لقد تقبلت الآن كابوس لا نهائية الأكوان حيث يمثل الزمن انتقال إدراكي من كون إلى آخر، ثم إلى كون آخر.

تمر ثلاث ساعات، فأتعرف على الكون حيث أظن أنني أمسك فيه بالقلم. ثلاث ساعات وثانية واحدة، أصبحت مدركًا هذا الكون الآخر حيث أظهر وأنا أضع قلمي، وما إلى ذلك... وفي أحد الأيام، يعبر الجنس البشري، دفعة واحدة، ما يسمى بمرحلة السبعة عشر عامًا. أنا وحدي، بعد هذه القفزة الجماعية، لا أعرف ما هو الإلهام، كل ما أعرفه أني أكرر المرحلة في الاتجاه المعاكس.

كانت هذه العوالم كلها التي ضاعفت شخصيتي إلى ما لا نهاية امتدت أمام عيني بمنظور مثير للاشمئزاز. برأس مهموم ومغموم، نمت ورأسي مستند إلى طاولتي.

سيمر شهر تقريبًا منذ أن كتبت قصة مغامرتي وها أنا ذا أعيد قراءتها اليوم، أشعر بالأسف الشديد لأنني لم أكن أكثر دقة، كما ألوم نفسي لأنني لم أتمكن من توقع ما حدث لي منذ ذلك الحين. خلال هذه الأسابيع القليلة، تموضعت في مرحلتنا الحزينة بشكل جيد لدرجة أنني فقدت ذكريات المستقبل كلها. لقد نسيت، هل هو حسن حظ أم سوء حظ، كان من المفترض أن يمثل ذلك كله حياتي على مدار السبعة عشر عامًا القادمة. لقد نسيت وجهي طفليّ اللذين لم يولدا بعد. لم أعد أعرف أي شيء عن مصير الحرب. ولا أعرف متى أو كيف ستنتهي. لقد نسيت كل شيء وقد يأتي يوم أشك فيه في أنني عشت هذه التجربة المريرة. إن ذكريات وجودي المستقبلي المسجلة في هذه الصفحات بسيطة جدًا لأنني لو منحت لاحقًا فرصة للتحقق من دقتها، فلن أومن إلا بالحاضر فقط. فهي لم تعد تخلّف في داخلي سوى حدوس

بسيطة. كنت ألجأ إلى قراءة الصحف، والتفكير في الأحداث السياسية، تحثني الإرادة للتخلص من قلقي وكربي عسى أن أحفز ذاكرتي على الاستيقاظ، ولكن محاولاتي تذهب مهب الريح دون جدوى دائمًا.

وفي خضم هذا الصراع كان ينتابني من وقت إلى آخر شعور طبيعي ضئيل يزداد ندرة يومًا بعد يوم أنّ ما أراه أمامي كأني رأيته من قبل.

المثل

تحت ضوء المصباح المعلق المنير للمطبخ تمكن م. جاكوتان من رؤية أفراد الأسرة كلهم منحنين على الطعام، يعربون من خلال نظراتهم الجانبية أنهم يخشون مزاج السيد. إن إدراكه العميق لتفانيه وتضحيته، واهتمامه الضيق بالعدالة المنزلية، جعله في الواقع رب عائلة مستبد، وكلما كانت انفجاراته الدموية يستحيل التنبؤ بها دائمًا، حافظ في منزله على جو من النظام الذي فرضه بقوة شخصيته.

بعد أن علم في فترة ما بعد الظهر أنه رشح لنيل السعفة الأكاديمية، قرر ألا يبلغ أسرته إلا عند نهاية العشاء. وبعد أن شرب كأسًا من النبيذ مصحوبة بقضمة من الجبن استعد للتحدث، لكن بدا له أن الجو لم يكن مناسبًا للترحيب بالأخبار السعيدة. كانت نظراته تدور ببطء حول الطاولة، وتوقف أولًا عند الزوجة التي كان مظهرها الهزيل ووجهها الحزين والخائف لا يحظى بقدر كبير من الشرف في نظر زملائه. ثم انتقل إلى العمة جولي التي انتقلت إلى المنزل مدعية أنها تقدمت في السن وإصابتها بعديد من الأمراض القاتلة التي كلفته حقًا في غضون سبع سنوات أموالًا أكثر مما قد ينتظره من ميراثها.

ثم جاء دور ابنتيه الأولى في السابعة عشرة والثانية في السادسة عشرة، يعملان مساعدتين في متجر بخمسمئة فرنك شهريًا، لكنهما يرتديان ملابس مثل الأميرات وساعات يدوية ودبابيس ذهبية عند تقويرة الفستان، كان مظهرهما يفوق مستواهما المادي، ثم نتساءل متفاجئين أين يذهب المال! انتاب م. جاكوتان فجأة شعور فظيع بأن ممتلكاته سرقت منه، وأن عرق تعبه كان يشرب، وأنه طيب بشكل يبعث على السخرية. اندفع الخمر إلى رأسه فتمدد وجهه الكبير -الذي كان لافتًا للنظر في حالته العادية- بحمرته الطبيعية.

كان مستغرقًا في التفكير عندما وقع بصره على ابنه لوسيان، وهو صبي في الثالثة عشرة، كان يحاول، منذ بداية الوجبة الجلوس دون أن يلاحظه أحد. رأى الأب شيئًا مريبًا في شحوب وجه الصغير.

لم يرفع الطفل بصره، لكنه شعر بأنه مراقب، فلف وزرة المدرسة السوداء بكلتا يديه.

- هل تريد أن تمزقها؟ هتف الأب بصوت متوعد. تفعل كل ما في وسعك لتمزيقها؟

أفلت لوسيان وزرته ووضع يديه على الطاولة، ومال برأسه فوق طبقه ولم يجرؤ أن يبحث عن العزاء في نظرات أختيه، فاستسلم للشقاء المهدد.

- أنا أتحدث إليك، أجب إذن. أعتقد أن بمقدورك أن تجيبني.. لكني أخشى أن يكون تأنيب الضمير ما يعذبك.

احتج لوسيان بنظرة خائفة. لا أمل له في تجنب شكوك الأب، لكنه كان يعلم أنه سيصاب بخيبة أمل إذا لم يعثر في عيني ابنه على دلائل على خوفه.

- لا، بالتأكيد ضميرك غير مرتاح. هل ستخبرني بما فعلته هذا الزوال؟

- بعد ظهيرة هذا اليوم، كنت مع بيشون. أخبرني أنه سيأتي ليصطحبني عند الساعة الثانية. عندما خرجنا من هنا التقينا شابيسو الذي كان ذاهبًا لشراء بعض الحاجيات المنزلية. لكن، ذهبنا أولًا عند الطبيب من أجل عمه المريض. كان منذ أول أمس يشعر بألم في جهة الكبد...

لكن الأب فهم أنه أراد تضليله بالحكاية، فقاطعه:

-إذن لا تتدخل في أكباد الآخرين. ولمَ لا تفعل الشيء نفسه عندما أكون مريضًا، لهذا كفّ عن المراوغة وأخبرني أين كنت هذا الصباح.

- ذهبت مع فورمونت لرؤية المنزل الذي احترق الليلة الماضية في شارع بوانكاريه.

- إذن، هل خرجت طوال اليوم؟ من الصباح إلى المساء؟ بالطبع، ما دمت قد أمضيت خميسك مستمتعًا، أتصور أنك أنجزت واجباتك المدرسية؟

نطق الأب هذه الكلمات الأخيرة بنبرة لطيفة حبست الأنفاس كلها.

- واجباتي؟ تمتم لوسيان.

- نعم، واجباتك.

- عملت الليلة الماضية عندما عدت من الفصل.

- أنا لا أسألك إن كنت قد عملت الليلة الماضية. أنا أسألك إن كنت قد أنجزت واجباتك المدرسية ليوم غد.

كان الجميع يشعر أن الكارثة القادمة تنضج على نار هادئة، فرغبوا في أن يتفادوا وقوعها، لكن التجربة علمتهم أن أي تدخل في مثل هذه الظروف لن يؤدي إلا إلى إفساد الأشياء ونقل عدوانية هذا الرجل العنيف إلى حالة من الغضب الشديد. ولهذا وتجنبًا لأي اصطدام بالأب تظاهرت شقيقتا لوسيان بمتابعة القضية وهما شاردتا الذهن، في حين كانت الأم تفضل ألا تشاهد المشهد المؤلم من كثب، ففرت نحو الخزانة.

أما السيد جاكوتان نفسه، وهو على حافة الغضب، كان لا يزال مترددًا في الإفصاح عن خبر حصوله على وسام السعفة الأكاديمية. لكن العمة جولي، التي تحركها مشاعر سخية، لم تستطع أن تمسك لسانها.

- يا له من طفل مسكين، أنت تضغط عليه باستمرار. ما دام قد أخبرك أنه أنجز واجباته في الليلة الماضية، فيجب أن يستمتع أيضًا.

أجاب السيد جاكوتان بغرور:

- أتوسل إليك ألا تتدخلي في جهودي لتعليم ابني. بصفتي والده أنا أتصرف على هذا النحو وأنوي أن أوجهه وفق أفكاري. الأمر متروك لك، عندما يكون لديك أطفال، فلتدعيهم ينغمسون في نزواتهم.

اعتقدت العمة جولي، البالغة من العمر ثلاثة وسبعين عامًا، أن بحديثه عن أطفالها في المستقبل، يقصد السخرية والتهكم من حظها العاثر، ففادرت إلى المطبخ بدورها محطمة. تابعها لوسيان بنظرة منفعلة ولمحها للحظة، في الضوء الخافت لغرفة

الطعام النظيفة اللامعة، تحاول أن تجد المفتاح. عندما أغلقت الباب، وهنا أشهد السيد جاكوتان عائلته كلها أنه لم يقل شيئًا معيبًا لتبرير مثل هذا المغادرة واشتكى من الغدر الذي دفعه كي يكون فظًا حيالها. لم تستطع بناته اللواتي بدأن بتنظيف الطاولة ولا زوجته الموافقة على مزاعمه، فخيمت السكينة على الجلسة.

أصابه صمتهن بنوبة غضب جديدة. فخاطب لوسيان منفعلًا:

- ما زلت أنتظر ردّك. نعم أم لا، هل أنجزت واجباتك؟

أدرك لوسيان أنه لن يكسب شيئًا بالمراوغة، ولا مفر من قول الحقيقة:

- لم أنجز واجبات الفرنسية.

لاح بريق من الامتنان في عيني الأب. كان من دواعي سروره أن تتاح له فرصة فعلية لمهاجمة الصبي.

- لماذا من فضلك؟

هز لوسيان كتفيه في جهل ودهشة أيضًا، كما لو كان السؤال سخيفًا.

تمتم الأب وهو يحدق إليه:

- سأسحق هذا الصبي.

ظل صامتًا للحظة وهو يفكر في درجة الحقارة التي نزل إليها هذا الابن الناكر للجميل، المهمل لواجباته الفرنسية دون أي سبب معلن ودون ندم ظاهر. ثم قال وقد بدأ صوته يرتفع مع نبرة خطابه:

- هذا ما كنت أفكر فيه، أنت لا تزداد عنادًا فقط، بل تتمادى في العناد أيضًا. هذا واجب منزلي للفرنسية أعطاك إياه المعلم يوم الجمعة الماضية لتنجزه ليوم غد. كان أمامك إذن ثمانية أيام ولم تجد طريقة لإنجازه. ولولا حديثي عنه، لذهبت إلى الفصل دون إنجازه.

لكن الأدهى من ذلك كله، قضاؤك يوم الخميس كله في التسكع والتهاون. وبرفقة

من؟! برفقة بيشون وفورمون وشابوسو! كسالى ومغفلي الفصل، المغفلين مثلك. الطيور على أشكالها تقع. بالطبع لن تفكر في الاستمتاع مع بيروشار لأنك تظن أن من العار عليك أن تلعب مع تلميذ صالح.

وقبل كل شيء، لن يقبل بيروشار. أنا متأكد من أن بيروشار لا يمرح. ولم يمرح قط. وهذا أمر جيد لك. لأن بيروشار يجتهد. والنتيجة أنه يحتل دائمًا المرتبة الأولى. في الأسبوع الماضي فقط كان متقدمًا عليك بثلاث مراتب. يمكنك أن تحسب أنه شيء لطيف بالنسبة إليّ، أن أكون في المكتب طوال اليوم برفقة والده. إنه رجل أقل كفاءة مني. من هو بيروشار؟ أنا أتحدث عن الأب. يمكن أن نقول إذا شئنا إنه رجل كادح، لكنه يفتقر إلى المهارات. وحول الأفكار السياسية هي نفسها كما في العمل. لم يكن لديه أي تصورات. وبيروشار يعرف ذلك جيدًا. وعندما نناقش أشياء وأخرى، فهو أمامي لن يفكر أعمق مني. ومع ذلك، إذا جاء ليحدثني عن ابنه الذي دائمًا ما يكون الأول في الفصل، فإنه على أي حال يتفوق عليّ. أجد نفسي في موقف معيب. لست محظوظًا بما يكفي ليكون لدي ابن مثل بيروشار. ابن يحتل المرتبة الأولى بالفرنسية والحساب. الابن الذي يفوز بالجوائز كلها. لوسيان، اترك خاتم المنديل هذا وشأنه. لن أتحمل أن تستمع إليّ شارد الذهن. نعم أم لا هل سمعتني أم تريد صفعات تنبهك إلى أنني والدك؟ أيها الكسول، المشاغب، العاجز! واجب اللغة الفرنسية مكلف بإنجازه منذ ثمانية أيام! لن تخبرني بأنك كنت مشغولًا، لو كنت تفكر وتقدر المعاناة التي أكابدها، فلن يحدث مثل هذا الشيء. لا، يا لوسيان، أنت لن تعترف بالجميل.

وبخلاف ذلك، كنت ستنجز واجبات اللغة الفرنسية. المجهود الذي أبذله في عملي، بهمومه وقلقه. من أجل الحاضر والمستقبل.

عندما أكبر وأتوقف عن العمل، فلا أحد سيعطيني لقمة العيش. من الأفضل الاعتماد على النفس بدل الاعتماد على الآخرين. لم أطلب فلسًا واحدًا قط. ولأتجنب أنا ذلك، لم أبحث قط عن مساعدة من الجار. ولم يساعدني أقربائي قط. لم يسمح لي والدي بالدراسة. عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، بدأت أتعلم مهنة. أجر عربة وفي الظروف الجوية كلها. في الشتاء برد الصقيع يعض أصابعك، وفي الصيف

يلتصق القميص بظهرك. وأنت تتسكع. أنت محظوظ لأن لديك أبًا طيبًا جدًا. لكن ذلك لن يدوم. عندما أفكر. أنك تهاونت في إنجاز واجبك المنزلي. أيها الكسول، القذر! كن مطمئنًا، ستكون دائمًا ضعيفًا. وأنا الذي فكرت أن أصطحبكم جميعًا يوم الأربعاء القادم لمشاهدة مسرحية البورغرافيون.(3)

لم يكن يساورني شك حول ما كان ينتظرني عندما وصلت إلى المنزل. عندما لا أكون موجودًا هنا، يمكن أن نتأكد من انتشار الفوضى. إنه الواجب المنزلي الذي لم ينجز وكل ما يترتب على ذلك في أنحاء المنزل كله. وبالطبع لقد اختار اليوم المناسب...

توقف الأب لحظة، وانتابه شعور رقيق من الحياء والتواضع فأخفض جفنيه.

- في اليوم الذي علمت فيه أنني مُقترح للحصول على السعفة الأكاديمية. نعم، هذا هو اليوم الذي اخترتموه.

انتظر بضع ثوان ليرى تأثير كلماته الأخيرة، ولكنها مرت في مهب الريح كأن لا أحد سمعها من الحاضرين، وربما لم يفهموا معناها.

لقد سمعها الجميع مثل بقية الخطاب دون أن يفهموا معناها.

السيدة جاكوتان وحدها تعلم أنه كان ينتظر هذا التقدير منذ عامين مقابل الخدمات التي قدمها، بصفته أمين المال الطوعي في الجمعية المحلية لتعليم الموسيقى. شعرت بانطباع أن شيئًا مهمًا قد أفلت منها للتو. بدت كلمة السعفة الأكاديمية غريبة ولكنها مألوفة على مسامعها، فانتبهت إلى أن زوجها يرتدي قبعة الموسيقار الفخري التي يتسيد فوقها غصن شجرة جوز الهند. لكن الخوف من أن تبدو بمظهر اللا مبالية جعلها تدرك معنى هذا الخيال الشعري، ففتحت فمها بالفعل واستعدت للتعبير عن الفرح بكل احترام. لكن فات الأوان. خشي السيد جاكوتان المبتهج بمرارة من لا مبالاة أسرته، أن تقول زوجته كلمة تخفف من جسامة الصمت المهين لأسرته فسارع إلى تحذيرها. فقال بسخرية مؤلمة:

- لنواصل. إذن كنت أقول لك إنك تتوافر على ثمانية أيام لإنجاز الواجب الفرنسي.

نعم، ثمانية أيام. هنا، أود أن أعرف منذ متى أنجزه بيروشار. أنا متأكد من أنه لم ينتظر ثمانية أيام أو ستة أو خمسة، ولا ثلاثة ولا يومين، أنجز واجباته في اليوم التالي. وهل تتفضل بأن تخبرني ما هذا الواجب؟

لم ينصت لوسيان بل ترك الوقت يمر للإجابة. استدعاه والده بصوت اخترق ثلاثة أبواب وامتد ليؤثر في العمة جولي القابعة في غرفتها وهي مرتدية ثوب نومها مهزومة، ومع ذلك هبت قادمة لتستطلع الأمر.

- ماذا يحدث؟ كفّ عن هذا، ماذا تفعل بهذا الطفل؟ أنا أريد أن أعرف.

لسوء الحظ، في هذه اللحظة سمح السيد جاكوتان لنفسه بأن تهيمن عليه فكرة إنجازاته الأكاديمية لهذا خذله صبره. كان في ذروة غضبه عادة ما يعبر عن نفسه بلغة لائقة، لكن نبرة هذه المرأة العجوز التي تحدثت بمثل هذه الوقاحة إلى رجل على وشك أن يقلد وسام الاستحقاق بدت له استفزازًا يدعو إلى الرد بوقاحة مضاعفة.

فأجاب:

- أنت، سأنعتك بخمسة حروف.

جحظت عينا العمة جولي غير مصدقة، وعندما حددت ما يجب أن تفهمه بخمسة حروف، أغمي عليها. تعالت صيحات خوف في المطبخ، وغمغمات طويلة عن المصيبة ممزوجة بأصوات تحريك غلايات الماء الساخن والصحون والقوارير.

انشغلت شقيقات لوسيان ووالدتهن بالطريحة معبرات عن تعاطفهن ومواساتهن تجاهها، صدمت كل واحدة من قسوة السيد جاكوتان. لكنهن تجنبن النظر إليه، عندما تحولت وجوههن مصادفة نحوه، أضحت أعينهن قاسية. لقد شعر بالذنب وأشفق على المرأة العجوز نادمًا بصدق على الإفراط في اللغة التي تمادى باستعمال أقسى عباراتها. كان يود الاعتذار، لكن الأعين اللوّامة المحيطة به بشكل واضح زادت من كبريائه. وبينما حملت العمة جولي إلى غرفتها، قال بصوت عالٍ وواضح:

- للمرة الثالثة، أسألك عن الواجب المدرسي.

قال لوسيان:

- إنه تفسير.. يجب أن نشرح المثل القائل: «لا جدوى من الركض، عليك الانطلاق في الوقت المحدد».

- وماذا في ذلك؟ لا أرى ما يمنعك من تفسيرها.

أومأ لوسيان برأسه، لكن وجهه كان مترددًا.

- على أي حال، انهض وأحضر دفاترك وابدأ العمل. أريد أن أرى واجبك منجزًا.

ذهب لوسيان لإحضار محفظته المدرسية التي كانت ملقاة في زاوية من المطبخ، وأخرج مسودة دفتر وكتب في أعلى صفحة بيضاء: «لا جدوى من الركض، عليك الانطلاق في الوقت المحدد». ومهما كان بطيئًا في الكتابة، فلم يستغرق الأمر إلا خمس دقائق. ثم بدأ يمص قلمه ويتأمل المثل بملامح معادية وعنيدة.

قال الأب:

- أرى أنك متردد لفعل ذلك. خذ وقتك الكافي. أنا لست في عجلة من أمري. سأنتظر طوال الليل إذا لزم الأمر.

في الواقع، لقد وضع نفسه في موقف يسمح له بالانتظار بشكل مريح. رفع لوسيان عينيه ورأى ملامح والده الهادئة؛ ما دفعه إلى الشعور باليأس. حاول أن يتأمل مثله: «لا جدوى من الركض، عليك الانطلاق في الوقت المحدد» كان يعتقد أن ثمة بداهة لا تتطلب أي برهنة، وفكر باشمئزاز في حكاية لافونتين: الأرنب والسلحفاة. في هذه الأثناء، بدأت شقيقاته بعد أن وضعن العمة جولي في الفراش ترتيب الأطباق في الخزانة، ورغم حرصهن على عدم إحداث ضوضاء واصطدامات قد تزعج السيد جاكوتان. يبدو أنهن يسعين إلى تقديم ذريعة جيدة للتلميذ لكي لا ينجز أي شيء. فجأة وقعت ضجة رهيبة. كانت الأم قد أسقطت لتوها قدرًا من الحديد على الحوض، فنط مرتطمًا على البلاط.

زمجر الأب:

- حذارِ مهما يكن الأمر مزعجًا. كيف تتوقعن منه أن يعمل في خضم هذه الضوضاء؟ اتركنه وشأنه واذهبن إلى مكان آخر. إذا أنهيتن غسيل الأطباق. اذهبن للنوم.

وما إن غادرت النساء المطبخ حتى شعر لوسيان أن والده قد استفرد به، في هذه الليلة، وفكر في الموت عند الفجر بسبب هذا المثل، فبدأ بالبكاء.

فقال له والده:

- ستكون على ما يرام. اغرب عنه أيها الوحش الكبير!

ظل الصوت خشنًا، ولكن بنبرة مفعمة بالشفقة. كان السيد جاكوتان لا يزال يشعر بالخجل من الكارثة التي تسبب فيها للتو، كان يرغب في تعويض سلوكه بإظهار بعض التساهل تجاه ابنه. أدرك لوسيان الفروق الدقيقة، وخفف من روعه وبكى بقوة. سقطت دمعة على المسودة بجانب المثل. تأثر الأب، فلف حول المنضدة وجر كرسيًا وجلس بجانب الطفل.

- هون عليك، خذ مني منديلك وكفكف دموعك. في مثل عمرك، يجب أن تفكر أنّ تشدُّدي معك فيه خير لك. لاحقًا ستقول: «لقد كان محقًّا». لا يوجد شيء أفضل للطفل من الأب الذي يعرف كيف يكون صارمًا. في الواقع، لقد قال لي بيروشار ذلك أمس. من عادته أن يضرب أبناءه. أحيانًا تكون الصفعات أو قدمه حيث يستحق ابنه، أحيانًا تكون المقرعة أو الضرب على المؤخرة. وبذلك يحصل على نتائج جيدة، ويتأكد أن ابنه يمشي على الصراط المستقيم وأنه سينجح في مستقبله نجاحًا كبيرًا. لكنني لا أستطع أن أضرب طفلًا، باستثناء بالطبع بعض الحالات وربما من حين إلى آخر.

يؤمن كل شخص بأفكاره. هذا ما كنت أقوله لبيروشار. أعتقد أنه من الأفضل الاحتكام إلى درجة امتثال الطفل.

هدأ لوسيان بهذه الكلمات الطيبة، وتوقف عن البكاء فاعتقد والده أنه يشعر بالقلق.

- لأنني أتحدث إليك كرجل، فلا تتصور، على الأقل، أنه سيتحول إلى ضعف؟

- أوه! لا. أجاب لوسيان بنبرة تدل على قناعته العميقة.

مطمئنًا، نظر السيد جاكوتان إلى ابنه نظرة لطيفة. ثم، مع الأخذ في الاعتبار المثل من جهة، وإحراج ابنه من جهة أخرى، خال أن بإمكانه أن يكون كريمًا بتكلفة قليلة فقال بطيبة قلب:

- أرى أننا إذا لم نبدأ العمل الآن، فسنظل هنا حتى الساعة الرابعة صباحًا. هيا إلى العمل. قلنا إذن: «لا جدوى من الركض، عليك الانطلاق في الوقت المحدد». دعنا نرى. لا جدوى من الركض...

في وقت سابق، بدا موضوع هذا الواجب المنزلي الفرنسي سخيفًا تقريبًا لأنه كان في غاية السهولة. الآن بعد أن تحمل مسؤوليته، رآه من منظور مختلف، فانشغل فكره، وأعاد قراءة المثل عدة مرات وتمتم:

- إنه مثل.

- نعم، وافق لوسيان الذي كان ينتظر التكملة بثقة جديدة في النفس. لقد بلبل هذا القدر الكبير من الثقة الهادئة قلب السيد جاكوتان. إن فكرته عن مكانته بوصفه أبًا الموضوعة على المحك جعلته يشعر بالتوتر. فسأله قائلًا:

- عندما أعطاكم المعلم هذا الواجب، ألم يقل لكم شيئًا؟

- بلى قال لنا، قبل كل شيء، يجب أن نتجنب تلخيص الأرنب والسلحفاة. الأمر متروك لنا للعثور على مثال آخر. هذا ما قاله لنا.

قال الأب:

- حسنًا، هذا صحيح. الأرنب والسلحفاة من الأمثلة الجيدة. لم أفكر في ذلك.

- نعم، ولكنه ممنوع.

- ممنوع، بالطبع، ممنوع. لكن بعد ذلك، إذا كان كل شيء ممنوعًا...

بحث السيد جاكوتان بوجه محتقن عن فكرة أو على الأقل عن عبارة قد تشكل

بداية. كان خياله مضطربًا. بدأ ينظر إلى المثل بشعور ممزوج بالخوف والاستياء. تدريجيًا، اكتسى نظرته تعبير يدل على الملل نفسه الذي كان يشعر به لوسيان سابقًا.

أخيرًا، تبادرت إلى ذهنه فكرة تتمثل في تطوير عنوان فرعي لصحيفة، بعنوان «السباق نحو التسلح»، كان قد قرأه ذلك الصباح. كان التطور يسير على ما يرام: كانت أمة تستعد للحرب لمدة طويلة، فشرعت في صناعة البنادق والدبابات والمدافع الرشاشات والطائرات. الأمة المجاورة تستعد ببطء، بحيث لم تكن مستعدة على الإطلاق عندما اندلعت الحرب حاولت هذه الأخيرة دون جدوى اللحاق بالركب. في المثال كل المواد اللازمة لإنجاز واجب مدرسي ممتاز.

وفجأة، تكدر وجه السيد جاكوتان الذي كان مشرقًا منذ لحظة.

لقد أدرك للتو أن مذهبه السياسي لن يسمح له باختيار هذا المثال المغرض. كان في منتهى الصدق لكي يهين قناعاته، على كل حال فقد كان الأمر مؤسفًا. ورغم تشبثه بآرائه، فقد سمح لنفسه بأن يشعر بالندم لانتسابه إلى حزب رجعي، الأمر الذي كان سيمكنه من استغلال فكرته التي لا تتعارض وضميره. تمالك نفسه وهو يفكر في الوسام الأكاديمي بحزن عارم.

انتظر لوسيان نتيجة هذا التأمل دون قلق. واعتبر نفسه معفيًا من مهمة شرح المثل ولم يعد يفكر فيه. لكن الصمت الرازح جعل الوقت يبدو طويلًا. تثاقلت جفونه، وسمع تثاؤبه الطويل عدة مرات. نظر إلى والده الذي انقبض وجهه بسبب البحث المجهد عن مخارج محتملة شاعرًا باللوم؛ ما زاد من توتّره. بغض النظر عن مدى صعوبة تعذيبه لذهنه، فإنه لم يستطع العثور على أي شيء. لقد أزعجه سباق التسلح. لأنه بدا كأنه قد التحم بالمثل، وبات المجهود المبذول لنسيانه يفرض عليه بإلحاح التفكير فيه. من وقت إلى آخر، كان ينظر إلى ابنه خلسة وبقلق زائد.

وحينما فقد الأمل وبات مستعدًا للاعتراف بعجزه خطرت على باله فكرة أخرى. جاءت كأنها تحول لسباق التسلح الذي نجح في استبعاد هوسه. يتعلق الأمر مرة أخرى بمنافسة، لكنها رياضية، عن استعداد فريقين من المجدفين، أحدهما منهجي والآخر مفرط الإهمال.

أمر السيد جاكوتان:

- هيا، اكتب.

نصف نائم، قفز لوسيان والتقط قلمه.

- لا أصدق، هل كنت نائمًا؟

- أوه! لا. كنت أفكر. كنت أفكر في المثل. لكني لم أجد شيئًا. ضحك الأب ضحكة صغيرة متسامحة، ثم شخص إليه وبدأ يمليه ببطء:

- في هذا الصيف المجيد بعد ظهر يوم الأحد، فاصلة، ما هذه الأشياء الخضراء الممدودة، فاصلة، التي تجذب أعيننا؟ إذا نظرنا إليها من بعيد، تبدو كأنها تمتلك أذرعًا طويلة، لكن هذه الأذرع ليست سوى مجاديف والأجسام الخضراء هي في الواقع زورقًا سباقات يتأرجحان برفق على سطح أمواج نهر مارن.

تجرأ لوسيان، وقد شعر بقلق غامض، على رفع رأسه، فبدا مرتبكًا بعض الشيء.

لكن والده لم يلمحه كان مشغولًا جدًا بصقل جملة انتقالية تسمح له بتقديم الفرقتين المتنافستين. فمه فاغر، وعيناه نصف مغمضتين، يراقب مجدفيه ويجمّعهم في مجال أفكاره، ثم شرع يتلمس طريقه نحو قلم ابنه.

- هات. سأكتب بنفسي، هذا أكثر ملاءمة من الإملاء.

وبدأ في الكتابة بقلم منساب. تداعت الأفكار والكلمات بسهولة وبترتيب مريح ومبهج جذبه إلى أسلوب غنائي. وشعر بثراء لغوي، كأنه أصبح سيد ملكية رائعة وخصبة. راقب لوسيان للحظة، ليس دون تخوف ضئيل، حيث يمر القلم الملهم على مسودة دفتره وانتهى به الأمر إلى النوم على الطاولة. في الساعة الحادية عشرة، أيقظه والده وسلمه دفتر الواجبات.

- والآن ستنسخه بهدوء. أنا في انتظار أن تنتهي من قراءته مرة أخرى. حاول خصوصًا وضع علامات الترقيم.

قال لوسيان:

- لقد تأخر الوقت. ربما من الأفضل أن أكتبه صباح الغد باكرًا؟

- لا لا. اطرق الحديد وهو ساخن. وهذا مثل آخر.

منحه السيد جاكوتان ابتسامة جشعة وأضاف:

- لو كان لدي متسع من لوقت فلن أجد صعوبة في شرح هذا المثل أيضًا. ولا تضطرني إلى فعل ذلك. إنه موضوع جميل. أكتب حول الموضوع اثنتي عشرة صفحة. على الأقل أنت تفهم ذلك جيدًا؟

- ماذا؟

- أسألك إذا فهمت معنى المثل القائل: اطرق الحديد وهو ساخن.

بدا لوسيان مغلوبًا على أمره، وكاد يستسلم للإحباط، لكنه تدارك نفسه وأجاب بلطف شديد:

- نعم يا أبي. أفهم جيدًا. لكن يجب أن أنسخ واجبي المنزلي أولًا.

- أحسنت، انسخه. قال السيد جاكوتان بنبرة خانت ازدراءه بعض الأنشطة المفروضة على التلاميذ بنظام غير واضح المعالم.

بعد أسبوع، أعاد المعلم النسخة المصححة بعدما قال له:

- على العموم، موضوعك غير مرض كثيرًا. إذا استثنينا بيروشار الذي أعطيته ثلاث عشرة درجة وخمسة أو ستة آخرين منحتهم فقط مقبول، فأنت لم تفهم الواجب.

وشرح له ما كان عليه أن يفعله، ثم اختار ثلاث نسخ وبدأ يعلق عليها من كومة النسخ المشروحة بالحبر الأحمر. الأولى كانت لبيروشار الذي تحدث عنه بعبارات متوهجة. والثالثة كانت للوسيان.

- عندما قرأت لك يا جاكوتان، فوجئت بطريقة الكتابة التي لم تعتدها والتي بدت لي منفرة جدًا حتى أنني لم أتردد في منحك ثلاث درجات. وإذا حدث لي في كثير

من الأحيان أن ألقيت اللوم على جفاف كتابتك، فيجب أن أقول إنك هذه المرة وقعت في خطأ معاكس. لقد وجدت طريقة لملء ست صفحات مع البقاء باستمرار خارج الموضوع.

لكن أكثر شيء لا يطاق في موضوعك هو هذا الأسلوب المتكلف الذي اعتقدت أن من واجبك أن تستعمله.

تحدث المعلم مرة أخرى ومطولًا عن واجب لوسيان المنزلي الذي قدمه للطلاب الآخرين أنموذجًا لما يجب ألا يفعلوه. قرأ بصوت عالٍ بعض المقاطع التي بدت له مفيدة خاصةً. في الفصل، كانت هناك ابتسامات وضحكات مكتومة وحتى قليل من القهقهات المتواصلة. كان لوسيان شاحبًا جدًا. جُرحت كبرياؤه، كما تخلخل إيمانه بمشاعر الطاعة الأبوية.

ومع ذلك فقد استاء من والده لأنه جعله في موضع سخرية من رفاقه. رغم أنه كان طالبًا متواضعًا، لم يعرضه إهماله وجهله قط لمثل هذه السخرية، سواء كان واجبًا منزليًا فرنسيًا أو لاتينيًا أو جبرًا، فقد احتفظ حتى في ذروة قصوره بإحساس عادل باللياقة وحتى اللباقة المدرسية.

في ذلك المساء، عندما كانت عيناه حمراوين من الحاجة إلى النوم، نسخ مسودة السيد جاكوتان. لم يكن مخطئًا بشأن الاستقبال الذي سيُمنح لواجبه. في اليوم التالي، استيقظ بشكل أفضل، حتى أنه تردد في إعطائه للأستاذ، وشعر بعد ذلك باهتمام أكبر بما تحتوي عليه من خطأ وتناقض، بسبب عادات الفصل. وفي اللحظة الأخيرة، كانت الثقة الغريزية بأن أباه معصوم من الخطأ، لهذا حسم موقفه وسلم موضوعه.

عند عودته من المدرسة ظهرًا، فكر لوسيان باستياء في حركة الثقة الدينية هذه -إذا جاز التعبير-التي تحدثت بصوت أعلى من الواضح. ما دور الأب في شرح هذا المثل؟ بالتأكيد، لم يسرق الإذلال بسبب إعطائه ثلاث درجات من أصل عشرين لقاء واجبه المنزلي الفرنسي. كان ذلك كافيًا ليجعله يتوقف عن رغبته في شرح الأمثال. وبيروشار الذي حصل على ثلاث عشرة درجة من عشرين. سيجد الأب صعوبة في

التعافي منها. هذا من شأنه أن يعلمه مرة أخرى.

على طاولة الأكل، بدا السيد جاكوتان نفسه مبتهجًا وبمنتهى اللطف. أبدى فرحة محمومة قليلًا وحرك نظرته وملاحظته. تمالك نفسه بتأنق حتى لا يسأل منذ البداية السؤال الذي كان يحرق شفتيه وينتظره ابنه. لم يكن جو الغداء مختلفًا كثيرًا عما كان عليه في العادة. بل إن ابتهاج الأب، بدل أن يكون مصدر ارتياح للضيوف، بث ارتباكًا إضافيًا في الحاضرين.

حاولت السيدة جاكوتان وبناتها عبثًا اعتماد نبرة تلائم روح الدعابة لدى السيد. أما العمة جولي، فقد جعلت من واجبها أن تؤكد بملامح متجهمة لتعبر عن الدهشة والاستياء حيال كل ما زرعته هذه الفكاهة الطيبة من الغرابة بين العائلة. جاكوتان شعر بذلك، ولم يمض وقت طويل حتى تجهم وقال فجأة:

- بالمناسبة، هل من أخبار عن المثل؟

كان صوته ينم عن عاطفة بدت كأنها شعور بالقلق أكثر من نفاد صبر. شعر لوسيان أنه في هذه اللحظة يمكن أن يتسبب في شقاء والده.

نظر إليه الآن بحرية كشفت له عن شخصيته. لقد فهم أن الرجل المسكين عاش سنوات عديدة على شعوره باستحالة أن يخطئ مادام سيدًا للأسرة، وأن بإقدامه على شرح هذا المثل، أقحم مبدأ عصمته في مغامرة خطِرة. لن يفقد طاغية البيت ماء وجهه أمام عائلته فحسب، بل سيفقد أيضًا الاعتبار الذي كان يكنه لنفسه. سيكون الانهيار. في المطبخ حول الطاولة وأمام العمة جولي التي كانت تترقب دائمًا فرصة الانتقام، لكن يمكن أن تغدو هذه المأساة التي قد تطلق شرارتها كلمة بسيطة، حقيقة مروعة. كان لوسيان خائفًا من ضعف الأب، فرقّ قلبه وغمره شعور بالشفقة السخية.

- هل رحلت إلى القمر؟! أنا أسألك إن كان المعلم قد سلمك واجباتي المدرسية. قال السيد جاكوتان.

- واجبك؟ نعم، لقد أعاده إلينا.

- وما الدرجة التي حصلنا عليها؟

- ثلاث عشرة.

- ليست سيئة. وبيروشار؟

- ثلاث عشرة.

- وما أفضل علامة؟

- ثلاث عشرة.

أضاء وجه الأب. والتفت إلى العمة جولي متطلعًا إليها بتحدٍّ، كما لو أن علامة ثلاث عشرة قد منحت لهما رغمًا عنها. أغمض لوسيان عينيه وتأمل أعماق نفسه بسرور عاطفي. ربت السيد جاكوتان على كتفه وقال بلطف:

- كما ترى، يا بني العزيز، عندما تبدأ العمل، فإن أول شيء تفعله أن تفكر فيه بعناية. إذا فهمت عملك فهذا يعني أنك أنجزت أكثر من ثلاثة أرباعه. هذا بالضبط ما وددتك أن تستوعبه دفعة واحدة وإلى الأبد. وسأنجح في ذلك. سأخصص الوقت اللازم كله. بالإضافة إلى ذلك، ومن الآن فصاعدًا، معًا سننجز واجباتك الفرنسية جميعها.

جابي الزوجات

كان هناك في بلدة ناجيكور الصغيرة جابي ضرائب يُدعى غوتييه-لونوار، واجه مشكلة في دفع ضرائبه بعدما أنفقت زوجته كثيرًا من المال عند المزين والخياطة من أجل ملازم كتيبة الأطقم جميل الطلعة الذي كان يمر من أمام منزلها كل صباح، وكانت تلتقيه عدة مرات في فترة الزوال على أرصفة الشارع الكبير.

علاوة على ذلك، كانت السيدة غوتييه لونوار زوجة مخلصة، فلم تكن لديها أفكار سيئة تقريبًا. ببساطة، كانت تحب أن تتخيل نفسها بصحبة شاب حسن الخلقة وأنيق المظهر. ويجدر بنا أن نعرف أن مثل هذه التخيلات لم تكن مستحيلة، بل على العكس من ذلك. كان أعظم مصفف للشعر في نانجيكورت يغسل شعرها بالشامبو ويعيد تصفيفه كل أسبوع، وهما معًا يكلفان سبعة عشر فرنكًا، دون احتساب التدليك أو قصة الشعر أو مكواة فرد الشعر عندما يحتاج الأمر إلى ذلك.

لكن أعظم النفقات كانت تذهب إلى الفساتين والبدلات والمعاطف، لأنها جميعها من السيدة ليغريس في شارع راغوندان (ليونار راغوندان، المولود في نانجيكورت عام 1807، شاعر مرهف، مؤلف كتاب أوراق شجرة العاشق ومن أوديس إلى القريبة لوسي، التي كانت عمدة المدينة في أثناء حرب 1871 -1870 وندين لها بإنشاء متحف الرسم. وقد كانت عالمة آثار مميزة في نهاية حياتها. أحزنها الخلاف الشهير الذي نشب بينها وبين الأستاذ ج. بونتيه حول أنقاض برج ألبيين. توفيت عام 1886 وقد وُضع لها تمثال نصفي من الحجر، مصنوع بإزميل النحات النانجيكورتي غاليبيه، ويمكن رؤيته في ساحة لاديفونس التي تفضي إلى الشارع الذي يحمل اسمها الآن) من عند السيدة ليغريس التي كانت تلبس سيدات الطبقة الأرستوقراطية في ناجيكور. ورغم عدم انتمائه إلى الأرستقراطية، دفع جابي الضرائب فواتير الخياطة في الأسبوع نفسه الذي يستلمها فيه، بحيث كان دائمًا معوزًا عند حلول موسم الضرائب.

ومع ذلك، لم يلُم قط زوجته لأنها تنفق كثيرًا، بل كانت لديه طريقة لطيفة للنظر إلى ملابسها وزينتها، التي يمكن تفسيرها بأنها نظرة تشجيع لها. كان يبلغ من العمر

37 عامًا وطوله 1.71 م و0.85 م محيط حجم صدره، شعره أسود، ووجهه بيضاوي، وعيناه بنيتان، وأنفه متوسط، وشاربه أسود، لديه شامة على الخد مزروعة بشعر منتصب، كان طويل القامة ولم يهتم باللحية. كان مشغولًا بمهنته كثيرًا حتى خارج ساعات العمل، أكسبته الصعوبات التي يواجهها عادةً في دفع ضرائبه الخاصة تعاطفًا مع دافعي الضرائب العاديين، بحيث كان يرحب بهم بلطف في مكاتب جباية الضرائب ويمنحهم عن طيب خاطر مهلة لدفع مستحقاتهم. ويقول لأحدهم: «أنا لا أضع سكينًا على حنجرتك، افعل ما بوسعك. بعد كل شيء، لا أحد يستطيع فعل المستحيل»، وأحيانًا يسمح للحسرة أن تغلبه، فيقول: «آه! لو كان الأمر متروكًا لي.. لقد فهم دافعو الضرائب هذه اللغة اللطيفة بشكل مثير للإعجاب فلم يستعجلوا الدفع.

كان البعض منهم ممن يعيشون بهدوء شديد قد تأخروا عدة سنوات عن الدفع إلى مصلحة الضرائب. أحب الجابي هؤلاء أكثر من الآخرين. لقد أعجب بهم سرًا وتحدث عنهم باعتزاز. ومع ذلك، ولكونه مجرد دولاب من دواليب الجهاز الإداري، فقد اضطر إلى إرسال أوامر الاستدعاء واللجوء إلى المحضر. يكون حزين القلب عندما يقرر بعث إنذار مع مصاريف الإرسال. كان يرفق معه دائمًا خطابًا وديًا صغيرًا للتخفيف قدر الإمكان من صرامة النماذج الإدارية، بل أحيانًا يشعر بالندم، وعند مغادرته مكتبه يذهب إلى منزل أحد دافعي الضرائب ليقول له بابتسامة طيبة: «غدًا، ستتلقى إنذارًا، لكنك تعلم، لا تعر الأمر أهمية كبيرة. يمكنني الانتظار قليلًا مدة أطول».

في مدينة نانجيكورت برمتها، لم يكره جابي الضرائب سوى رجل واحد وهو روبيفو الثري الذي عاش في المنزل الجميل في شارع موانييه (موانييه موليشوار، المولود في ناجيكور عام 1852. درس الهندسة المعمارية في باريس وعاد ليستقر في بلدته الأصلية. نحن مدينون له، من بين المعالم الأخرى، ببنك التوفير وسوق الحبوب. توفي عام 1911، في حادث صيد). كان السيد روبيفو دائمًا أول من يدفع ضرائبه. في صباح اليوم نفسه الذي يتلقى فيه إشعار الدفع، جاء إلى مكتب الضرائب وقال بصوت مرح: «السيد غوتييه لونوار، لقد جئت لتسوية معاملتي الصغيرة. على كل شخص مستحقات ويجب أن يدفعها، لا أحب المماطلة في الأشياء

الضرورية».

سحب ستين ألفًا من الأوراق النقدية من المحفظة، وعدها بصوت عالٍ: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، حتى بلغ ستين ونيفًا. ومرّ إلى حساب أوراق المئة، وزاد على المبلغ قطعًا نقدية، ثم وضع المبلغ أمامه. تسلم إيصاله ودسه في جيبه، وانتظر كلمة استحسان، فقال بابتسامة قانعة لرجل منسجم مع ضميره: «ها أنا ذا قد تخلصت منها، في انتظار العام المقبل. «لكن الجابي لم يستطع قط إرغام نفسه على قول كلمة طيبة، انحنى ببرود، وعاد إلى الانشغال بأوراقه الإدارية، وعندما ارتد الآخر على عقبيه، نظر إليه وهو يتجه نحو الباب نظرة عدوانية. في إحدى السنوات، كان العام 1938، عانى جابي الضرائب مخاوفَ مالية خطِرة. وقد حدثت أشياء من هذا القبيل: كانت السيدة غوتييه لونوار ذاهبة ذات يوم إلى شارع غراند رو الذي يُسمى أيضًا شارع غراند، فرأت ملازم طاقم الكتيبة يسير في أعقاب أرملة شابة كان يخلع ملابسها بنظرته (لا توجد كلمة أخرى لوصفه).

في اليوم التالي، وبعد أن بعثت رسالة مجهولة إلى الملازم تخطره أن الأرملة الشابة كانت تعاني مرضَ الزهري، ذهبت إلى السيدة ليغريس لتوصي بفستان بلون السماء الزرقاء، فستان صوفي ورياضي، بدلة من نسيج قطني، بدلة من ثوب الكريب الصيني مع مجموعة متنوعة من القمصان ومعطف ذي جيوب بلون البليحاء.

ولمواجهة هذه النفقات، كان على الجابي أن يلتزم مبلغًا معينًا كان يدخره تحسبًا للضرائب. لم يشعر بأدنى قلق. في كل عام، يضع مبلغًا احتياطيًا، لكنه يتبدد قبل شهر أغسطس. لقد لاحظ ببساطة أن الأمور قد سارت أسرع من المعتاد وتمنى أن تكون زوجته قد وضعت مخزونًا من الفساتين لمدة عام على الأقل. بعد شهر، اشترت ست بدلات حريرية، وأربع منامات حريرية، وستة سراويل حريرية، وست حمالات صدر حريرية، وحزامين من مادة مطاطية حريرية، واثني عشر زوجًا من الجوارب الحريرية، وزوجين من الصنادل ذات الكعب أحدهما وردي والآخر أبيض.

وذات مساء من شهر أكتوبر، غادر جابي الضرائب مكتبه متجهمًا وحزينًا. بدأ المطر يتساقط عندما وصل إلى ساحة بورنوبيل (ولد اتيان بورنوبيل في قصر عائلة

البورنوبيل عام 1377. وفي عام 1413 دافع عن مدينة ناجيكور التي حاصرها البورغنديون وأقسم على الموت بدلًا من الاستسلام، وبالفعل لم يستسلم حتى اليوم الثامن عشر من الحصار، بعد أن نفدت الإمدادات، توفي في باريس عام 1462).
كانت الساحة مضاءة بنور المتاجر. ذهب جابي الضرائب نحو مباني مكتب البريد، عند زاوية الشارع الكبير وتوقف أمام صندوق البريد، وأخذ من جيبه مستطيلًا من ورق أخضر، أعاد قراءته عدة مرات. لقد كان استدعاء مجانيًا أرسله لنفسه. بعد لحظة من التردد، وضعه في الصندوق، وأخذ من جيب آخر حزمة من أوامر الاستدعاء الموجهة إلى دافعي الضرائب الآخرين، وأرسلها إلى أحشاء الصندوق لتنضم إلى استدعائه.

كان المطر يتساقط بسخاء. غزت الحمى جبهته. شاهد جابي الضرائب حركة الناس في الساحة، المظلات ترقص على الأرصفة والسيارات تتباطأ على الرصيف اللامع. ومن المدينة المبللة سمع همهمة مكتومة ترتفع في المساء مثل شكوى دافعي الضرائب الذين استدعاهم. من بين المارة المهرولين، لمح رجلًا يركض وياقة سترته مرفوعة، فتعرف على الحلواني بلانشون الذي كان قد أرسل إليه للتو تحذيرًا. وبزخم من التضامن، بدأ يركض خلف بلانشون، دخل مقهى دو سنتر. كان نحو عشرين من مرتاديها يتجاذبون أطراف الحديث أو يلعبون الورق في الصالة الكبيرة. جلس بجانب الحلواني وصافحه بحرارة لم يستوعب الآخر دواعي ذلك جيدًا، فرد بترحيب مرتبك وغير مبالٍ، وبدأ ينظر إلى الرجال على الطاولة المجاورة الذين كانوا يلعبون الورق. إلى جانب طاولة اللاعبين جلس السيد روبيفو على كرسي وتابع اللاعبين وهو يدخن غليونه، وفكر إن وجود هذا الرجل الذي لا يلين، جعل جابي الضرائب أكثر وعيًا بالمصير السيئ للمواطنين الذين يتعرضون لمضايقات السلطات الضريبية. مال نحو بلانشون وقال له بصوت خافت:

- رأيتك تدخل مقهى دو سنتر، فركضت وراءك. أردت أن أخبرك أنني أرسلت لك تحذيرًا معفى من واجب الإرسال. أريدك أن تفهم أنني إذا كنت قد أرسلته إليك، فلأني مضطر إلى ذلك. لكن قبل كل شيء، لا تشغل بالك كثيرًا...

بدا بلانشون مستاءً بشكل جليّ. فكر في الأمر لبرهة وقال بصوت عالٍ:

- إذن أنت أرسلت إليّ تحذيرًا ضريبيًا كهذا؟

- ماذا بوسعي أن أفعل! ثمة قانون يجب أن أخضع له. وهذا لا يبهجني.

وأضاف الجابي بتواضع:

- أنا مضطر إلى الخضوع له بشكل مضاعف، لأنني أيضًا أدفع ضرائبي.

لم يستوعب بلانشون الفرصة الأخوية التي نشأت من هذا التقارب. علاوة على ذلك، فإنه لا يشك مطلقًا في أن الجابي يدفع ضرائبه، رغم اشتباهه على الأقل في أن وضعه يوفر له تسهيلات مريبة. فانتقل إلى طاولة اللاعبين، وهو يقول بمرارة:

- خبر سارا لقد تلقيت تحذيرًا من جابي الضرائب!

وفجأة، بدأت لعبة الورق تخفت حماستها. نظر اللاعبون إلى جابي الضرائب بريبة وسأله أحدهم:

- ربما سأتلقى واحدًا قريبًا أيضًا؟

كان صمت المعني بالسؤال بمثابة اعتراف، فكشر اللاعب وجهه منزعجًا:

- لن تستطيع فعل شيء حيال ذلك.

بدا ببساطة مذعنًا لفكرة هذا الاستحقاق الضريبي. لم يكن بلانشون وحده من يتألم بسبب التحذير، لكنّ كليهما شعر برياح القانون الإجباري العابر، ودون التفكير في الأمر اتخذ وضعية دفاعية. على الطاولات المحيطة ردد مرتادو المقهى كلماتهم وتحدثوا بنوع من الحدة عن مطالب الضرائب، ولكن دون مهاجمة جابي الضرائب مباشرة. ولكن لا شيء في الردود المتبادلة يمكن أن يبرئه. كان الرفض ضمنيًا، أو بالأحرى عُدّ أمرًا مفروغًا منه. بصفته مسؤولًا ضريبيًا، كان من الواضح أنهم يعتبرونه شريكًا في قسوة السلطات الضريبية، وربما اللباقة وحدها ما منعهم من توجيه اللوم إليه مباشرة.

عانى الجابي في صمت مهانةَ هذا الالتباس. كان يرغب في التعبير عن مخاوفه بصفته دافع ضرائب أيضًا، والتواصل مع هؤلاء الأشخاص المعادين بشعور من التمرد، أو على الأقل بنوع من القلق، فيما يتعلق بآلة الضرائب، وعبء منصبه الذي يخنقه. ظل روبيفو، مرخيًا رأسه إلى الوراء، يمج ساق غليونه الذي كان يمسكه بيده مصغيًا في صمت إلى اتهامات الجالسين حوله. كانت عيناه تتألقان بوميض من السخرية، وفي كل لحظة كانت تبحثان عن نظرات جابي الضرائب لالتقاط انعكاس أفكاره وإشارة عن محاولته للردّ، لكن جابي الضرائب لم يلمحه قط، وظل يجهل التعاطف الصامت الذي أحاطه به السيد روبيفو.

لم يستطع هذا الأخير تحمله. إن تأمل بلانشون بشأن سوء الإدارة في الدولة الذي بدا له أكثر تدميرًا من الأشياء الأخرى منحه فرصة للتدخل. فعل ذلك بهدوء، ابتسم بحرارة لجابي الضرائب، فأوضح للجميع أن الضريبة ضرورة حيوية للأمة، وأن المواطنين لا يمكنهم تجنبها دون الإضرار بمصالحهم. فبيّن بوضوح لبلانشون أن تجارة الحلويات -على سبيل المثال لا الحصر- تدين بازدهارها إلى اليقظة الضريبية، لأنه، كما قال، إذا لم تحصّل الدولة الأموال اللازمة لصيانة الكنائس، فسيصيبها الخراب، وإذا لم يعد بإمكان المؤمنين الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد، فكيف يمكنهم شراء فطيرة أو حلوى القديس أونوري عند مغادرتهم القداس؟ ثم ختم السيد روبيفو مثنيًا وبحماسة على جامعي الضرائب المتواضعين الذين كفلوا حسن سير الجسم الاجتماعي. قبل أن يعيد الغليون ليعضه بأسنانه، نظر إلى جابي الضرائب بابتسامة رقيقة ومتواطئة. غرق غوتييه لونوار بعرَق العار واشتد احمرار وجهه. وملأ تعاطف السيد روبيفو ودعمه قلبه بالمرارة. وسرعان ما انتفخ صدره باحتجاج عنيف وتوقف عند رقبته، ومنعه ضميره المهني من الانتفاض ضد الكلمات المترعة بالحجة التي نطق بها للتو نموذج مثالي من دافعي الضرائب.

استمع الحاضرون إلى السيد روبيفو باهتمام وإجلال.

إن أهمية الرجل والتقدير التي يحظى بها بين الناس، منحت خطابه وزنًا وقيمة، حتى وإن لم يتمكن من إقناعهم، فإنه سيتجنب معارضتهم.

عمّ صمت متواطئ، ولكي يظهر بلانشون أن تدخل السيد روبيفو لم يكن عبثيًا، سأل جابي الضرائب وديًا عمّ يريد أن يشربه. لكن جابي الضرائب انسحب مرتبكًا، وانحنى أمام الجميع مغمغمًا بخجل وابتعد وهو يشعر بحرج النظرات المدهوشة والمتعاطفة بشكل ساخر التي وصلت لاحقته وأثقلت كاهله.

بعد أن غادر ساحة لا بورنيبيل، حيث لا تزال المظلات تعبر الميدان، انعطف جابي الضرائب إلى شارع مهجور. غير مبال بالمطر، استرجع توقفه في مقهى دو سنتر ما دار من وقائع. بدا له من الصعب تفسير مشاعر العنف التي كادت تندلع ضد السيد روبيفو بسبب الكراهية التي كان يكنها لهذا الرجل. حاول أن يخمن أسبابًا من فئة أخرى، لكن احترام موقفه لا يزال يمنعه من الانخراط في فحص أكثر تعمقًا. بدت له هذه الأسباب هائلة بسبب هدوئه لدرجة أنه حاول عدم التفكير فيها. كان يعتقد أنه وجد إلهاء لمخاوف حياته المنزلية وانتهى به الأمر بأن طرح سؤالًا في نهاية المطاف. ذكّرته مشكلاته المالية بالتحذير الذي أرسله بالبريد منذ قليل والذي سيصله في صباح اليوم التالي. كان هذا التهديد الذي يتحرك ببطء خلال الليل شيئًا غريبًا لا يخلو من السخرية. كان الأمر يبدو مثل مفاجأة يريد أن يحمي بها جابي الضرائب نفسه، وبدلًا من أن يضع التحذير في البريد، أدخله في جيبه محتفظًا به لنفسه، لكنه أراد أن يمنح نفسه هذه الراحة الوهمية ولو لليلة واحدة.

وبينما كان يمر عبر الأزقة المظلمة، وجد نفسه يأمل في حدوث تأخير في مكتب البريد كما لو أن هذا التأخير، حتى لو افترض حدوثه، فهو لن يغير شيئًا في وضعه.

وفي أثناء تأمله ما حدث، اكتشف بالضبط معنى الاحتجاج العنيف والصامت الذي أضمره في قلبه ضد موقف السيد روبيفو. هذا الرجل السعيد والدقيق الذي يدفع مساهماته دون انتظار يوم أو ساعة لم يدخر أي مفاجآت كاذبة. من خلال دفع مستحقاته على الفور، أو تقريبًا، لم يعرض نفسه مثل دافعي الضرائب العاديين لنسيان متعمد للتهديد الضريبي، ولم يتحمل أيًا من المخاطر التي قد ينطوي عليها هذا النسيان. إن مفهوم الواجب حتى لو كان واجبًا ماليًا لا ينفصل في ذهن الجابي عن فكرة الإغراء والتردد والحيلة والخطر. من خلال عدم مطالبتها بالدفع الفوري

للضريبة، تمنح سلطات الضرائب دافع الضرائب نوعًا من الإرادة الحرة في تدبير أمواله، وهي مدة اختبار يمكن خلالها أن يرتكب المعني حماقة، فيخصص أموال المساهمات لأعمال سيئة، ولكن أيضًا يمكنه أن ينتصر على الإغراءات كلها ويفي بواجبه المالي بكل وفاء ومسؤولية. ومن خلال دفعه ضريبته نقدًا وفورًا، ابتعد السيد روبيفو عن انتصاراته الصارمة، وبذلك فهو يؤدي جزءًا فقط من واجبه الأصغر والأكثر إهمالًا. غمغم غوتييه لونوار قائلًا: «الحلّوف، كنت أشك في ذلك. لطالما اعتقدت أن هذا الرجل لا يؤدي واجبه كدافع ضرائب». وفي هذه الأثناء ترك الأزقة وشاهد الموقد الكهربائي في شارع ويلسون (وودرو ويلسون، المولود في ستانتون (فرجينيا) عام 1856. المرشح الديمقراطي لرئاسة الولايات المتحدة، انتخب عام 1912 وأعيد انتخابه عام 1916. مؤلف النقط الأربع عشرة، توفي في واشنطن عام 1924)، كان المنزل الصغير بجدرانه الخشبية الهشة حيث يقيم مضاءً بالكامل.

في صباح اليوم التالي، جلس جابي الضرائب ليتناول الإفطار مع زوجته عندما أحضر ساعي البريد الإنذار. فتحه وقال بصوت خافت:

- أتلقى إنذارًا بدفع ضرائبي قبل الأول من تشرين الثاني (نوفمبر).

- تحذير؟ تساءلت الزوجة. ولكن، مَن أرسله؟

- جابي الضرائب... تأخرت هذا العام...

- كيف؟ هل ترسل لنفسك إنذارًا؟ هذا سخيف.

- لا أفهم سبب عدم إرسال تحذير لنفسي. ألا تعتقدين أنني سأستغل وضعي لأعامل نفسي معاملة خاصة؟ أنا دافع ضرائب مثل الآخرين.

لمعت في عيني غوتييه لونوار شعلة فخر، فكرر:

- أنا مثل الآخرين.

هزت الزوجة كتفيها فقط. خمنت أن هذا الإنذار قد أرسله فقط ليكون ذريعة ليحثها غوتييه على الاقتصاد والتقشف، فهيأت نفسها للاستماع إلى الموعظة لكنها

لم تزَ أي إشارة تدل على ذلك، فشعرت بالشفقة وكسرت الصمت قائلة:

- لقد أنفقت كثيرًا على ثيابي، كثيرًا جدًا. أرجو أن تسامحني.

فقال جابي الضرائب محتجًا:

- لا، لا. يجب أن ترتدي ملابس جيدة. لم تنفقي أي نفقات غير ضرورية.

تنهدت السيدة غوتييه لونوار وانفعلت شاعرة بندمها، قبّلها بحنان قبل أن يغادر إلى مكتبه. تركها بمفردها، فواصلت المضي قدمًا في الاستعدادات التي كانت قد بدأتها في اليوم السابق، ثم عند العاشرة صباحًا، صعدت على حافة النافذة المطلة على شارع ويلسون. وعندما مر الملازم على صهوة حصانه قفزت خلفه حاملة حقيبة في يد وصندوق قبعة في اليد الأخرى، وانطلقا في العدو في اتجاه حامية بعيدة في الشرق، وبعدها لم يسمع مرة أخرى في نانجيكورت أي خبر عن السيدة غوتييه لونوار. عند العودة ظهرًا، أبلغ الجابي بالحدث عقب قراءته ملاحظة كتبتها له:

- أرحلُ إلى الأبد، مع من يحبه قلبي.

بكى كثيرًا في ذلك اليوم وأيضًا في الأيام التالية وفقد الرغبة في النوم وشهية الطعام، حتى بدأ يهلك وتبادرت إلى ذهنه كل أنواع الأفكار الغريبة. اعتقد أن سلطات الضرائب أخذت زوجته منه واتهم الأخيرة باحتجاز زوجته دون سابق إنذار. وفي عدة مناسبات وجه إلى نفسه بصفته ممثلًا للسلطات الضريبية شكاوى حول هذا الموضوع، ورد عليها شخصيًا بأنه سينظر في القضية ممّن يهمه الأمر. لم يكن راضيًا عن هذه الإجابات التي بدت له مراوغة، فقرر زيارة مكتب التحصيل. لذلك، في صباح أحد الأيام، وصل إلى المكتب قبل الساعة التاسعة بقليل، وتوجه مباشرة إلى غرفة صغيرة حيث كان يستقبل عادة دافعي الضرائب الذين يقدمون طلب التأجيل ووقف التنفيذ. القبعة في يده جلس على الكرسي المخصص للزوار في مواجهة الكرسي الخشبي ذي الورنيش الفاتح خلف طاولة المكتب، وتحدث على النحو الآتي:

- سيدي الجابي، لقد أرسلت لك ثلاث شكاوى حول الحجز على زوجتي الذي تعرضت له في أكتوبر الماضي. وبعد دراسة إجاباتك، اعتقدت أن مقابلتك ضرورية

لتوضيح حالتي. لاحظ أنه، من حيث الموضوع، أنا لا أجادل في أي شيء. بالطبع، لا أجد صعوبة في الاعتراف بحق ضابط الضرائب بأن يأخذ زوجتي مني. أنا أصر على هذه النقطة يا سيدي جابي الضرائب. لا أريد أن يشك أحد في أنني أضع نفسي موضع القاضي أو المنقذ. طبعًا أحببت زوجتي وما زلت أحبها بشغف، لكن على أي حال، لم تكن فكرة التملص من هذا الشرط الضريبي الجديد لتخطر على بالي قط. يكفي أنه تقرر. ولست مضطرًا إلى الخوض في أسبابه. إذا رفض دافعو الضرائب التصرف في زوجاتهم، فقد يحرمونكم أيضًا من الضريبة النقدية، وبهذا ستتدهور الأمور؟ لا، ما أذهلني في هذه الحالة، أكرر، ليس الطبيعة الاستثنائية إلى حد ما للمستحقات الضريبية، وإنما عدم احترام الأشكال القانونية. في الواقع، يا سيدي جابي الضرائب، وهذه مسؤوليتك، لم أتلقَّ أي تحذير مدفوع التكلفة أو دونها، لكي أضطر إلى دفع زوجتي عند مكاتب التحصيل، ولم يصدر أي أمر من المحضر قبل الحجز. ودون الحديث عن المساس بشرفي بصفتي دافع ضرائب، لقد جُرحت عاطفتي جرحًا بليغًا. كان بإمكاني أن أنعم بزوجتي لبضعة أسابيع أخرى لو كانت المهلة العادية التي يسمح بها الإنذار المتبع. لكن مرة أخرى، أنا لم أتوصل بهذا الإنذار، وهنا المخالفة صارخة. ونتيجة لذلك، يا سيدي جابي الضرائب، أتجرأ وآمل ألا تجد سوءًا في أن أسعى للحصول على تعويض من الإدارة المسؤولة.

عندئذ، نهض غوتييه لونوار، وضع قبعته على الكرسي، وانتقل إلى الجانب الآخر من الطاولة وأخذ مكانه على كرسي الجابي. وبعد تأمل قصير أجاب بنبرة تميل إلى التسامح:

- عزيزي السيد غوتييه لونوار، لا أنكر أن في خضم هذه المخالفات كلها التي ارتكبت، يتعلق الأمر بسهو أو بخطأ متعمد. إن التحقيق وحده يمكن أن يثبت ذلك. لكن هذا التحقيق الذي يعدّ حقًّا من حقوقك أحثكم على عدم المطالبة به. لأن المشكلات التي ستنتج عن ذلك ستكون بالنسبة إلى إدارتنا معقدة تعقيدًا لا نهائيًا ومن شأنها أن تعرض سلطتها للشبهة. ولن تفشل صحف المعارضة المستعدة دائمًا لنشر الفضائح في الاستفراد بهذه القضية، وهذا، يا سيد غوتييه لونوار، لن ترغب فيه، ولن تُحلّ قضيتك الضريبية بذلك. ثم، ما الفائدة التي ستجنيها من ذلك؟

أعلم أنه يحق لك أن تأمل أن تعود زوجتك إليك بعد خمسة أو ستة أسابيع. لكنك تعرف مدى بطء هذه الأنواع من الحالات. قبل أن تنجح في مسعاك ستمر عقود. وعندما ستعود الزوجة إليك لبضعة أسابيع فقط، ويجدر ألا ننسى أنك ستجدها مترهلة وهرمة، وبلا أسنان، وذات بشرة رمادية وشعر منتوف. أليس من الأفضل أن تتذكر زوجتك وهي امرأة شابة وجميلة؟ هيّا، كما ترى. وبعد كل شيء، أنت موظف حكومي، بحق الجحيم، يجب أن تكون مثالًا للشجاعة الضريبية. في هذا الصدد، أود أن أخبرك بأن الملاحظات الواردة في رسالتك الأخيرة بشأن المعاملة غير المتساوية التي تحملتها السلطات الضريبية بينك وبين السيد روبيفو بدت معقولة جدًا بالنسبة إليّ. صحيح تمامًا أن السيد روبيفو يفي بالتزاماته كونه دافع ضرائب بشكل سيئ جدًا، وأشكرك على لفت انتباهي إلى هذه النقطة لأنني سأقترح تصحيحها.

بعد أن ترك كرسيه ذي الذراعين، أخذ الجابي القبعة من فوق الكرسي حيث وضعها وعلقها على مشجب المعاطف. وبذلك انتهت المقابلة.

في صباح اليوم التالي، ذهب السيد روبيفو إلى مكتب الضرائب. كان يحمل ورقة في يده وبدا متأثرًا تمامًا. استقبله الجابي بلطف أكثر من المعتاد وسأله عن هدف زيارته.

أجاب الزائر وهو يسلمه ورقته:

- إنه أمر لا يصدق. تلقيت تحذيرًا بأن عليّ أن أدفع زوجتي في شباككم للأداء الضريبي قبل 15 نوفمبر من هذا العام 1938. هناك خطأ بلا شك.

- دعنا نرى. الإنذار الأول، هل يتضمن رسومًا؟

- لا، إنه مجاني.

قال جابي الضرائب بابتسامة هادئة:

- إذن، كل شيء قانوني تمامًا.

تفاجأ السيد روبيفو في البداية وفتح عينيه على اتساعهما مدهوشًا. وأخيرًا، تمكن

من التأتأة:

- هذا لا يصدق! تأخذون مني زوجتي! أوه، ليس من حقّكم.

- ما العمل، إنها الترتيبات الضريبية الجديدة. أوه! أعرف أن هذا قاس، إنه قاس جدًا.

فقال السيد روبيفو:

- لا أصدق ذلك. تأخذون زوجتي! ولماذا أنا بالضبط؟

- للأسف! لست الوحيد من طُلب منه مثل هذه التضحية. هذا الصباح تلقى آخرون غيرك التحذير نفسه. أنا أيضًا دفعت زوجتي للمصالح الضريبية. بالتأكيد الأمر شاق، لكن ماذا سنفعل! يجب أن نذعن. نحن نعيش في عصر متوحش.

قال السيد روبيفو:

- ومع ذلك، نعم، ومع ذلك! أنا أدفع ضرائبي دائمًا في الوقت المحدد...

- بالفعل، يا سيد روبيفو. لأننا نعلم مدى دقتك، لم تتردد السلطات الضريبية في تسجيلك أولًا. لكن هذه المرة، إذا كان بمقدوري أن أبدي لك رأيي، فلا تتعجل كثيرًا في الدفع. استفد من المهلة المخصصة لك.

أومأ السيد روبيفو برأسه واستغرق في التفكير. بدت له القضية بالفعل أقل غرابة. انطلاقًا من نموذج جامع الضرائب، والتأكيدات المقدمة عن دافعي الضرائب الآخرين الذين يمرون بالمحنة نفسها، غدت فكرة التخلي عن زوجته لفائدة سلطات الضرائب شبه مقبولة، فشعر بالتأثر عندما فكر في عظمة تضحيته، فأعجب بنفسه أيما إعجاب، وارتفعت حرارة البطولة على خديه. وأخيرًا، تجلت له الحقيقة، كانت زوجته ذات طبيعة كئيبة ولم تكن قط جميلة. في أعماق نفسه ودون أن يعترف بذلك لنفسه، تخلّى عن القضية بسهولة تامة. صافح جابي الضرائب وتنهد تنهيدة مبالغ فيها.

قال جابي الضرائب:

- عليك أن تتحلى بالشجاعة.

- سأبذل قصارى جهدي. أجاب السيد روبيفو وهو يغادر.

وبينما كان يسير في شارع ليفينات (هوبرت ليفينات، المولود في عام 1860 في نانجيكورت. متبرع المدينة. وهب المستشفى ثلاثة أسرّة ومنح المدينة في وصيته جزءًا من ممتلكاته التي أصبحت حاليًا متنزه دو بور دو لو، حيث نصب له تمثال من البرونز. مات في نانجيكورت في عام 1923) تساءل السيد روبيفو بفضول عن ردود فعل دافعي الضرائب الذين مسهم هذا الإجراء الجديد. كان يتجول في المدينة دون أن يلاحظ أي شيء غير طبيعي. في ذلك المساء، في كافيه دو سنتر، كان هناك نصف دزينة من الرجال الذين يشربون الكحول من الذين تلقوا التحذير نفسه، وسمع السيد روبيفو بالتأكيد اتهامات مريرة موجهة إلى ضراوة جابي الضرائب، لكن نبرة استنكارهم ظلت كئيبة. كان الجو العام عن مناحة لا عصيانًا ونقمة.

شرب الرجال أكثر من المعتاد، وبحلول العشاء كان كثيرٌ منهم في حالة سكر شديد. حاول الحلواني بلانشون، الأرمل منذ العام الماضي، دون جدوى، تحريض دافعي الضرائب على التمرد. «ومع ذلك لن تتخلى عن زوجتك؟» قال لبائع الخرداوات بوتي.

فرد عليه بوتي: «ما دام الأمر ضروريًا»، وكرر آخرون بعده: «إذ لازم الأمر».

في صباح يوم 15 نوفمبر/ تشرين الثاني، اصطف نحو ثلاثين من الأزواج عند باب مكتب الضرائب، حيث قدم كل دافع ضرائب ذراعه لزوجته التي كان سيدفعها عند شباك الأداء. ارتسمت على وجوههم علامات استسلام مؤلم. بالكاد تبادلوا أطراف الحديث بأصوات خافتة من أجل الوعود الأخيرة. في الداخل، شرع جابي الضرائب بمساعدة كاتب في جمع الزوجات. فُصلت الغرفة إلى جزأين بحاجز منخفض.

انحنى على سجل كبير، وشرع الموظف يدوّن معلومات مفيدة عن الزوجين اللذين أتيا إلى المكتب ثم شرع في إعداد إيصال. مرّر جابي الضرائب الزوجة إلى الجانب

الآخر من القسم، وناول الزوج إيصاله وصرفه بكلمة متعاطفة. شكلت النساء اللائي أصبحن ملكًا لمكتب الضرائب مجموعة صامتة في المقصورة الممنوعة على الجمهور وشاهدن دافعي الضرائب يدخلون، فيما التحقت زوجاتهم بقطيعهن الكئيب الذي ازداد عدده شيئًا فشيئًا.

عند الساعة الحادية عشرة توقفت سيارة أمام مكتب الضرائب. شاءت المصادفة في ذلك اليوم أن يمر وزير الضرائب عبر بلدة نانجيكور برفقة رئيس ديوانه متوجهًا إلى الدائرة الانتخابية التي كان نائبًا عليها. نظر من خلال الباب، ففوجئ بهذا الحشد الواقف عند باب مكتب الضرائب، فحثه فضوله للذهاب والاستعلام عن الأمر.

استقبل جابي الضرائب الوزير ورئيس ديوانه دون حرج. واعتذر عن استقبالهما وسط هذا الحشد الكبير من دافعي الضرائب، وأضاف بابتسامة:

- لكنني لا أشعر بالندم. هذه علامة على أن تحصيل الضرائب يسير جيدًا. انظر، معالي الوزير، لقد جمعت بالفعل خمسًا وعشرين زوجة.

تبادل الوزير ورئيس ديوانه نظرات دهشة. وعندما سألاه، قدم جامع الضرائب جميع التفسيرات المرغوبة. وعندما انتهى، مال رئيس الديوان على الوزير وقال له بصوت خافت: «إنه مجنون تمامًا».

- حقًّا! حقًّا! قال وزير الضرائب.

ونظر باهتمام شديد متفحصًا قطيع النساء، وممعنًا في النظر إلى أجملهن، اعتبر أن هناك مصدرًا ربما لإيرادات مهمة للدولة. لم يفلت منه أيضًا أن بسبب تناقضهن الأنثوي عديد منهن استسلمن لاستدعاء جابي الضرائب وحضرن مرتديات أجمل مجوهراتهن. ثم استغرق يفكر برهة.

احترامًا لتأمله وإدراكًا منه للأفكار التي أثارته، نظر رئيس الديوان إلى الأزواج الذين ينتظرون بصبر نهاية الزيارة الوزارية للعودة إلى الاصطفاف أمام مكتب الضرائب.

ثم قال ملاحظته:

- يا له من تهذيب رائع لدى هؤلاء الناس الطيبين كلهم.

غمغم الوزير:

- حقًا. أنا في منتهى الذهول.

تبادل الرجلان نظرات متواطئة. بعد ذلك، صافح الوزير جابي الضرائب بحرارة، وألقى نظرة خاطفة للمرة الأخيرة إلى الزوجات المحصلات فائدة مكتب الضرائب، وعاد إلى سيارته.

في اليوم التالي لذلك اليوم الخالد، علمنا أن غوتييه لونوار رقّي في منصبه إلى جامع ضرائب من الدرجة الأولى. تحدث وزير الضرائب سرًا عن مشروع ضخم كان جديرًا أن يكون تجديدًا شاملًا لمسألة تحصيل الضرائب. لكن الحرب اندلعت فجأة.

حذاء الفراسخ السبعة

غادرت جيرمان بوج شقة الآنسة لاريسون حيث نظفتها للتو تنظيفًا شاملًا طوال ساعتين، تحت النظرة المنتقدة للآنسة العجوز. كانت الساعة الرابعة صباحًا من شهر ديسمبر/ كانون الأول، وكان الجو صقيعيًا منذ يومين، فلم يستطع معطفها أن يقيها من البرد الذي ربما عبر جسدها النحيف واخترقه.

كانت مصنوعة من قماش رهيف من الصوف والقطن، لكن البلى أحالها إلى مجرد مظهر عابر. يمر من خلاله نسيم الشتاء مثل سياج من الأسلاك. ربما اخترقَ جيرمان نفسها التي بدت كأنها لا تمتلك إلا قليلًا من السمك أو الواقع أكثر من معطفها. لقد كانت طيفًا ضعيفًا، بوجه ضيق صغير مشحون بالهموم، أحد تلك الكائنات التي يشبه بؤسها ومحوها رحمة القدر، كأنها لا تستطيع العيش إلا على فتات ممّا تمنحه الحياة. في الشارع، لا يعيرها الرجال انتباهًا، ونادرًا ما كانت تنتبه لها النساء. لا يتذكر التجار اسمها، الوحيدون الذين يعرفونها هم الأشخاص الذين يشغلونها.

سارعت جيرمان إلى شارع لامارك. وعند وصولها إلى زاوية شارع مون سينيس، التقت بعض تلاميذ المدارس الذين يركضون على المنحدر.

لكن النزهة لم تكن إلا في بدايتها. أمام المدرسة، وعلى حافة الدرج الحجري الكبير الذي يصعد إلى تل مونمارتر شكل الأطفال المحررين مجموعة صاخبة ومكتظة. احتلت جيرمان مكانها في زاوية شارع بول فيفال وبحثت حولها عن أنطوان. في غضون دقائق، تفرق تلاميذ المدارس واحتشدوا في الشوارع. كانت قلقة لأنها لم تلمح ابنها.

وسرعان ما بقي أمام المدرسة مجموعة من نصف دزينة من الأطفال يتحدثون عن الرياضة. اضطروا إلى الذهاب في اتجاهات مختلفة، وأخروا لحظة الفراق. اقتربت منهم جيرمان وسألتهم إن كانوا يعرفون أنطوان بوج وإن كانوا قد رأوه. قال الأصغر الذي كان في مثل عمره وهو يخلع قبعته:

- هل تسألين عن بوج؟ نعم أنا أعرفه. رأيته يذهب، لكني أعرف أنه ذهب أوّلًا مع

فريولا.

مكثت جيرمان دقيقة أخرى، وبخيبة أمل عادت أدراجها.

في تلك الأثناء، كان أنطوان يشاهد من الجانب الآخر من شارع بول فيفال والدته وهي تنتظر. أحس بانقباض قلبه وشعر بالذنب. من الأفضل أن يندس وسط المجموعة ليختبئ عنها. سأل نفسه بصوت عالٍ إن كان عليه أن يلحق بها.

أجابه فريولا باقتضاب:

- افعل ما تريد. نحن دائمًا أحرار في أن تخوننا شجاعتنا. لن تكون جزءًا من العصابة بعد الآن. هذا كل شيء.

بدا أنطوان مهزومًا. لا يريد أن يكون جبانًا. من جهة أخرى، كان حريصًا جدًا على أن يكون جزءًا من العصابة رغم عدم تحمله سلطة القائد في بعض الأحيان. كان فريولا شخصًا رائعًا. ليس أطول من أنطوان، لكنه ممتلئ الجسم وحيوي ولا يخشى شيئًا. ذات مرة وبخ رجلًا.

لقد رآهما نودين وروجيه. لكن، لا أهمية للأمر.

كانت العصابة التي تكوّنت في الوقت الحالي من خمسة تلاميذ تنتظر مشاركًا سادسًا، هو هوشمين الذي كان يعيش في منزل في الشارع حيث وضع محفظته المدرسية ومحافظ رفاقه.

عاد هوشمين للانضمام إلى الفرقة التي أصبحت كاملة. تماطل أنطوان حزينًا، وأطال النظر إلى المدرسة وهو يفكر في عودة أمه إلى الشقة في شارع باتشيليت.

كان فريولا فطنًا، خمن تردده، فكلفه بمهمة دقيقة.

- أنت ستذهب للاستكشاف. وسنرى ما يمكنك فعله. كن حذرًا، إنه أمر خطِر.

مشحونًا بالفخر، سار أنطوان إلى شارع «سول أوغالوب» وتوقف عند أول مفترق طرق. بدأ النهار يتلاشى، وصار المارة نادرين، في المجموع امرأتان عجوزان وكلب ضال. في طريق العودة، قدم أنطوان تقريرًا عن مهمته بصوت رصين.

لم أهاجم. لكن، في شارع سان فانسان شيء مريب.

قال فريولا:

- أعرف ما هو عليه، لكنني اتخذت احتياطاتي. والآن سننطلق. الكل خلفي في صف واحد لمحاداة الجدران. ولا يخرج أي شخص عن الخط دون أمري حتى لو تعرضت للهجوم.

بدا برانكوان الشاب الأشقر الصغير جدًا الذي كان يخوض رحلته الاستكشافية الأولى متأثرًا جدًا، وأراد أن يكتشف من أنطوان الخطر الذي سيعرضون أنفسهم له.

استدعاه فريولا بحدة ليأمره أن يأخذ مكانه في الصف دون أن ينبس بكلمة. نفذ صعود شارع صول دون وقوع حوادث. في عدة مناسبات، أمر فريولا رجاله بالانبطاح على الرصيف المتجمد دون تحديد طبيعة الخطر الذي ينتظرهم. ظلّ هو نفسه ثابتًا بلا خوف مثل قبطان أسطوري، واقفًا يراقب المحيط ويداه على منظار فوق عينيه. لم يجرؤ أحد على قول أي شيء، لكنهم وجدوا أنه يوحي بكثير من المصداقية. في أثناء مروره، أطلق مقلاعه مرتين في شارع كورتو، لكنه رجح أنه ليس من الضروري أن يشرح سبب ذلك لرفاقه. توقفت العصابة عند مفترق طرق نورفين واعتقد أنطوان أن بإمكانه الاستفادة من التوقف ليسأل عمّ حدث في شارع كورتو.

أجاب فريولا باقتضاب:

- لدي أشياء أخرى لأفعلها غير الدردشة. أنا مسؤول عن الحملة. وأضاف: بارانكوان، استكشف حتى شارع غابرييل. بسرعة.

كاد الليل يرخي ظلامه. متوجسًا انطلق برانكوان الصغير راكضًا. وفي أثناء انتظاره، أخذ القائد ورقة من جيبه وفحصها بملامح عابسة.

قال لهوشمين وروجيه اللذين كانا يتحدثان بصوت عالٍ: «اصمتا، يا إلهي. ألا تريان أنني أفكر بعمق؟

وسرعان ما سمعوا تصفيق برانكوان وهو يعود بوتيرة هائلة، وأعلن ببراءة كل شيء، أنه خلال استطلاعه لم ير شيئًا مريبًا. صدم فريولا بهذا الانتهاك لقواعد اللعبة، الذي كشف عن غياب الحس الملحمي، فاصطحب فريولا رفاقه ليعاينوا بأنفسهم. وقال:

- لقد اعتدت الأمر، لكن هذا النوع من الأغبياء، مثل هذا، لم أصادفه يومًا.

فهم الرفاق اللوم تمامًا ووجدوه مبررًا، لكن كان لديهم ما يبرر غضبهم من فريولا، ومع ذلك لم يند عنهم أي موقف.

بعد صمت، قال أنطوان:

- ما دام أنه لم ير شيئًا، فقد قال ذلك. لا أفهم لماذا سنعاتبه؟

وافق هوشمين وروجيه ونودين بصوت عالٍ، فأصبح القائد مضطربًا بعض الشيء، وقال:

- إذن ماذا، إذا كنا نهتم بما هو حقيقي فلا يوجد شيء يمكننا فعله.

وافق أنطوان مقتنعًا بأنه كان على حق، فوبخ نفسه لكونه مس سلطة القائد. خاصة أنه كان خجلًا لأنه نصب نفسه مدافعًا عن الفطرة السليمة ضد التخيلات النبيلة التي بدت أنها تشكل أسس البطولة ذاتها. لقد أراد أن يكفر عن زلته، لكن عقب الكلمات الأولى التي قالها هاجمه فريولا على الفور:

- اخرس. بدلًا من أن تأتي لتزرع الفوضى في الفرقة كان من الأفضل لك العودة عند أمك. بسببك تأخرنا ربع ساعة بالفعل.

أجاب أنطوان:

- هذا جيد، لا أريد أن أعطلك. لم أعد عضوًا في الفرقة.

وابتعد في اتجاه شارع غابرييل برفقة برانكوان. تردد الآخرون. قرر نودين وهوشمين اللحاق بالمنشقين، ولكن من مسافة بعيدة. أراد روجيه أن ينضم إليهم لكنه لم يجرؤ على الانفصال عن القائد علانية فابتعد قليلًا كأنه ينتظره. فصرخ

فريولا أخيرًا:

- حفنة من الديوثيين، دبروا أموركم بأنفسكم! أنا أسلمك استقالتي! لكنكم ستندمون على تركي!

تحركت العصابة، المكونة من أربعة أجزاء موزعة على مئة متر، نحو هدف الرحلة الاستكشافية التي كانت في مقطع من شارع الإليزي دي بو زار بين منعطفين. كان الزقاق مظلمًا ووعرًا ومهجورًا مثل مرتفع مونمارتر.

عندما أوشكوا أن يصلوا، سار أنطوان وبرانكوان ببطء أكثر، وتجمعت العصابة مثل آلة الأكورديون. في المكان الذي تشكل فيه المنعطف الأول، قطع الشارع عبر خندق عميق، وضع بجانبه ضوءًا أحمر للتحذير. كان العمل قد أنجز في اليومين الماضيين لأنه لم يكن للأشغال أثر قبل يومين، خلال الرحلة الاستكشافية الأولى، كان يمثل عنصر الرعب الذي مكّن العصابة من الاستفادة منه؛ ما جعلهم يندمون على خلعه. كان عليهم أن يعبروا فوق لوح ضيق، بين حبلين كانا بمثابة درابزين للحيلولة دون السقوط.

على الرغم من رغبته في الانحناء فوق الحفرة لم يتوقف أنطوان خوفًا من الاشتباه في رغبته في أن ينتظر الآخرين.

وجد تلاميذ المدارس الستة أنفسهم على بعد خطوات قليلة، أمام متجر الخرداوات. كان متجرًا ضيقًا بدا طلاؤه كأنه قد كشط، لا يحمل أي علامة مكتوبة. لكن وُضعت في المقابل عديد من اللافتات فوق معروضاته.

وكان أهم ما كتب عليها ما يأتي: «فرص للذواقة». وأخرى كتب عليها:

«المحل لا يعطي الائتمان إلا للأثرياء وحدهم». كانت كل قطعة معروضة مصحوبة بمرجع تاريخي مشكوك فيه، مرسوم على مستطيل من الورق المقوى. أشار «مكتب الملكة هورتنس الريفي» إلى طاولة مطبخ خشبية بيضاء صغيرة مكشطة بمحلول التبييض. هناك أيضًا مطحنة قهوة باري، وحامل الصابون مارات، ونعال بارث ذات مقاس كبير، وقبعة فليكس بور المستديرة، وأنبوب غليون الملكة بوماري، وقلم

حبر لكامبو فورميو الذي كتب به أطروحته، ومئات الأشياء الأخرى موضحة بالروح نفسها.. إلى أن نجد المغلف الجلدي لكرة القدم الذي قدم على أنه «نسخة كاذبة في ملكية البابا خوان». لم ير تلاميذ المدارس أي ضرر في هذا ولم يكن لديهم أدنى شك في أن التاجر قد جمع في متجره غنائم التاريخ المتواضعة. أدهشهم قلم حبر كامبو فورميو بشكل غامض، لكن الجاذبية التي تملكتهم حول هذه الأطروحة الشهيرة كانت غير مؤكدة.

لم تكن لتخطر على بالهم قط فكرة أن تاجرًا يمكن أن يدبر مقالب في ممارسته التجارية. كل هذه الإشارات المكتوبة بيده كانت حقيقية حتمًا.

لا يمكن إنكاره، حقيقي مثل الشيء المطبوع، ويشكل ضمانًا للأصالة. لكن لم يكن من أجل الإعجاب بالتذكارات التاريخية، نظمت العصابة استكشافاتها البعيدة. كان في منتصف الواجهة الزجاجية شيء واحد يلفت الانتباه العاطفي لتلاميذ المدارس الستة. لقد كان زوجًا من الأحذية مصحوبًا أيضًا بعلامة صغيرة نقرأ عليها هذه الكلمات البسيطة: «حذاء الفراسخ السبعة» التي تشير إليها معاهدة كامبو فورميو، ومارات، وفيليكس فور، ونابليون، ولوي فيليب، وغيرها من الشخصيات التاريخية العظيمة الممنوحة سلطة لا جدال فيها تقريبًا. ربما لم يعتقد الأطفال الستة يقينًا أنه كان يكفي أن يرتدي أحدهم هذا الحذاء ليقطع سبعة فراسخ في خطوة واحدة.

حتى أنهم اشتبهوا في أن مغامرة الإبهام الصغير ليست سوى قصة خرافية، لكنهم لم يكونوا متأكدين، فقد تعاملوا بسهولة مع شكوكهم لكي تتماشى مع الاحتمالات، ربما أيضًا من أجل ألا يعرضوا أنفسهم لرؤية الواقع وهو ينكرها، فأقروا أن قوة حذاء الفراسخ السبعة قد ضعفت أو ضاعت بمرور الوقت.

على أي حال، كانت أصالته لا شك فيها. لقد كان تاريخًا، وكان المتجر برمته موجودًا لإثبات ذلك. علاوة على ذلك، الحذاء المعروض على الواجهة كان جميلًا بشكل غريب، وفخمًا بشكل مدهش، بينما الأشياء الأخرى كلها تقريبًا بائسة وقبيحة. صنع الحذاء من الجلد الأسود اللامع، المرن والناعم، حسب مقاس طفل في سنهم، وُضع له تبطين من الداخل من فراء أبيض يفيض على الجلد حيث شكل طية ثلجية

تحيط بقفاه. كانت للحذاء أناقة وأبهة وانحناء مخيف بعض الشيء، لكن الفراء الأبيض منحه رشاقة عذبة.

وصل بوج وبرانكان أولًا، وقفا أمام الحذاء، ثم ضغطا أنفيهما على الواجهة الزجاجية، وتبادلا بضع كلمات. كانت فرحتهما لا توصف تقريبًا وتشبه حلمًا سعيدًا يستعيد فيه المرء من وقت إلى آخر وعيًا مؤلمًا قليلًا بالحياة التي تنتظرهما، مرتديين حذاء الفراسخ السبعة، يشعر أنطوان أنه يعيش مغامرة مشوشة ومتحمسة، وفكر في أمه، في العلية حيث عادت لتوها بمفردها. التقط أنفاسه لحظة الندم، ليلقي نظرة على الحياة التي كانت تنتظره، على ذلك الجانب من النافذة حيث وجد نفسه قريبًا جدًا منه في الليل وفي الشتاء، حتى أنه نفث بفمه ضبابًا صغيرًا على اللوح الزجاجي الفاصل بينهما.

بين الحين والآخر، كان الطفلان يشاهدان خلف الحذاء صورة ظلية للتاجر صاحب هذه الأعاجيب. كان الجزء الداخلي من المحل والمعروضات مضاءً بمصباح كهربائي معلق في نهاية سلك من دون غطاء، لهذا لم يسمح ضوءه الأصفر تمييز الأشياء بوضوح.

بقدر ما يمكن للمرء أن يحكم من الخارج، فقد كان التاجر رجلًا عجوزًا قصيرًا جدًا، له وجه مستدير أملس دون تجاعيد أو وضوح معالم. كان يرتدي ياقة طويلة وسترة ضيقة بأزرار محكمة تبرز منها ياقة طويلة خشنة وسروالًا قصيرًا وجوارب راكبي الدراجات مشدودة بإحكام على ساقيه المتيبستين. على الرغم من أنه كان بمفرده في متجره، كان بالإمكان أحيانًا سماع صوته الحاد الغاضب دائمًا. في بعض الأحيان، كان يسير على الأرض في حالة من الانفعال الشديد تدفعه إلى القيام بقفزات حقيقية، ولكن في كثير من الأحيان كان يجلس تحت المصباح الكهربائي أمام طائر كبير محشو بالتبن، ربما يكون مالك الحزين الذي يبدو أنه يدخل معه في محادثات ساخنة.

حتى أن برانكوان أكد أنه رأى الطائر يتحرك ويجادل الرجل العجوز في موقف تهديد. كان كل شيء ممكنًا حيث انسحب حذاء الفراسخ السبعة إلى خلوته.

وجد أفراد العصابة أنفسهم مرة أخرى، مصطفين أمام زجاج الواجهة وأعينهم شاخصة إلى الحذاء. وقف فريولا خلف الصف على بعد ثلاث خطوات، متهكمًا من رفاقه فيما كان يقهقه ويدمدم في خاطره.

- يمكنهم النظر إلى الحذاء حتى صباح الغد إذا أرادوا ذلك. من سيضحك، طبعًا أنا. لأن لدي خطة. لكن، لا قائد ولا خطة ولا شيء.

لكن أنطوان وثورته التي أدت إلى كل حالات الفرار، لا يمكن أن يشك في أنه كان مستهدفًا بشكل خاص بهذه الكلمات. بالنسبة إليه بدا الجهل والصمت حكمة لكنهما غير كافيين. كان يود أن يفعل شيئًا عظيمًا وبطوليًا من شأنه أن يجعله يستحق قبل كل شيء ارتداء حذاء الفراسخ السبعة. في الصف، بدا أنهم ينتظرون الرد الذي كان يفكر فيه. نظر إليه روجيه وبرانكوان نظرة رجاء. كان قلبه ينبض نبضات قوية لكن عزمه بدأ يتضاعف بالتدريج. أخيرًا خرج من الصف، وتجاوز فريولا دون أن ينظر إليه، وتوجه إلى باب المحل. كانوا يشاهدونه بإعجاب. حطم زجاج الباب في مكانين، وقد حجبته سجادة بجانب السرير معلقة بالداخل وكتب عليها: «بساط لص بغداد».

كان أنطوان في منتهى الانفعال وهو يضغط على مقبض الباب ويدفعه بوجل. ما رآه وسمعه من خلال الصدع استوقفه على العتبة. في منتصف المحل، يداه على وركيه وعيناه تتألقان، وقف التاجر في مواجهة الطائر المحشو وتحدث إليه بصوت فتاة صغيرة غاضبة. سمعه أنطوان يصرخ:

- ولكن على الأقل تحلَّ بالصراحة في آرائك! في النهاية، لقد سئمت من طريقتك في التلميح دائمًا! بالإضافة إلى ذلك، لا أقبل الأسباب التي ذكرتها للتو. أرني مستنداتك، أرني دليلك. عجبًا!

- سيدي، هل غضبت مرة أخرى؟ المعذرة.

وضع الرجل العجوز نفسه في وضع يسمح له بالاستماع في صمت متعجرف. لقد دفن بين كتفيه رأسه الصغير المستدير والناعم مثل التفاحة، فبدا كأنه يلتف داخل

ياقته الطويلة الخشنة التي تكاد تغطي أذنيه، وكان ينظر إلى الطائر بين الحين والآخر، ويزم نفسه بصفات ساخرة ومهينة. فجأة، قفز على الحيوان ووضع قبضته على منقاره، وبدأ يبكي:

- أنا أدافع عنك! يا له من عار! أنت تشتم الملكة. لا أريد أن أعرف أي شيء عن إيزابيل البافارية، هل تسمعني؟ لا شيء!

حينها بدأ يدور حول الطائر المحشو ويؤدي حركات غاضبة ومتحدثًا بصوت خفيض. خلال هذه الدورة رأى وهو يرفع عينيه ظلّ أنطوان عند مدخل الباب الموارب. وبعد أن تفحصه بحذر، تقدم نحوه بخطوات سريعة، رأسه مائل إلى الأمام والكتفان منحنيتان كما لو كان يأمل أن يفاجئه. لكن أنطوان أغلق الباب وأطلق إشارة تحذير إلى رفاقه بصوت جزع ترك تأثيرًا مرعبًا في أنفسهم. فتبعته العصابة التي بدت كأنها تعيد تشكيل نفسها تحت سلطته، وتوقفت متلهفة لاستجوابه على مسافة عشر خطوات أو خمس عشرة خطوة من المتجر. وبعد أن شرع فريولا بحركة تراجع، تمالك نفسه وظل وحيدًا أمام حذاء الفراسخ السبعة.

دفع البائع جانبًا زاوية من البساط بجانب السرير وقرّب أنفه من زجاج الواجهة لمراقبة الشارع، حذرًا خصوصًا من مجموعة أنطوان. نظر إليه تلاميذ المدرسة خفية وتحدثوا بأصوات خافتة. أخيرًا، أسقط بساط السرير واختفى. التفت فريولا -الذي بدا متماسكًا- بجرأة ومكث تحت ضوء واجهة المحل في أثناء مراقبة صاحبه، نظر إلى المجموعة التي ربما كانت تتظاهر بأنها عصابة حقيقية وقال بازدراء:

- لا داعي، لست مستعدًا لإنقاذكم، فهو لن يلتهمكم. لكن عندما لا يوجد قائد، فإن الأمور تكون هكذا دائمًا. هناك من يدعون أنهم أذكياء، ويبدون كأنهم عازمون على الدخول، لكن في اللحظة الأخيرة، يرتعبون. في غضون ذلك، أنا هنا أستمتع بتصرفات الجبناء.

- لا أحد يمنعك من الدخول، لاحظ هوشمين. إذا كنت أذكى من الآخرين، فهيا.. بيّن لنا قدرتك.

قال فريولا:

- حسنًا سأفعل وبمنتهى الإتقان.

توجه نحو الباب، ودون تردد دفعه دفعة مفاجئة فانفتح على مصراعيه تقريبًا. ولكن، عندما تجاوز العتبة ارتد صارخًا صيحة مرعبة. لقد وجد نفسه أمام طائر أكبر منه مختبئًا خلف الباب، قفز للتو لمقابلته، فتناهت إلى سمعهم صرخة غريبة كأنها صادرة من كائن غير بشري. انطلقت العصابة مندفعة أولًا ثم بدأ فريولا يجري بأقصى سرعة دون أن يأخذ الوقت الكافي للنظر إلى الوراء. أمسك الطائر بين ذراعيه، وتقدم الرجل العجوز فوق عتبة الباب، وبعد أن أطلق صرخة أخرى عجلت بهروب التلاميذ، عاد إلى المتجر.

اندفع فريولا مثل قذيفة، وانضم إلى العصابة عند منعطف الشارع.

لم يفكر أحد في الخندق الذي عبروه فوق لوح خشبي قبل ربع ساعة. كان على بعد ثلاثة أمتار فقط من المنعطف. لمحه روجيه عندما كان على حافة الهاوية فأراد أن يتوقف، لكنه لم يستطع مقاومة الدَّفعة التالية، ووصل فريولا بزخم فدفع إلى الحفرة أولئك الذين لا يزالون يحاولون استعادة توازنهم، فأسقطهم كلهم وهو معهم. كان عمق الخندق مترين تقريبًا وكانت الأرض المتجمدة صلبة كالصخر.

أشعلت جيرمان المقلاة، ولتوفير المال كانت تُبقيها على نار صغيرة مشتعلة منتظرة عودة أنطوان. كانت الغرفة صغيرة ولكن يصعب تسخينها بسبب انكشافها. رُكبت نافذة العلية بشكل سيئ لهذا سمحت بدخول كمية هائلة من الهواء البارد. عندما تهب الرياح من الشمال، يمكن أن يُسمع شخيرها بين السقف والحاجز المنحدر المصنوع من شريط ملفوف بطبقة رقيقة من الجص. جالسة على أحد السريرين الحديديين الصغيرين، بينهما طاولة حديقة وكرسي خشبي ومقلاة من الحديد الصلب وعدد قليل من صناديق الصابون، كانت هذه الأشياء تشكل أثاثها كله، كانت جيرمان بوج تحدق بجسد وعقل بلا حراك إلى لهب مصباح الكيروسين الذي علقته منذ قليل.

عندما رأت أن الساعة تجاوزت السادسة والنصف شعرت بالخوف. لم يتأخر أنطوان قط عندما تكون في انتظاره، خلال الظهيرة أخبرته أنها لن تعود إلى المنزل إلا بعد الساعة الخامسة. خرجت عدة مرات إلى صحن الدرج على أمل أن تسمع صوت خطواته، فيتبدد قلق انتظارها. لكن صبرها نفد فتركت الباب مواربًا، ولكنها سمعت من خلال النافذة أن أحدًا ينادي اسمها. من خلف الفناء الضيق، كان صوت البواب يرتفع كما لو عبر المدخنة، صاح البواب:

- يا بوج!

كان يناديها أحيانًا حينما تأتي سيدة لتطلب من جيرمان القيام بأشغالها المنزلية، لكن ينتابها التردد من تسلق سبعة طوابق وتتخوف من أن تحشر نفسها داخل كوخ.

في حجرة البواب، كان هناك شرطي ينتظرها، وجدته منهمكًا في حديث إلى البواب. لكن عندما نظرت إليه أدركت أن الأمر يتعلق بأنطوان، فتشنج جسدها كله من شدة الخوف. استقبل دخولها بتعاطف صامت.

فقال الشرطي:

- هل أنت والدة أنطوان بوج؟ لقد تعرض ابنك لحادث منذ قليل. لا أعتقد أن الأذى جسيم. لقد سقط مع أطفال آخرين في خندق شبكة القنوات. لا أعرف إن كانت عميقة، لكن مع هذا الطقس البارد، ستكون الأرض صلبة. لقد أصيبوا بجراح، وقد حملنا ابنك إلى مستشفى بريتونو. ربما يمكنك محاولة رؤيته هذه الليلة.

في الشارع، بعد أن أزالت المحفظة والمنديل الذي نفخ أحد الجيوب، خلعت جيرمان مئزرتها ووضعتها في لفافة تحت ذراعها. كانت ردة فعلها الأولى أن تستقل سيارة أجرة، لكنها فكرت أن من الأفضل أن تستخدم الأموال المخصصة للأجرة من أجل أنطوان. فذهبت إليه سيرًا على الأقدام، ولم تشعر لا بالبرد ولا بالتعب. لم يكن ألمها مصحوبًا بأي تمرد. كانت تفكر في أنطوان، وفي حياتهما في العلية، بدا لها - عندما أحصت سنوات السعادة تلك- أنها كانت مذنبة بالهروب من مصيرها الحقيقي. لقد حان الوقت للمساءلة لأن الكارثة ستعيد كل شيء إلى نصابه.

قالت في خاطرها:

- كان يجب أن يحدث ذلك، كنت في منتهى السعادة.

في المستشفى، دخلت إلى غرفة الانتظار حيث جلست أربع نساء وثلاثة رجال يتحدثون محادثة ساخنة.

عند سماعها الكلمات الأولى، أدركت جيرمان أنها برفقة آباء الأطفال الآخرين. تعرفت إلى السيدة فريولا، وهي امرأة قصيرة سمراء صارمة الوجه تدير متجرًا لبيع المواد الغذائية في شارع رامي حيث كانت تشتري منه بعض السلع من حين إلى آخر. شعرت برغبة عابرة في الاختلاط بالمجموعة ومعرفة ملابسات الحادث، لكن لا أحد انتبه لوصولها، باستثناء السيدة فريولا التي كانت تحدق بنفور إلى هذه المرأة دون معطف ودون رجل، ما دامت لا تضع خاتم زواج.

جلست جيرمان جانبًا واستمعت إلى المحادثة التي لم تزودها بأي شيء. ليس هؤلاء الأشخاص أكثر دراية منها.

سأل والد نودان الشاب الذي كان يرتدي الزي الأزرق لمحصلي مترو أنفاق:

- كيف كان يمكن أن يحدث ذلك؟

قالت السيدة فريولا:

- كان زوجي أول من سمع النبأ.

رافعة صوتها لتسمع جيرمان أنها ليست وحيدة في الحياة.

أراد أن يأخذ السيارة من المرأب، لكنني قلت له: «اتركها، أنا سأذهب بسيارة أجرة» لأنه يجب أن يمكث في المتجر.

وحكى كل واحد منهم كيف تلقى خبر الحادث. كانت بضع دقائق من الانتباه كافية لجيرمان لتعرف أسماء الآباء والأمهات الذين كانوا ينتظرون هناك. كل هذه الأسماء التي طالما سمعت أنطوان يتحدث عنها كانت مألوفة لديها. كانت تنظر بإعجاب واحترام إلى آل النودان وآل الهوشيمين وآل الروجيه، الذين يحملون التلاميذ

أسماءهم.

بدت كأنها من أبناء عمومتهم على الرغم من أنها ظلت على دراية بالمسافة بينها وبين هؤلاء الأشخاص المتزوجين الذين لديهم وظائف وأقارب وشقة. استمروا في تجاهلها، لكن بغض النظر عن الاستياء منهم، فقد كانت ممتنة لهم على هذا التحفظ. وحدها السيدة فريولا من أخافتها قليلًا، وشعرت أحيانًا بنظرتها العدائية لشخصها الضعيف. لقد أدركت بشكل غامض أسباب هذا العداء، ولو أن القلق ترك روحها أكثر حرية، فلن تجد صعوبة في فهمها. لقد علمتها الخبرة الطويلة أن بعض السيدات ذوات المكانة المتفوقة، مثل السيدة فريولا، لا يرغبن كثيرًا في أن يجدن أنفسهن في موقف يضعهن على قدم المساواة مع الفقراء. كانت بقالة شارع رامي تعاني إحساسًا جماليًا بالبنية الاجتماعية. من الواضح جدًا أن هذا التضامن مع مخلوق قد خلق شكًا سامًا في قلبها. على الرغم من أنها كانت سيدة أعمال ولديها سيارة، فهي ما زالت تؤمن بعفة الأنواع! ومع ذلك، بادرت إلى سؤالها:

- «وأنت يا سيدتي، أتيت دون شك من أجل هذا الحادث المؤسف؟»

- نعم سيدتي. أنا أم بوج الصغير. أنطوان بوج.

- آه! ها! أنطوان بوج، تمامًا. سمعت عنه. يبدو أن الشيطان يلبس جسده، هذا الصغير. لا بد أنك سمعت عنه أيضًا يا سيدة نودان؟

- نعم، كلمني روبر عنه.

- آه! كنت أقول ذلك، كما ترين، حدثوك عنه أيضًا. إنه طفل مشيطن.

- لا، لا، لا، أؤكد لك، أنطوان عاقل جدًا، قالت جيرمان محتجة لكن السيدة فريولا لم تسمح لها بالتحدث.

- قد لا تكون الخلفية سيئة، ولكن مثل كثيرين آخرين، إنه يفتقر إلى الانضباط.

قال موظف المترو:

- الأطفال، يجب أن يجدوا من يضبطهم.

Telegram:@mbooks90

شعر الآباء بالارتياح لكونهم عثروا على شخص يلقون اللوم عليه والحصول على تفسير للحادث، وتبادل الآباء الأفكار بصوت عالٍ حول تعليم الأطفال. وبينما ظلوا في العموميات، استهدفوا بوضوح قضية جيرمان بوج. شعر كل من الأزواج، بسبب معاناتهم، بكنوز من التساهل تجاه الابن الذي جعل من الشقاء قناع البراءة، ولم يشك أحد في أن أنطوان قد دفع برفاقه إلى التهلكة.

قالت السيدة فريولا مخاطبة جيرمان:

- أنا لا ألومك على أي شيء، ليس من أخلاقي أن أوبخك في مثل هذه الظروف، لكن على أي حال الحقيقة هي الحقيقة. يجب أن نعترف أنك لو راقبت هذا الطفل بشكل أفضل، فلن نكون هنا اليوم. الآن بعد أن حدث الضرر، أتمنى شيئًا واحدًا فقط، أن تكون هذه المغامرة بمثابة درس لك يا ابنتي.

بعد أن أشهدت عليها الحاضرين وتكلمت باسمهم، رحبت الأمهات الأخريات بهذا الثناء بهمسات تقدير. اعتادت جيرمان بحكم وظيفتها هذا النوع من التحذير دون اعتراض لأنها شعرت بالحرج من كل هذه النظرات الموجهة إليها، لم تدرِ ما تفعله سوى أن تخفض رأسها. وفجأة، دخلت ممرضة وقالت:

- لا تقلقوا، لا شيء خطِر. لقد رآهم الطبيب للتو. لم يجد سوى أقدام وأذرع مكسورة وخدوشًا طفيفة. في غضون أسابيع قليلة سيعود كل شيء إلى طبيعته. بما أن الصدمة كانت بالقسوة نفسها، فقد ارتطموا بالأرض قليلًا، ومن الأفضل ألا ترونهم هذا المساء. لكن غدًا لن يكون هناك أي إزعاج. تعالوا في الواحدة.

وضع الأطفال الخمسة في غرفة مربعة صغيرة مع ثلاثة مصابين آخرين من أعمارهم نفسها تقريبًا، الذين قضوا أسبوعهم الثالث في المستشفى.

كان أنطوان على سرير بين فريولا وهوشمين، في مواجهة روجيه ونودين اللذين كان سريراهما قريبين بعضهما من بعض. كانت الليلة الأولى مضطربة، وكان اليوم الأول مؤلمًا بالقدر نفسه. ما زالوا يعانون الألم والحمى، ولم يتحدثوا إلا بصعوبة ولم يبدوا أي اهتمام يُذكر بما يجري في الغرفة. باستثناء أنطوان، فقد تلقوا الزيارة

الأولى من والديهم دون كثير من المتعة أو العاطفة.

كان أنطوان يفكر في الأمر منذ أمس. كان يخاف على أمه من ضيق وقلق تلك الليلة في العلية الباردة وكل الليالي القادمة. عندما دخلت الغرفة، خاف أن يرى وجهها المنهك بالأرق. لقد أدركت قلقه، وكانت كلماتها الأولى محاولة منها لطمأنته.

في السرير المجاور إلى اليسار، أجاب هوشمين -بين أنيني والديه- بصوت حزين لا يشجع على الأسئلة. إلى اليمين، كان فريولا غاضبًا من والدته، الذي بدا له تملقها أمرًا سخيفًا. كانت تناديه: «ملاكي الصغير الرائع» و«طفل أمه الصغير». كان الأمر جيدًا، أمام الأصدقاء الذين سمعوا كلامها. طلبت الممرضة خلال الزيارة الأولى ألا تكون مدتها طويلة جدًا. لم يمكث الآباء أكثر من ربع ساعة. في هذا السياق الجديد، تخلص أطفالهم فجأة من وصايتهم، وبسبب حادثتهم لا يزال الفزع يلازمهم، لهذا كانت المحادثات صعبة تقريبًا. لكن جيرمان بوج التي لم تشعر بهذا الإحراج أمام سرير أنطوان لم تجرؤ على البقاء، فغادرت مع الآخرين.

كان الصغير برانكوان الوحيد بين العصابة من خرج سالمًا من السقوط في قاع الحفرة، بعد وقت قصير من مغادرة الوالدين، وكانت زيارته مريحة إلى حد ما. وأعرب عن أسفه بصدق لأن القدر كان رحيمًا معه.

- لقد كنت محظوظًا لأنك كسرت شيئًا ما. الليلة الماضية، كنت أتمنى أن أكون في مكانك. ماذا أخذت عندما وصلت إلى المنزل.

لقد عاد والدي بالفعل. ذهب ليرتدي حذاءه مرة أخرى ليركلني به على مؤخرتي. ماذا سمعت؟ طوال المساء، قال إنه سينتهي بي المطاف في السجن.

وعند الظهيرة، بدأ مرة أخرى. بالتأكيد سيواصل هذه الليلة. أبي لديه دائمًا ما يكفي من التأنيب طوال أسبوع.

قال روجيه:

- هذا ما يحدث في منزلي. إذا كان من سوء حظي أن أعود بلا شيء، سأشبع من أصناف التقريع.

لولا المعاناة لكان الجميع سعداء لوجودهم في المستشفى. أنطوان لم يتذكر أن والدته وبخته، كان الوحيد الذي لم يستطع مواساة نفسه بهذا النوع من المصادفة. فريولا نفسه الذي كان يعتقد أن والديه يسرفان في دلعه اعتبر -مع ذلك- أنه كان سيخاطر كثيرًا بالعودة إلى المنزل، كذلك برانكوان، رغم أن معطفه كان ممزقًا من الأعلى إلى الأسفل لم يصب بأدنى خدش.

الأيام التالية كانت أكثر حيوية، فقد غدت الالتواءات المفصلية والانخلاعات أقل إيلامًا بكثير، ولم تكن الأطراف المجبسة مصدر قلق. لم يسمح الجمود بأي استجمام غير القراءة والحديث. قيل الكثير عن الرحلة، وكان الجميع متحمسين لاستعادة مغامراتها. كانت هناك مشاجنات محتدمة لم تستطع أصوات الممرضات تهدئتها.

استخلص فريولا عبرة من الأحداث، حيث أشاد بمبادئ النظام والسلطة وأكد أنه لم يكن ليحدث شيء لو احتفظت العصابة بقائدها.

اعترض الآخرون:

- لم يكن ذلك ليجنبك الرعب.

لاحظ فريولا:

- كنت أنا آخر من هرب. لقد كنت مضطرًا أيها الجبناء لأنكم تركتموني وحدي.

كانت المناقشات مشحونة ومحتدمة ولولا عجزهم عن الحركة لخاطروا بلكم وتهديد بعضهم بعضًا.

تصالحوا بالحديث عن حذاء الفراسخ السبعة. كانوا خائفين أن يجد التاجر مشتريًا له. وكانت زيارات برانكوان منتظرة بفارغ الصبر يحفها الخوف من أن يأتي بأخبار سيئة. لقد أدرك ذلك، ولهذا بمجرد دخوله كان يطمئن على رفاقه، قائلًا لهم إن الحذاء لا يزال في الواجهة، ويومًا بعد يوم يزداد جمالًا ولمعانًا ونعومة وكذلك فرو عنقه الأبيض. في فترة الزوال وعند الغسق وقبل أن تضاء المصابيح، لم يكن من الصعب أن يقتنع المرء بأن الحذاء ما زال يحافظ على قوته الأساسية، فانتهى بهم

الأمر إلى الإيمان بها تقريبًا دون خلفيات مسبقة. إلى جانب ذلك، لم يكن هناك ما هو أكثر إمتاعًا ولا أكثر راحة من التفكير في هذه الخطوات الخارقة للفراسخ السبعة.

كان الجميع يحلم بصوت عالٍ بطريقة استخدام الحذاء. وبات فريولا سعيدًا بفكرة أنه سيحطم الأرقام القياسية العالمية كلها. بينما كان روجيه -عمومًا- أكثر تواضعًا، بحيث إذا أرسلوه ليحضر ربع كيلوغرام من الزبدة أو لترًا من الحليب، فسيذهب ويشتريها من قرية في النورماندي حيث سيشتريها بسعر أرخص ويضع الفرق في جيبه. أما الآخرون فقد وافقوا جميعًا على الذهاب وقضاء فترة ما بعد ظهيرة يوم الخميس في إفريقيا أو جزر الهند لشن حرب ضد المتوحشين وصيد الوحوش الكبيرة. لم يكن أنطوان أقل إغراءً من رفاقه بهذه الحملات. لكن الأحلام الأخرى التي أبقاها سرًا كانت بالنسبة إليه أكثر عذوبة. لن تقلق أمه أبدًا بشأن الطعام مرة أخرى، لأنه خلال الأيام التي يكون فيها المال شحيحًا في المنزل، فإنه سيرتدي حذاءه الذي يقطع سبعة فراسخ في رمشة عين وبخطوة واحدة.

وفي غضون عشر دقائق سيكمل جولته في فرنسا. سيأخذ من مجزرة ليون قطعة من اللحم، ومن مرسيليا رغيفًا، ومن بوردو خضراوات، ولتر حليب من نانت. وربع كيلوغرام قهوة من شيربورغ. وسمح لنفسه بأن يفكر في إمكانية الحصول من أجل والدته على معطف جيد أيضًا لتدفئتها. وربما حذاء، لأنها لا تملك إلا واحدًا باليًا. وفي نهاية الشهر، إذا لم تجد أمه مئة وستين فرنكًا لسداد الإيجار فيتعين عليه توفيرها.

الأمر سيكون في منتهى السهولة. تدخل إلى متجر في ليل كاركاسون، متجر فخم حيث لا يأتي إليه الزبائن محملين بأموال معاملتهم في أيديهم. عندما تتلقى سيدة باقي نقودها فوق المنضدة، تنتشل الأوراق النقدية من يديها، وقبل أن يتاح لها الوقت لتغضب، نعود بالفعل إلى مونمارتر. إن الاستيلاء على ممتلكات الآخرين بهذه الطريقة أمر محرج جدًا، حتى ولو تخيله وهو مُضْطَجِعٌ على فِراشِه. لكن الشعور بالجوع أمر محرج أيضًا. وعندما لا يكون لديك ما يكفي لدفع إيجار عليّتك وعليك أن تخبر بوابك وتقطع وعودًا للمالك، فإنك ستشعر بالخجل كما لو كنت قد سرقت ممتلكات الغير.

جلبت جيرمان بوج لابنها برتقالًا وحلويات وصحفًا مصورة لا تقل عما جلبه الآباء الآخرون إلى أطفالهم. ومع ذلك، لم يشعر أنطوان قط بالفقر كما هو الحال في المستشفى، يعود ذلك إلى الزيارات التي كان يتلقاها رفاقه. إذ بدت له الحياة عند سماع الوالدين يتحدثان بجانب سرير المرضى الآخرين مليئة بالثراء الوافر الذي لا يمكن تصديق وجوده تقريبًا. لطالما استحضرت كلماتهم حياة معقدة مزدحمة بالإخوة والأخوات والكلاب والقطط والكناري، ممتدة إلى الجيران القريبين والبعيدين في زوايا الحي الأربع، وفي الزوايا الأربع لباريس وفي الضواحي وفي المقاطعات. وحتى في الخارج. وكان الأمر يتعلق بعم يدعى إميل، وعمة تسمى فالنتين، وأبناء عمومة من منطقة أرجونتوي، ورسالة من كليرمون فيران أو من بلجيكا.

كان هوشمين -على سبيل المثال- الذي لم يكن يبدو عليه ذلك في المدرسة، ابن عم طيار، وكان له عم يعمل في ترسانة تولون. في بعض الأحيان يُعلن عن زيارة أحد الأقارب المقيمين في حي بورت إيطاليا أو في إيبينال. ذات يوم، وجدت عائلة مكونة من خمسة أفراد من حي كليشي نفسها متحلقة حول سرير نودان، وبقي بعضهم في المنزل.

كانت جيرمان بوج وحيدة دائمًا بجانب سرير أنطوان لا تحمل أخبارًا من أي أحد، ولا يوجد في حياتها أعمام أو أبناء عمومة أو أصدقاء.

خوفًا من افتقارهم إلى زيارة الجيران وحديثهم ومن اختفاء عزلة وحرية اليوم الأول إلى الأبد؛ تحدثت جيرمان خلال زيارتها الأخيرة عن أشغالها في المنازل، ولكن لمدة وجيزة خشيت أن يسمع كلامها فريولا أو والدته، فقد داهمها الشك أن يكون من غير اللائق وجود سرير ابن التاجر بجانب سرير ابن خادمة في المنازل.

كان أنطوان قلقًا بشأن ما تحضره أمه من طعام، فنصحها بعدم الإنفاق كثيرًا على الحلويات والصحف المصورة، لكنه خشي أيضًا أن يُسمع كلامه. يتحدثان بأصوات تكاد تكون خافتة وفي معظم الأوقات يظلان صامتين فيما ينظر بعضهما إلى بعض أو يتشتت انتباههما بسبب المحادثات الصاخبة حولهما.

بعد ظهيرة أحد الأيام، وبعد ساعات من الزيارة، ظل فريولا، الثرثار عادة، صامتًا لمدة طويلة، وبصره ثابتًا كما لو كان منبهرًا بأمر ما. سأله أنطوان عن معنى صمته، فاكتفى في البداية بالرد قائلًا:

- يا رجل، هذا مذهل.

كان يبدو مبتهجًا بشكل واضح، ومع ذلك بدا أن سعادته قد اخترقها الندم، فأوشك أن يبوح بسرّه. أخيرًا، قرر أن يبوح:

- أخبرت أمي بكل شيء. ستشتريه لي. سأحصل عليه عندما أصل إلى المنزل.

شعر أنطوان بالبرد يجمد قلبه. لم يعد الحذاء الكنز المشترك الذي يمكن للجميع الاستفادة منه دون المخاطرة بحرمان رفاقه.

قال فريولا:

- سأقرضه لك.

هز أنطوان رأسه. لقد كان غاضبًا من فريولا لأنه تحدث إلى أمه حول ما كان يجب أن يظلّ سرًا بينهم.

بعد خروجها من المستشفى، استقلت السيدة فريولا سيارة أجرة لتذهب إلى شارع إليزي دي بو زار حيث لم تجد صعوبة في التعرف على واجهة المتجر الذي وصفه لها ابنها للتو. كان الحذاء لا يزال هناك. بقيت لبضع دقائق تفحص محل الخرداوات والإحالات المكتوبة بخط اليد. كانت معرفتها بالتاريخ قليلة جدًا، ولم يدهشها مطلقًا قلم كامبو فورنيو الحبر.

لم تكن مولعة بهذا النوع من التجارة، لكن واجهة المتجر خلفت لديها انطباعًا جيدًا. كما أن لافتة منحتها ثقة خاصة، تلك التي كتب عليها: «لا نقرض سوى الأثرياء». اعتقدت أن التحذير غير لائق، لكن بدا لها أن التاجر يؤمن بمبادئ جيدة. فتحت الباب ورأت تحت المصباح الكهربائي الذي أضاء المتجر رجلًا عجوزًا نحيفًا جالسًا مقابل طائر كبير محشو، بدا كأنه يلعب الشطرنج. لم يعر دخول السيدة فريولا

اهتمامًا كبيرًا، دفع القطع على رقعة الشطرنج، وشرع يلعب أحيانًا لنفسه، وأحيانًا لرفيقه.

من وقت إلى آخر، كان يُسمع ضحكه الساخر والعدواني والراضي، ربما عندما يلعب لحسابه الخاص. صُدمت السيدة فريولا في البداية وفكرت في تنبيهه إلى وجودها، ولكن فجأة شرع الرجل العجوز ينتصب في مقعده وعيناه تتألقان، وبإصبع سبابته يهدد رأس الطائر، ثم بدأ بالصياح:

- أنت تغش! لا تكذب! لقد غششت للتو مرة أخرى. لقد حركت فارسك خلسة لتغطية ملكتك التي تعرضت لتهديد مضاعف وعلى وشك أن تؤخذ منك. عجبًا! أنت توافق رغم ذلك. يا سيدي العزيز، أنا في غاية الحبور، لكنك تعلم ما سمعته مني للتو، لذا فأنا أصادر فارسك.

أخذ قطعة من اللوح ووضعها في جيبه. بعد ذلك، نظر إلى الطائر وضحك بسعادة، حتى غدت نوبة من القهقهات. كان قد سقط مرة أخرى على كرسيه، وانحنى إلى مجموعة الشطرنج، ويداه متقاطعتان على صدره، وكتفاه ترتجفان، وبات يضحك بلا ضوضاء تقريبًا، ولا يصدر عنه من وقت إلى آخر غير صوت حاد يشبه صرخة فأر. دب الذعر قليلًا في نفس السيدة فريولا، تساءلت إن كان من الأفضل لها أن تتراجع إلى الباب. لكن العجوز عاد أخيرًا إلى جديته، وأمعن في النظر إلى ما حوله، وقال لشخصيته الغريبة:

- معذرةً، لكنك مضحك جدًا عندما تغدو هكذا. من فضلك لا تنظر إليّ، أشعر أنني سأضحك مرة أخرى. قد لا تدرك ذلك، لكنك في الحقيقة لا تقدر بثمن. هنا، لا مانع من نسيان ما حدث. سأعيد لك فارسك.

أخرج الفارس من جيبه، وبعد أن أعاده إلى مكانه، انهمك في فحص رقعة الشطرنج.

ما زالت السيدة فريولا مترددة في اتخاذ القرار. بالنظر إلى أنها دفعت ثمن سيارة أجرة لتأتي إلى هذا المتجر، فقد قررت البقاء وطفقت تسعل عدة مرات. وعقب

السعلة الثالثة، أدار التاجر رأسه ونظر إليها بفضول لا يستثنى من العتاب، ثم سألها:

- بلا شك تلعبين الشطرنج؟

أجابت السيدة فريولا منزعجة من السؤال:

- لا. لا أعرف. كنت ألعب لعبة الداما فيما مضى. كان جدي ماهرًا جدًا في لعبة الورق.

- على أي حال، أنت لا تلعبين الشطرنج. لبضع ثوانٍ فحصها كأنه يفكك لغزًا، بدا كأنه يتساءل بدهشة وذهول لماذا هذه السيدة هنا. بدت له المشكلة غير قابلة للحل وربما خالية من الاهتمام لأنه أومأ بلا مبالاة وعاد إلى إخفاقاته، فقال مخاطبًا الطائر:

- الأمر متروك لك يا سيدي.

وقفت السيدة فريولا صامتة للحظة بعد أن شعرت بالانزعاج من ترحيب ومرح هذا التاجر الفريد.

قال العجوز وهو يفرك يديه:

- عجبًا! عجبًا! تصبح اللعبة ممتعة. أشعر بالفضول كيف ستتمكن من الخروج من هذه الخطوة السيئة.

خاطرت السيدة فريولا وقال:

- أستميحك عذرًا، لكنني زبونة.

هذه المرة، بدا التاجر مدهوشًا.

- زبونة!

ظل متيقظًا للحظة، ثم التفت نحو الطائر، وقال له بصوت خافت:

- هذه زبونة!

ظل حالمًا للحظة يتأمل رقعة الشطرنج. وفجأة، أشرق وجهه.

- لكني لم أر أنك أخذت دورك للتو. هذا مثير للاهتمام أكثر فأكثر. هذا استعراض رائع لم أكن أتوقعه. تهانيّ الوضع معكوس تمامًا. هذه المرة أنا من يتعرض للتهديد.

عندما رأته السيدة فريولا منغمسًا في اللعبة مرة أخرى، شعرت بالاستياء وقالت وهي ترفع صوتها:

- ومع ذلك، لن أضيع فترة الظهيرة في انتظار سعادتك. لدي أشياء أخرى لفعلها.

- ولكن، سيدتي، ماذا تريدين؟

- جئت لمعرفة سعر زوج الحذاء المعروض على الواجهة.

قال التاجر دون أن يزيح نظره عن رقعة الشطرنج:

- ثمنه ثلاثة آلاف فرنك.

- ثلاثة آلاف فرنك! هل أنت مجنون!

- نعم سيدتي.

- مهلًا، ثلاثة آلاف فرنك لزوج من الحذاء، لكن هذا مستحيل! أنت لست جادًا. هذه المرة نهض العجوز متضايقًا وغرس نفسه أمام الزبونة:

- سيدتي، نعم أم لا، ماذا قررت؟ هل ستدفعين ثلاثة آلاف فرنك مقابل هذا الحذاء؟

صرخت السيدة فريولا بشدة:

- سحقًا! لا، بالطبع لا!

- إذن، دعينا نتوقف عن الحديث عن ذلك، ودعيني ألعب الشطرنج.

عندما علموا أنه سيحصل على أحذية الفراسخ السبعة، أعرب رفاق فريولا عن استيائهم الشديد لدرجة أنه شعر بضرورة تبرير الأمر. فقال لهم محاولًا طمأنتهم

إذا كان قد ذكر ذلك لأمه، فإنه لم يفعل ذلك عن قصد. علاوة على ذلك، فإن أمه لم تعده بأي شيء. كل ما في الأمر أنها لم تقل لا. لكنه لما تذكر الفرح الوقح الذي ارتكب حماقة السماح له بالظهور للعيان، فقد وجد صعوبة في طمأنتهم. عانى العزلة التامة خلال يوم كامل. وكان أصدقاؤه لا يردون عليه بتاتًا. ومع ذلك، فإن الحاجة إلى الأمل كانت الأقوى. فقد أقنعوا أنفسهم، بأن التهديد غير مؤكد.

وشيئًا فشيئًا أصبح الحديث عن الحذاء أقل جاذبية، وسرعان ما تلاشت الأسئلة عنه، علنًا على الأقل. ولكثرة تفكيرهم العميق في مثال فريولا، بدأ كل فرد يُمني نفسه بأن يظفر به، واضعًا خططًا للحصول عليه. بعد ظهيرة أحد الأيام، وبعد رحيل أمه، أشرق وجه هوشمين من السعادة وطوال المساء تحصن بصمت من الانبهار. في اليوم التالي، جاء دور روجيه ونودان ليعيشا الإشراقة والسعادة نفسيهما.

كان فريولا أول من غادر المستشفى، وقبل ذلك ألزمه رفاقه أن يزورهم، فأجاب:

- يا ليتكم تعلمون وسيلتي لزيارتكم!

خلال رحلته من المستشفى إلى المنزل، التي قام بها بصحبة والده، لم يطرح أسئلة، ولم يرغب بدافع الرقة في أن يفسد مفاجأة وسرور والديه. عندما عاد إلى المنزل، لم يذكّره أحد بالحذاء، لكنه لم يساوره القلق بشأنه. في الصباح، كان والداها مشغولين في محل البقالة. ولا شك أنهم احتفظا بهديته حتى وقت تناول الطعام. في غضون ذلك، ذهب للعب في فناء صغير يمكن الوصول إليه من الجزء الخلفي من المحل، صنع لنفسه طائرة مقاتلة.

كان يتوافر على أشياء مختلفة: صناديق، براميل، قنينات، علب المصبرات المخزنة في الفناء. داخل كيس فارغ، ركّب أدوات القيادة على متن الطائرة، وعلب السلمون والبازلاء، وصنع لنفسه مدفعًا آليًا من زجاجة كونياك. كان يبحر على ارتفاع ألف ومئتي متر، وكانت السماء صافية عندما لمح طائرة معادية قادمة. دون أن يفقد تركيزه للحظة ارتفع إلى ألفين وخمسمئة متر. لم يشك العدو في أي شيء فشرع يطير بهدوء، ثم انقض فريولا عليها وشغل بندقيته الآلية، ولكن بينما كان يميل إلى حافة الصندوق سقطت زجاجة الكونياك من يديه وتحطمت على الرصيف. لم يفزع

على الإطلاق، وتمتم من بين صرير أسنانه:

- الوغد! لقد أطلق النار على بندقيتي الآلية مباشرة.

كانت السيدة فريولا توجد في خلفية المحل، نبهتها الضوضاء فرأت حطام الزجاجة في منتصف بركة الكونياك.

صرخت قائلة:

- هذا يفوق الاحتمال. لم تعد إلى المنزل إلا منذ حين، وها أنت ذا تبدأ شغبك مرة أخرى. يا ليتك تبقى هادئًا مكانك. ها هي ذي زجاجة كونياك فاخرة تضيفها إلى ما تتسبب فيه من خسائر مرة أخرى. كنت أخطط للذهاب لشراء الحذاء بعد ظهيرة هذا اليوم، لكن يمكنك أن تقول له وداعًا.

- لم يعد الأمر يستحق الحديث عنه. أضف إلى ذلك، إن رغبتي في شراء الحذاء بأي ثمن تعد فكرة سخيفة.

- لديك بالفعل حذاء من المطاط لا يزال جديدًا.

غادر روجيه المستشفى بعد يومين. في المنزل، عندما قرر التحدث عن الحذاء بدت العائلة كلها مدهوشة. ومع ذلك، فقد تذكرت أمه الوعد الذي قطعته على نفسها، فقالت هامسة: «الحذاء، نعم، حقًّا». وعندما لاحظ الأب أنها متضايقة تدخل قائلًا: «الحذاء، لطيف جدًّا، لكننا سنتحدث عنه عندما تعمل بشكل أفضل في الفصل. لا يكفي كسر ساق للحصول على الحقوق كافة. حينما كنت مصابًا في المستشفى أعطتك والدتك بعض الوعود، وكان ذلك جيدًا. لكنك الآن شفيت. ها أنت ذا تتمتع بصحة جيدة. الآن المسألة المهمة أن تعوض الوقت الضائع. في نهاية العام، إذا حصلت على نتائج دراسية جيدة، ستكافأ عن عملك بأفضل مكافأة وحينها ربما يمكننا أن ننظر ونفكر مليًا. لا داعي للعجلة، أليس كذلك؟ الدراسة أولًا».

وجد نودين، العائد إلى منزله بعد يومين، خيبة الأمل نفسها، ولكن أقل التفافًا على الموضوع. بينما كان يسأل والديه، ردت أمه، التي جددت وعدها في اليوم السابق، مشتتة الانتباه: «اسأل والدك». وتمتم الأب: «عجبًا! الحذاء!» بنبرة لا مبالية كما لو

كانت زوجته قد ادعت أنها مهتمة بأسباب حرب الثلاثين عامًا.

مكث أنطوان وهوشمين اللذان كان سريراهما متجاورين في المستشفى أسبوعًا آخر بعد مغادرة نودان. عززت عزلتهما في خضم الوافدين الجدد، العلاقة الحميمية التي كانت بالنسبة إلى أنطوان في كثير من الأحيان تجربة مؤلمة جدًا.

خلال ذلك الأسبوع كان عليه مرة أخرى أن يعاني فقره كثيرًا. لم يجد في حياته ما يكفي ليعزز الثقة، كان عليه أن يستمع إلى آراء هوشمين دون أن يتمكن من الرد عليها بسوى بضع تعليقات.

ليس هناك ما هو أكثر كآبة من دور المقرب الفقير. يعلم الجميع، على سبيل المثال، أن الدراما الحقيقية في المأساة الكلاسيكية هي مأساة المقربين. لا شيء أكثر كآبة من أن تكون مقربًا فقيرًا. يعلم الجميع، على سبيل المثال، أن المأساة الحقيقية في المسرح التراجيدي الكلاسيكي يكمن في اعترافات المقربين.

إنه لأمر مؤسف أن نرى هؤلاء الأشخاص الطيبين الذين لا يحدث لهم شيء على الإطلاق، يستمعون بإذعان مهذب إلى الوغد الملتزم بمغامراته الخاصة، كان هوشمين -الذي اكتشف حلاوة أن يكون قادرًا على إزعاج أحد المقربين-مترعًا بالحديث عن الصداقة ونوادرها وأفراد أسرته. ما دفعه خصوصًا إلى التحدث عن أعمامه وخالاته هو الأمل الذي وضعه فيهم. علم من تجارب فريولا وروجيه ونودان أنه لا ينبغي للمرء أن يعتمد على وعود الآباء والأمهات، فقد أراد أن يوهم نفسه بأن الأعمام والخالات يتميزون بفضيلة أكبر.

عند سماعه، كان أقرباؤه على استعداد للتنازع من أجل أن يحظوا بشرف أن يشتروا له حذاء الفراسخ السبعة. كانت الوعود تنهال على أنطوان من الأعمام جول ومارسيل وأندري ولوسيان والخالات أنّا وروبرت أو ليوتين.

في المساء، عندما ينام الآخرون، يحدث له في كثير من الأحيان وأطول من المعتاد أن يفكر في غرابة مصيره، بحيث لا يملك عمًا أو عمة أو ابن عم في هذا العالم. ما لم يكن يتيمًا، وهو أمر ليس نادرًا جدًا، لم يكن بمقدوره أن يتخيل عائلة

أصغر من عائلته. كان الأمر حزينًا ومتعبًا. ذات يوم، فاض الكيل بأنطوان لكونه فقيرًا وصديقًا حميمًا.

بينما كان هوشمين يتحدث معه عن عمته جوستين، قاطعه وقال بطلاقة:

- لا تهمني كثيرًا عمتك جوستين وكذلك عائلتك كلها. كما ترى، أنا منشغل بالتفكير في عمي الذي سيعود من أمريكا هذه الأيام.

فتح هوشمين عينيه على مصراعيهما وصرخ:

- من أمريكا؟

- حسنًا، نعم، إنه العم فيكتور.

احمر وجه أنطوان قليلًا. لأنه لم يعتد الكذب. كانت حياته بسيطة لدرجة أنه لم يشعر بالحاجة إليه. وبعد الضغط عليه بالأسئلة، اضطر إلى دعم هذه الكذبة الأولى وتطويرها، فبدأ يشكل دون انزعاج شخصية العم فيكتور. لم يعد الأمر مجرد لعبة، كان انتقامًا من الحياة وكانت الحياة المأمولة نفسها، وفجأة صارت زاخرة وغامرة. أضحى العم فيكتور كائنًا مرموقًا ووسيمًا وشجاعًا وكريمًا وقويًا وحاصلًا على شهادته المدرسية، ويقتل شخصًا في الأسبوع ويعزف الهارمونيكا بعذوبة. بالتأكيد، كان رجلًا يعرف الخوف، وإذا لزم الأمر، يسحق عائلة لا حصر لها لتزويد ابن أخيه بالحذاء الذي يريده. ولن يمنعه السعر أيضًا. بعد أن ظل أنطوان يتقمص دور الصديق المقرب لمدة طويلة أطلق العنان الآن بحماس وطمأنينة ليحطم قلب هوشمين، فلم يترك لهذا الأخير غير بصيص من الأمل.

في صباح اليوم التالي، شعر أنطوان بتأنيب الضمير وندم لأنه استسلم لخياله الجامح في الليلة السابقة.

أضحى العم فيكتور مُحرجًا وعبئًا ثقيلًا ومتهورًا ومخيفًا أيضًا بسبب الأهمية التي صار يتمتع بها حقًا. حاول أنطوان نسيانه وتجاهله، لكن كان للعم شخصية قوية ومبتكرة فرضت نفسها فرضًا. وشيئًا فشيئًا اعتاده جيدًا، وفي الأيام التالية بات هذا الرفيق حاضرًا بقوة لدرجة أنه لم يكن بإمكانه تجنب الحديث عنه. لم يعد يضايقه

تأنيب ضميره إلا في ساعات الزيارة عندما تكون أمه برفقته. كان يود أن يقدمها إلى العم فيكتور ويثريها أيضًا بهذه العلاقة الرائعة، لكنه لم يكن يعرف كيف يتعامل معها. لم يستطع أن يطلب منها أن تكون متواطئة معه في كذبته. لقد فكر جيدًا في الشرط الطفولي:

«سيكون لدينا عم، سيكون في أمريكا، سيكون اسمه العم فيكتور». لكن أمه التي ربما كانت طفولتها أصعب من طفولته كانت منغلقة على أي لعبة من هذا النوع. من جانبها، اشتبهت جيرمان بوج في أن الأمر يتعلق بلغز، وعانى كلاهما عجزهما على التواصل.

ارتقب أنطوان وقت مغادرته المستشفى بقلق شديد. سيقول له أصدقاؤه: «حسنًا، عمك عاد من أمريكا، ولكن الحذاء ما زال في الواجهة». كان رده بأن أمرًا خطيرًا أخّر العم فيكتور عن رحلته في اللحظة الأخيرة. البطل، إذا لم يكن معك عند الحاجة فلا قيمة له، فهو مجرد كذب أو وهم. سيقول الأصدقاء: «لا نصدقك، هل عمك هذا بطل من أبطال السينما؟»

غادر أنطوان وهوشمين المستشفى في اليوم نفسه، في صباح تساقطت فيه أمطار شديدة البرودة، فشعرا بالندم على دفء العنابر. لم يغادرا معًا.

كان على أنطوان أن ينتظر أمه التي تأخرت بسبب عملها الكثير في مجزرة ليفور. كان يأمل ألا تأتي، لذلك كانت شخصية العم فيكتور رائعة بالنسبة إليه الآن. وصلت جيرمان بوج متأخرة حتى لا تسيء إلى السيد ليفور الذي أصر على أن يقلها بسيارته مسافة خمسمئة متر، لهذا انتظرته في المجزرة ما يقارب الساعة.

كان أنطوان يخطو خطواته الأولى إلى الخارج، فسار بتردد لأن ساقيه لم تتعودا المشي بعد. على الرغم من الرياح والأمطار، لم يرغب في السماح لأمه بدفع أجرة سيارة الأجرة، وانطلقا في طريقهما إلى المنزل. كانا يسيران ببطء، لكن صعود مونمارتر كان قاسيًا، والطقس داكنًا وغائمًا، فيما كان الطفل المتعب في داخله يثبط عزيمته. لم يعد يملك القوة للرد على كلمات أمه. وعندما فكر في الطوابق السبعة التي سيضطر إلى ارتقائها، بكى في أعماقه.

ولكن الأصعب من صعود الطوابق كان التوقف في حجرة البوابة. لقد سألته بالازدراء الودي الذي كثيرًا ما يشعر به الفقراء تجاه من هو أفقر منهم، معتقدة أن من واجبها أن تتحدث معه بصوت عالٍ جدًا، كما تتحدث عادة إلى كائنات ضيقة الأفق أو غير مهمة. كان عليه أن يريه ساقه، ويحدد له مكان الكسر، ويشرح له تفاصيل ذلك. كانت جيرمان بوج تود تقصير العناء، لكنها كانت تخشى أن تثير استياء هذه السيدة المؤثرة. اضطر أنطوان مرة أخرى إلى شكر البوابة التي منحته بسرور بالغ عشرة سنتات.

عندما دخلا العلية صُدم أنطوان بتغيّر ورق الجدران. كانت أمه تراقبه، قلقة بشأن استقباله هذه المفاجأة. ابتسم وهو يحاول إخفاء خيبة أمله. أدرك أنه أحب الورق القديم حقًا بخدوشه كلها، ممزقًا وقاتمًا، تلاشى بالتآكل والأوساخ. على تلك الجدران المعتمة تعلمت عيناه التعرف على مناظر طبيعية من إبداعه ووحوش وأشخاص يتحركون عند حلول الظلام. كان الورق الجديد ذا لون أخضر باهت، يبدو قديمًا فعلًا، مرقشًا ببراعم صغيرة من اللون الأخضر الداكن. بدا ملصقًا بطريقة سيئة، ألصقه عامل لا يتقن عمله. أشعلت جيرمان بوج النار، وبسبب الطقس، كان الدخان يتسرب من الموقد؛ ما اضطرها إلى فتح النافذة، فهبت من خلالها رياح وأمطار، كان من اللازم خداع عنصري الطبيعة واعتماد حل وسط. تأمل أنطوان هذه الحياة جالسًا على سريره بجلاء مبكر يراود الأطفال أحيانًا بعد التعافي من المرض، فقالت له أمه وهي تقدم الحساء:

- أأنت سعيد؟

وابتسمت، ثم نظرت إلى الجدران الشاحبة.

قال أنطوان:

- نعم، أنا سعيد. هذا جميل.

- لقد ترددت، كما تعلم. كان هناك لون آخر، وردي وأبيض، لكنه قابل للاتساخ.

أردت حقًا أن أعرض عليك العينات لتختار اللون بنفسك، لكنني فكرت أن المفاجأة

ستنهار قيمتها. إذن، هل صحيح أنك سعيد؟

كرر أنطوان:

- نعم، أنا سعيد.

ثم بدأ يبكي بصمت، لا يبدو أن دموعه ستتوقف، كانت غزيرة ومنتظمة. قالت أمه: «هل تتألم؟ هل تشعر بالملل؟ هل تفتقد رفاقك؟» هز رأسه. تذكرت أنها رأته سابقًا يبكي بهذه الطريقة على فقرهم، فأخبرته أن الوضع في منتهى الاطمئنان.

لقد دفعت للتو مبلغ الإيجار. لذا، سيقيمان هادئين طوال ثلاثة أشهر. لقد حصلت في الأسبوع السابق على ساعة ونصف من التنظيف في وقت مبكر جدًا من الصباح، كما أن مشغليها سعداء بعملها.

- ثمّ، ألم أخبرك! حدث ذلك أمس في الظهيرة. مات كلب الآنسة لاريسون. الحارس المسكين، لم يكن وحشًا سيئًا، لكن بما أنه هلك فقد نستفيد من ذلك أيضًا. من الآن فصاعدًا، يمكنني أن آخذ معي بقايا طعام الآنسة لارسون. لقد منحتني إياه بلطف.

كان أنطوان يود أن يرد على الحياة المبتسمة بكلمات الامتنان، لكنه وجد نفسه عاجزًا عن ذلك، وارتسمت على وجهه كآبة واضحة، فاستبد القلق بأمه لدرجة أنها ترددت في تركه بمفرده فترة ما بعد الظهيرة. عند الواحدة والنصف، وعندما لاحظت أنه أكثر هدوءًا، قررت الذهاب لإنجاز ساعتين من الأعمال المنزلية في بيت الآنسة لاريسون التي وجدت -علاوة على ذلك- خطأ في طريقة عملها.

خطرت على بال جيرمان بوج -التي عذبها حزن أنطوان المضمر- فكرة الذهاب إلى مخرج المدرسة واستجواب أحد رفاقه. قبل كل شيء، كانت تعرف برانكوان الصغير الذي كان رفيق أنطوان في حجرة الاستشفاء أو أمام المستشفى. نتيجة المقابلة التي فاقت توقعاتها، لم يتردد برانكوان للحظة في كشف أسباب كآبة أنطوان. وفجأة، علمت الأم حكاية الحذاء والعم فيكتور المقيم في أمريكا.

هرولت إلى شارع الفنون الجميلة بالإليزي، وبعد ضياعها في شوارع أخرى، اكتشفت جيرمان بوج أخيرا متجر الخرداوات. كانت الواجهة مضاءة لكنها لم تستطع

فتح الباب. كانت تحاول إمالة المقبض عندما دفع البائع جانبًا زاوية من بساط السرير الذي كان يحجب زجاج الباب، وأمرها بالرحيل. لم تفهم جيرمان، وأشارت إلى الحذاء في الواجهة. أخيرًا، وارب الرجل العجوز الباب وقال لها:

- أنت لا تفهمين؟ المتجر مغلق.

تساءلت جيرمان:

- مغلق؟ إنها ليست السادسة.

- لكن المحل لم يفتح هذا الصباح. كما تلاحظين، اليوم عيد ميلادي.

ظهر بالكامل عند فتحه الباب فرأت جيرمان أنه كان يرتدي بدلة وربطة عنق بيضاء. شرحت له الغرض من زيارتها، وأخبرته عن أنطوان الذي كان ينتظرها في المنزل، لكنه لم يرغب في سماعها.

- سيدتي، أنا محبط، لكني أكرر لك أن اليوم عيد ميلادي.

ومعي صديق جاء لرؤيتي.

نظر إلى الوراء وأضاف، بصوت خافت:

- إنه قلق، يتساءل عمن أحادثه. تعالي وتظاهري أنك جئت لتهنئيني بعيد ميلادي. سيكون غاضبًا، لأنه يشعر بالغيرة الفظيعة وكل شيء بداخلي يسيء إليه، لكنني لن أكون مستاء من تلقينه درسًا آخر.

انتهزت جيرمان الفرصة ودخلت وراء الرجل العجوز. لم يكن في المتجر سوى الطائر الكبير الذي أخبرها عنه برانكوان. بدا لها الطائر المخوض أكثر روعة لأنه كان مزينًا بربطة عنق بيضاء مربوطة في منتصف رقبته الطويلة ونظارة أحادية ذات شريط أسود مربوط بأحد الأجنحة.

غمز التاجر جيرمان وقال لها بصوت حاول أن يكون عالٍ قدر استطاعته:

- أيتها الأميرة، ما ألطفك أن تتذكري صديقك القديم، وبالنسبة إليّ يا لها من

مفاجأة جميلة.

نظر إلى الطائر خلسة ليلاحظ التأثير الناتج عن هذه الكلمات وابتسم ابتسامة شرير. ذهلت جيرمان، لا تدري ما الموقف الذي يجب اتخاذه، لكن صاحب المتجر كان في منتهى الثرثرة، فبادر إلى الحديث بدلًا منها؛ ما أشعرها بالراحة. بعد برهة التفت نحو الطائر وأخبره بصوت المظفر:

- تتفق الأميرة معي تمامًا. كانت «الماريشال دا أنكر» المعروفة سببًا في كل شيء.

متناسيًا الأميرة أدار ظهره لها، وانخرط في نقاش تاريخي لا يتقنه، فقد انتهى به الأمر إلى التوقف صامتًا وهو يحدق إلى الطائر بملامح مستاءة. استغلت جيرمان استغراقه الطويل في التفكير لتذكره بأنها أتت إلى متجره بنية شراء الحذاء.

انتبه التاجر وقال:

- إنه أمر مثير للاستغراب، منذ مدة سُئلت عنه كثيرًا.

- كم ثمنه؟

- ثلاثة آلاف فرنك.

لقد أجاب شارد الذهن كأنه لا يلاحظ حيرة الزبونة. وفجأة، هب من شروده وصرخ بصوت غاضب ناظرًا إلى الطائر:

- بطبيعة الحال، أنت لا توافق أيضًا! تجد أن الحذاء لا يساوي ثلاثة آلاف فرنك. هيا، قلها، لا تخجل. الآن بعد أن أصبحت تضع نظارة أحادية، كل شيء صار متاحًا لك.

بعد صمت قصير، التفت إلى جيرمان وقال لها بابتسامة مريرة:

«سمعته. يبدو أن حذائي يساوي خمسة وعشرين فرنكًا فقط. حسنًا! أيضًا. خذها بعيدًا مقابل خمسة وعشرين فرنكًا. من المفهوم أنني لست هنا بعد الآن. من المفهوم أني السيد.

بعد صمت قصير، التفت إلى جيرمان وقال لها بابتسامة مريرة:

- أنت سمعته. يبدو أن حذائي لا يساوي سوى خمسة وعشرين فرنكًا. حسنًا! فليكن. خذيه مقابل خمسة وعشرين فرنكًا. من المفهوم أنني أصبحت بلا قيمة هنا. من المفهوم أن السيد صار صاحب المحل. خذيه يا سيدتي.

وذهب لجلب الحذاء من الواجهة، ولفه في جريدة وسلمه إلى جيرمان وهو يقول للطائر:

- أيها البائس، تخسرني ألفين وتسعمئة وخمسة وسبعين فرنكًا.

شعرت جيرمان التي كانت تفتح محفظتها في ذلك الوقت بالحرج من ملاحظته.

فقالت للرجل العجوز:

- لا أريد أن أستغل الفرصة.

ثم غمغم قائلًا:

- لا تهتمي بالأمر، سأعتني به. إنه حسود وشرير. سأقتله بضربة سيف قوية.

عندما أخذ الخمسة والعشرين فرنكًا، لمحت جيرمان يده ترتجف من شدة الغضب.

ما إن صارت العملات المعدنية بحوزته، استدار ورماها على رأس الطائر، فكسر النظارة الأحادية، فتأرجح جزء منها متدليًا بشريط. ثم، قبل أن يتنفس الصعداء، أمسك سيفًا قديمًا كان موضوعًا في واجهة المحل وسله من غمده. هنا فرت جيرمان بوج بحذائها دون انتظار النتيجة.

في الخارج، راودتها فكرة أن تخبر شرطيًا أو على الأقل أحد الجيران. تهيأ لها أن الطائر يهدده خطر حقيقي. لكن، أمعنت في التفكير في الأمر، وقالت لنفسها إن مثل هذه الخطوة غير مجدية وقد تسبب لها بعض المشكلات.

عندما رأى أنطوان الحذاء توَرّد وجهه خجلًا وسعادة وبدا له لون ورق الجدران الجديد الكئيب لونًا أخضر تفاحيًا ربيعيًا وجميلًا. في المساء، عندما كانت أمه نائمة،

قام بهدوء وارتدى ثيابه وانتعل حذاء الفراسخ السبعة. وفي الليل المظلم، شرع يتلمس طريقه عبر العلية وبعد أن فتح النافذة بحذر شديد، صعد إلى حافة الميزاب. أخذته القفزة الأولى إلى الضواحي، إلى روسني سوس بوا، والثانية إلى مقاطعة السين ومارن. وفي غضون عشر دقائق كان في الطرف الآخر من الأرض حيث توقف فوق مرج كبير لالتقاط حفنة من أشعة الشمس الأولى التي ربطها بخيط العنكبوت.

وجد أنطوان العلية بسهولة حيث انزلق من دون ضوضاء. وفوق سرير أمه الصغير، وضع حفنة أشعته اللامعة التي أضاءت وجهها النائم، فبدت له أقل إرهاقًا وإنهاكًا.

في الانتظار

خلال الحرب ما بين 1939و1972، كان فيحي في مونمارتر طابور عند باب محل بقالة في شارع كولينكورت يتألف من أربعة عشر شخصًا، وبعد أن تعارفوا وأصبحوا أصدقاء، قرروا ألا يفترقوا أبدًا.

قال رجل عجوز:

- أنا، لا أرغب حقًّا في العودة إلى المنزل؛ لن أجد دفئًا وسأتناول الخبز بمفردي، سآكل مئتي غرام في اليوم فقط لا غير. زوجتي ماتت قبل شهر. إنه ليس حرمانًا كبيرًا، وإذا أخبرتكم فلن تصدقوني، لقد ماتت بسبب فراء ثعلب. ولولا الحرب لكانت حية في هذا العالم، وكما كانت تقول «نحن لا نستحق ذلك». كلامي ليس شكوى، هيّا، لكني عملت في الحياة، وماذا بقي منها الآن غير التعب والأحزان. طوال أربعين عامًا كنت بائع أقمشة مفروشات. إنها من المهن الصعبة، قد لا يبدو ذلك، لكنها تتطلب الوقوف طوال اليوم وعيناك على الزبون، تبتسم دائمًا، وتتحدث دائمًا وتبدو حاضر البديهة. يراقبك مدير القسم بالمرصاد، عن صواب أم عن خطأ، عندما يكلفك بعمل عليك فقط أن تقبل وإلا ستجد نفسك مطرودًا. ولا نكسب ما يكفي للعيش. بالكاد ندفع الإيجار، ولم تكن نسبة المبيعات كافية أيضًا. أضرب لكم مثلًا عن ذلك، عمومًا، كانت سنة 1913 مئة وثمانين شهرًا، تشمل أيضًا إنجاب ثلاث بنات يجب تربيتهن. بالمناسبة، زوجتي منعها ذلك من العمل. لم يسعدها ذلك أيضًا: لم تكن الفتاتان قويتين جدًّا، تمرضان دائمًا، وما خلفه عجزنا من قلق دائم. أضف إلى ذلك، أصبحتُ في عام 1914 جنديًّا بسيطًا، في المؤخرة بالطبع، لكن خلال خمس سنوات -أو نحو ذلك- لم أكسب شيئًا. عدت في عام 1919، فوجدت بائعًا آخر احتلّ مكاني. أخيرًا، تمكنت من الاستقرار لدى بوراكيم وبالاندرا. في تلك السنوات، جرى البيع والشراء جيدًا. كنت أقضي وقتًا ممتعًا، وبدأت الفتيات يعملن أيضًا. أخبرتني زوجتي هذه المرة أن رغم كل شيء كانت الأمور تسير نحو الأفضل. لكنني، كنت في الثامنة والأربعين من عمري، وكنت أرى أن من الضروري أن نتقشف. عندما كانت تلح على الإنفاق، كنت أنا أحدثها عن الاقتصاد. حافظت زوجتي على جمالها، لم تعد فتية

بالطبع لكنها لا تزال جميلة على كل حال. ولكي تكون متأنقة، افتقرت إلى الوقت والمال.

لا أزعم أنها كانت تفكر في الأمر الآن، لم يكن الأمر كذلك. الحقيقة أنها كانت تشعر بالندم تقريبًا أو -بالأحرى- راودتها أفكار، إلى أن انتهى بها الأمر إلى التفكير في شراء فراء ثعلب فضي. أخبرتني دون أن تبدو مقتنعة بذلك. كما يقولون أحيانًا، إذا كنت غنيًا فسأشتري... لقد أدركت في أعماقها أنه ضرب من الجنون، والدليل أنني قلت لها ذات يوم: «بعد كل شيء يمكننا أن نشتري ثعلبك»، ولكنها لم ترغب في ذلك. لكن رغبتها بقيت دفينة. مرت ثماني أو عشر سنوات، حلت مشكلة: رقدت أصغر بناتي في المصح، وعاد صهري إلى الشرب. لكن زوجتي تحدثت عن ثعلبها ضاحكة. لكن كما تعلمون، كانت ضحكتها حزينة جدًا، فأتألم لذلك. في إحدى الأمسيات تركت محل بوراكيم، قابلت مديري السابق الذي سألني إذا كنت أرغب في العودة إلى محله بصفة مدير للقسم. أنا، مدير للقسم، من جهة كنت أحسب أني أحلم. من جهة أخرى، شعرت بالقلق. حدث ذلك في عام 1934، وكان عمري يناهز ثلاثة وستين عامًا. تتفقون معي، في هذا العمر تختفي أفكار الانتقام، وليس لدينا كل اللؤم الذي نحتاج إليه لنقرر جيدًا.

لكنني لن أترك الفرصة تضيع مني. بالنسبة إليّ، كان الوضع جيدًا، ناهيك بالقول إننا نجحنا في تجاوز العوز على أي حال. كانت زوجتي سعيدة أيضًا. أنت تعرف كيف تصبح النساء. تخيل معي أنها صادفت جارتها عند تاجر فتقول لها بتباه: «سأخبرك عن الأسعار، زوجي مدير قسم في محل نَضار». في الواقع، وجدنا أنفسنا ثملين فرحة، أنا وهي. في إحدى الأمسيات الجميلة، عدت إلى المنزل حاملًا طردًا في يدي، كان فيه فراء الثعلب الفضي. حيوان في منتهى الجمال، لم أشتره في كيس. فقد كنت مندوب مبيعات، نشتغل من خلال العلاقات. كنت أعرف ابن عم صغير يعمل في صناعة الفراء في شارع ستراسبورغ. لقد كلفني الثعلب ألفي فرنك، لكن الأمر كان يستحق ذلك. عندما أخرجته من علبته، شرعت زوجتي في البكاء. لم أرَ أحدًا من قبل سعيدًا مثلها. لم تصدق ما تراه. ومع ذلك، فإن ثعلبها لم ترتده كثيرًا، أربع أو خمس مرات، ربما ست مرات، في حفل، أو تعميد، أو عشاء مع أشخاص

مزعجين. أحيانًا، عندما نخرج يوم الأحد، فقلت لها:

«ماري، ارتدي، هذا الثعلب». لكنها لم توافق، لقد كانت خائفة جدًا من أن يصبح قديمًا. وضعته في صندوق جميل به كرات النفتالين ولفّته جيدًا في مناديل ورقية. كانت تخرجه مرة في الأسبوع، يوم الخميس، إلى هواء النافذة، وكان من الجيد أيضًا أن تضعه أمام أنظار الجيران لتخطرهم بأنها تملك فراء ثعلب فضي. وأنتم تدركون ما أعني، لقد خفتت متعتها كما لو كانت ترتديه كل يوم. كانت سعيدة وأنا كذلك. ثم، في عام 1937، صرتُ قاسيًا بعض الشيء لأني كنت أشعر أنني لست على ما يرام، داهمتني الشيخوخة فجأة. وأضحى رأسي ثقيلًا؛ أشعر بالنعاس دائمًا، وساقاي منتفختين، ولم أعد قادرًا على أعباء العمل، كان عليّ أن أضع الحمل وأفكر في العيش على مدخراتنا. كنا نملك خمسة وستين ألف فرنك، التي كان علينا أن نضعها معاشًا للحياة. وحتى من أجل الحياة، كما يمكنكم أن تتخيلوا، لم يكن الدخل قيّمًا وكافيًا. ومع ذلك، تمكنا من العيش دون مضايقات، والسر أننا كنا حريصين. بعد ذلك حلت الحرب، الألمان، الهجرة الجماعية. فكرنا في الأمر. كنت أرى خمس سنوات من الحرب على نهر اللوار، وبناتي وأصهاري على الجانب الآخر، وربما نموت دون أن نتمكن من رؤيتهم. فقررنا الرحيل، ملابس قليلة في حقيبة صغيرة، وضعت زوجتي ثعلبها في علبة، وبعد شهر، عدنا. طالما كان الطقس لطيفًا كان العيش جيدًا، ولكن بعد ذلك. أما بخصوص مشكلة الأكل والإنفاق، فقد بدا المستقبل صعبًا. مع ذلك، كان لا بد من مساعدة صهري السجين، كانت ابنتي الصغيرة تنتظر طفلًا. لم نتمكن من مواجهة الوضع، إذ ارتفعت الأسعار ارتفاعًا متواصلًا، لكن راتب المعاش لم يزدد قط. وبعد الشتاء الماضي، سقطت مريضًا. فقال لي الطبيب: «يجب أن تأكل جيدًا».

بالطبع ولكن أين المال؟ قالت زوجتي: «لا بأس، لا تقلق، سوف نتغلب على المشكلات هذه المرة أيضًا». ما قالته صحيح. عند حلول الربيع، وجدت نفسي أقف على قدمي بشكل أو بآخر، لكني رأيت بأم عيني بداية استسلامها. بدت كئيبة وضعيفة لا تقوى على الوقوف، يؤلمها قلبها وبطنها، وأخيرًا، هوت صحتها ولزمت الفراش. في نهاية الصيف، في صباح أحد أيام الخميس، كانت السماء صافية والشمس جميلة، وقبل الذهاب للتسوق قلت لها: «ماري، هل تريدين أن أضع ثعلبك

في النافذة؟» حركت المسكينة رأسها عن الوسادة والتفتت نحوي، كانت عيناها تلمعان بوميض لم أرَ مثله قط، وشرع ذقنها يرتجف. قالت لي: «ثعلبي، لقد بعثه». باعته فعلًا بثمانمئة فرنك. قبل شهر، عندما ماتت، فكرت في شراء واحد لها حتى لا تندم في قبرها. «إذا لم يكن باهظ الثمن على ما أعتقد، فربما أجد شيئًا أقترضه». سألت عنه، ثعلب فضي مستعمل، قد يصل ثمنه نحو عشرة آلاف فرنك.

قال طفل:

- أنا، أنا جائع. أنا دائما جائع.

قالت امرأة:

- أنا بالنسبة إليّ، سيكون من الأفضل ألا أعود إلى المنزل. زوجي في سيليسيا ضمن فرقة عسكرية خاصة. يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا، وعمري خمسة وعشرون عامًا، ولن تنتهي الحرب أبدًا. تمضي الأيام والشهور والسنوات، وحياتي تتشكل من دونه، وحتى إنها تصنع بصلابة. على الرغم من وجود صورته في حقيبتي، وفي غرفتي وفوق الأثاث كله، فإنني الآن وحدي لأفكر وأقرر. في أيام الأحد، كنت أذهب برفقته لمشاهدة كرة الركبي أو كرة القدم أو مضمار سباق.

كنت أصفق وأصرخ: «انطلق! هيًا! اخرج». كل يوم، كنت أقرأ عن السيارة وأقول له: «مرحبًا، يبدو أنّ ماني في حالة جيدة». الآن خلال أيام الأحد أذهب إلى السينما أو أمكث في المنزل. عندما يعود، لن أتمكن من استعادة متعتي، لم تعد تهمني مشاهدة الرياضة. أشعر أنني لن أحاول حتى. الأشخاص الذين يحبهم لم أعد أراهم كثيرًا. قبل الحرب، كنا نذهب كثيرًا عند عائلة بوريو، ويأتون إلى بيتنا. كان بوريو صديقًا قديمًا لزوجي في المدرسة. أحبّ ممثلة، وكان يعرف أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وقد أمضى أسبوعين في نيويورك. لقد عامل زوجي مثل شخص تافه، ويناديه بالمعتوه، فيما يضغط فخذي أمامه، فتضحك زوجته. عند عودتي إلى المنزل، قال لي زوجي: «هؤلاء البوريو، إنهم أصدقاء ساحرون». أجبت بنعم، ليس فقط لإرضائه، بل لأن «نعم» نبعت من قلبي.

الآن، لم أعد أطيق سماع صوت بوريو. كذلك الشيء نفسه بالنسبة إلى والدي زوجي، فأنا أوزّع الزيارة بينهم كأنهم غير موجودين. ولا أهمية لتفاصيل الحياة. القراءة في الفراش، والخروج من دون تصفيف شعري، والاستيقاظ متأخرة، التزين بسرعة، والذهاب إلى المسرح، والتأخر عن المواعيد، وعديد من الأشياء الممنوعة الأخرى التي لم تعد ممنوعة. يا لها من حياة كئيبة كنت سأعيشها دون مغادرة الشقة. إن المتعة التي أحصل عليها هي الأسوأ، بحيث لم أكن أستمع إلا إلى نفسي، وأتحكم في نفسي. في السابق، كنت أستشيره، وقلت لنفسي: «مهلًا، ماذا سيحدث لو كان هنا؟!

«الآن، بعدما انخفضت الوتيرة شيئًا فشيئًا، أقول لنفسي: نعم، بالطبع، ولكن الأمور هكذا تحدث. الأمر الجسيم أيضًا أنني لم أشعر بالملل لدقيقة واحدة. أعاني الإحساس بأن زوجي هناك، سأضحي بأي شيء في هذا العالم لأرى عودته، ولكن بعد كل شيء، أنا لا أشعر بالملل أبدًا. لديّ حياة خاصة بي، حياة شكلتها إرادتي ولم يعد من الممكن الخلط بينها وبين حياة أخرى. عندما يعود، بالطبع، سأحرص على عدم تغيير أي شيء.

سأرافقه إلى لعبة الريكبي، وسأرى عائلة بوريو ووالدي زوجي مرة أخرى، وسأحاول ألا أقرأ في السرير بعد الآن.

لكني بالتأكيد سأستاء منه. وعلى الرغم من نفسي، سأفكر في كل وقت بطريقة أخرى للعيش، ستبدو لي أكثر صدقًا. لم أعد المرأة التي تركها وراءه، لقد استعدت كياني. ماذا تريدون مني أن أفعل حيال ذلك؟ الزوجان ليسا مزيجًا كيميائيًا. عندما تفصل العناصر، لا يكفي إعادة تجميعها معًا لنعيد ما انفرط منها. يجب أن يفكر في ذلك من يصنعون الحروب. إن أخطر ما في الأمر أنني بقيت جادة، وسأبقى كذلك. لن أندم على أي شيء، وسوف يكون لفكري مطلق الحرية في الحكم. أعرف زوجة سجين اتخذت على الفور عشيقًا. ولكن عندما يعود زوجها، فإنها لن تفقد طعمها لتعود كما في سابق عهدها. سيستأنفان حياتهما بسهولة.

أعرف أن هناك نساء يتزوجن في وقت متأخر، في الثلاثين أو أكثر، وقد انتهت

حياتهن فعلًا. لكن هؤلاء ما عليهن إلا أن يتأقلمن، سواء أكن طيبات أم سيئات. لن يحتجن إلى إخفاء إحساسهن بأن لعبة الريكبي مملة وصادمة. إن صراحتهن لن تعدّ خيانة. لن يطلب منهن أحد أن يقلن أو يفعلن أشياء لا يؤمنن بها. يقولون إن الحب يصنع المعجزات. هذا ما يخيفني أيضًا. لأنه في النهاية، إذا كان عليّ أن أبدأ حب الحلبة وعائلة بوريو مرة أخرى، لم أعد أعرف ما الذي أتمناه. أنا سعيدة جدًا لكوني ما أنا عليه الآن. ما أقوله لكم هنا، ربما ينبغي أن أكتبه في رسالة إلى موريس، اسمه موريس. لكني لا أجرؤ على ذلك. أدرك أنه ينتظر اليوم الذي ستعود فيه الحياة مرة أخرى. قال لي في رسالته الأخيرة:

«هل تتذكرين الأحد الأخير في فيلدهيف؟» أنتم تتخيلون كم ستكون صدمته قوية إذا كنت صادقة. تعلمت مع ذلك خلال حياتي كامرأة وحيدة ألا أخفي أي شيء. في المشهد الأول ستكون ردة فعله تجاهي مقابل ردة فعلي إزاءه، سيكون لدي ما أقوله! أخشى أن أفكر في الأمر. أحتاج، ربما حان الوقت، إلى أن أتعلم الكذب. باختصار، سأحتاج إلى أصدقاء.

قالت امرأة عجوز:

- أنا لم أعد أومن بالرب. الليلة الماضية انزلقت عند عودتي إلى المنزل، فالتوت رجلي، وكسرتهما كليهما. لم أعد أومن بالربّ.

قالت أم:

- أنا، أنا دائمًا أتخوف من العودة إلى المنزل. لدي أربعة أبناء في انتظاري. أكبرهم يبلغ من العمر اثني عشر عامًا. وتوفي خامسهم في عام 1941 بعد شتاء اللفت. لقد اختطفه مني مرض السل. كان يحتاج إلى اللحوم كل يوم والطعام الغني. أين سأجده؟ زوجي يعمل في السكة الحديدية، وأنا أقوم بالأعمال المنزلية عندما يكون لدي الوقت، يمكنك الاعتماد عليّ، فأنت لن تشتري من السوق السوداء. لقد مات من الجوع. والآخرون هم في المسار الخطأ أيضًا بوجوههم النحيلة والبيضاء الفقيرة، المزكومة من البرد أو الحلق الملتهب والأعين المرهقة، بالكاد يريدون اللعب. عندما أتيت من التسوق، يأتي الأربعة إليّ ليروا ما أحمله في كيسي. فأوبخهم: «هيّا، اغربوا

عن وجهي!» فيغادرون دون أن ينبسوا بأي كلمة. في بعض الأحيان لا أستطيع، لأني لا أملك القوة على فعل ذلك.

أمس كانت حقيبتي فارغة، لكن هذا يعني أن الإمدادات لم تصل. عندما رأيت أبنائي الأربعة يندفعون نحوي، بكيت وانفطر قلبي. وما زاد الأمر صعوبة، أن الطقس بارد ولا تتوافر لدينا تدفئة. في الأسبوع الماضي، انقطع الغاز طوال ثمانية أيام، ولم يكن هناك طعام ساخن لأملأ بطونهم. من شدة البرد صارت بشرتهم رمادية وأعينهم ميتة كأنها تريد أن تقول: «ولكن ما ذنبنا نحن؟» تورمت الأصابع ويجب أن ترى أقدامهم المتشققة، ليس من السهل العثور على أحذية جيدة بأسعار مناسبة. في الوقت الحالي، لدي ثلاثة أحذية فقط لأبنائي الأربعة. ما يساعدنا على تجاوز المشكلة أن أحدهم دائمًا يكون مريضًا، فيبقى طريح الفراش.

أحيانًا أذهب إلى البلدية لأطلب قسيمة تكميلية، قسيمة لهذا الشيء وذاك. لا ينبغي أن أفعل ذلك، فأنا أعرف ما ينتظرني، لكن عندما أرى أطفالي يسعلون، نحيفين ضعفاء وجائعين، فهذا الألم أقوى مني، لهذا أذهب للمطالبة بالطعام. هل تعتقدون أنهم يمنحوني ما أطلبه، وأنا أحتج بأشد الكلمات. أنا لا أرتدي ملابس أنيقة. وحيثما ذهبت، الوضع دائمًا يكون مشابهًا. أجد الموظف في مكتبه، إنه كلب الأثرياء المهيمنين. عندما يرى الفقراء، يكشر عن أنيابه. ما الذي دفعني لإنجاب أطفال في هذا العالم؟ ما حدث لي، أنا التي بحثت عنه. إذا كان هؤلاء الأربعة سيهلكون، فلن يؤثر ذلك في أي أحد؟ ليست الحكومة بالطبع ولا مجلس المدينة ولا الأثرياء قطعًا. بينما يتضور أطفالي جوعًا، يشتري هؤلاء الخنازير البيض بعشرين فرنكًا للبيضة الواحدة، ويأكلون اللحم في الوجبات كلها، والزبدة بأربعمئة فرنك، والدجاج، ولحم الخنزير حدّ التخمة. أما الملابس والأحذية والقبعات فلا تقلقوا، فلن ينقصهم منها شيء. إن الأغنياء يأكلون أكثر مما كانوا يأكلون قبل الحرب، كانوا يجبرون أنفسهم على تناول الطعام خوفًا من ترك بعضه للبؤساء.

أنا لا أختلق شيئًا. أمس، في محل البقالة، سمعت امرأتين مبهرجتين -معذرة- بالفراء والمجوهرات، وتمسكان كلبيهما من نوع البكينوا، قالا إن الناس-خوفًا من

نفاد الطعام- أكلوا ضعف ما كانوا يأكلون سابقًا. قالا «هذا الأمر يحدث كذلك معنا». حدثيني عن الأغنياء. كلهم قتلة، قتلة للأطفال، هذا ما هو عليه الحال. هيّا، امشوا، لن تدوم الحرب إلى الأبد. عندما يغادر الألمان، يجب أن نحاسبهم على أفعالهم. سنواجه كل أصحاب الوجوه النظرة والبطون المنتفخة.

عن كل طفل قتل من أطفالي، سأحتاج إلى قتل عشرة من أطفالهم. بضربة جرموق على الفم، سأقتلهم، سأستغرق وقتًا، أريدهم أن يعانوا. عندما تأتي الخنازير ببطونها الممتلئة لتجادلنا عن الشرف والولاء وكل الاضطرابات، أنا سأناقش موضوع الشرف عندما لا يكون أطفالي جائعين. أحيانًا أقول لزوجي: «يا فيكتور، تدبر أمرك قليلًا، في محطة القطار في الشمال حيث تعمل موظفون يأخذون طرودًا من السجناء، عندما لا يفكر كل فرد إلا بنفسه، افعل الشيء نفسه؛ إن الأغنياء لا يهتمون بالقوانين التي وضعوها، ليس هناك كثير من الأمور التي يجب أن تتردد فيها: أنا ومن بعدي الطوفان، بغض النظر عن طريقة فعل ذلك. لكنه، كما تظنون، كان الأب ورب العائلة الصادق. بالنسبة إليه كان الشرف والكرامة شيئين مقدسين، أما نحن فلا عزاء لنا.

وقالت فتاة تبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة:

- أما أنا فلو تعلمون ما حدث لي. في المساء عندما وصلت إلى المنزل، على الدرج في شارع باتورو، كان هناك رجل، رجل طويل مشعث اللحية رمقني بنظرة ماكرة، لا أستطيع أن أصف كيف نظر إليّ. كانت أمي كثيرا ما تقول إن الرجال كلهم خنازير. لكن هذا، كنت خائفة منه. الليلة الماضية اختبأ في زاوية. عندما مررت قفز علي. وضعني بالكامل على الأرض، وسرق رباط حذائي.

قالت امرأة عجوز:

- أنا في منتهى التعب. هذه الحياة والأشياء التي تحدث الآن بالنسبة إليّ لم تعد مهمة بعد الآن، بل صارت أقل جدوى. أنا خياطة في شارع هرمل، لكن لا جدوى من إخباركم بأني لم أعد أخيط كثيرًا. قبل الحرب كان الأمر صعبًا حقًا. كنت أصنع الفستان والمعطف والبدلة والصدرية أيضًا. كنت أشغل معي خمس عاملات. كان

لدي زبونات بورجوازيات، ما أحدثكم عنه حدث منذ زمن بعيد. ثم جاءت المنافسة. وظهرت متاجر متعددة كبيرة، ومتخصصون بالخياطة، الذين يصنعون الفساتين والبدلات والملابس الجاهزة المتسلسلة حسب الفئة والقياس، لكنها كانت أقل متانة، أعترف أنهم كانوا يصنعون أفضل مما أصنع وأرخص ثمنًا. في النهاية، أجريت عمليات ترقيع وتحويلات، ولم يتبقَّ لدي سوى عاملة واحدة بأجر زهيد. ولكن، هل بمقدوري أن أفعل خلاف ذلك؟ والآن ليس لدي مزيد من الأشياء. ستقولون لي: «هناك سوق سوداء»، لكنني لست منخرطة فيها ولا أعلم عنها شيئًا. كما أني لم أعد أملك رأس مال. عندما تصبح عجوزًا، وتريد أن تنخرط في السوق السوداء، يجب أن تكون ثريًا أو تساير الاتجاه السائد للأعمال التجارية أو أن تكون موظفًا أيضًا. قبل الحرب، كان لا يزال لدي طلبيات للعمل. لقد انتهى الأمر تقريبًا. النساء اللواتي يشترين القماش بسعر ألف وخمسمئة فرنك لكل متر يرغبن في خياطة باهظة الثمن أيضًا، وإذا طلبت أقل من ألفي أو ثلاثة آلاف فرنك يساورهن الشك، وإذا طلبت أكثر من ثلاثمئة فإنهن يسخرن مني. الآن أنا الخياطة القديمة. هذا ما يقولونه عندما يتحدثون عني، خياطة عجوز تقيم في شارع هيرمل، لا تقوم بعمل يذكر مقابل لا شيء يذكر. نعم، أنا الخياطة العجوز.

وقبل عشر سنوات فحسب، كنت أصنع ملابس جيدة لصاحبات المتاجر وحتى لزوجات المفوضين والمحامين. حتى إني أنا من صنعت فساتين السيدة بوركوينير زوجة مستشار المدينة. عندما أفكر في ما وصلت إليه: تقليص ملابس الفقراء في الجوار، وخياطة سراويل قصيرة من المعاطف القديمة، وترقيع الملابس لاستعمالات طويلة. عندما تكون عاملة حقيقية، فهذا مؤلم. إن العمل على هذا النحو، إذا كان لدي ما يكفي منه، لكن لا، فهذا بعيد المنال. لسوء حظي لا أستطيع تلبية احتياجاتي الأساسية. أبلغ من العمر خمسة وستين عامًا، ولم أكن جميلة قط، وإذا كنت سأعتمد على ذلك، كنت أعتمد على وظيفتي، وظيفة حقيقية: «الآنسة دوشا، مصممة وخياطة الفساتين والمعاطف» قبل الحرب بقليل، كنت معروفة لدى التجار. حتى وإن اشتريت القليل، أليس كذلك، كانت الابتسامات والكلمات المهذبة تستقبلني، ودائمًا أسمع: «صباح الخير آنسة دوشا»، لكن التجار اليوم لا يعترفون بالأسماء، إنما

بالمال فقط. الفقراء لم يعد يعرفهم أحد. قد تنتهي الحرب يومًا ما، لكنني سأبقى مهمشة. ستعود النساء إلى أزواجهن والرجال إلى وظائفهم، لكن لن يخبرني أحد بذلك. أنا لم أعد أنتظر أي شيء.

وقالت طفلة:

- أنا، أتمنى أن تأتي نهاية العالم قبل الظهيرة. لقد فقدت للتو بطاقات الخبز كلها. أمي لا تعلم ذلك.

ثم قالت فتاة الحياة السيئة:

- أنا، لقد سئمت. أنتم تعرفون طبيعة عملي، لكن يجب ألا تتصوروا ما لا تعرفونه عني. يعتقد كثير من الناس أن المهنة هي الطريقة الصحيحة للأكل الجيد. هنا، بالطبع، ستجدون نساء يعملن نهارًا، لكنّ هؤلاء المحتالات يفعلن ذلك لسذاجتهم. أنا، أنا أقوم بعمل شائع، زبائني من الطبقة المتوسطة الذين يجدون طريقة لاقتطاع مبلغ من راتبه الشهري من أجل التسلية.

في الماضي، كنت أكسب في الإجمال مئات الفرنكات، ربما أكثر من ذلك بقليل، بصعوبة طبعًا. من خلال العيش قليلًا على التقشف، تمكنت أنا ورفيقي الطيب من تدبير أمورنا، بل وضعنا القليل في بنك الادخار. كانت فكرة فرناندو أن نشتري في يوم من الأيام حانة على ضفاف نهر المارن. لاحظ أن هذا الأمر قبل الحرب لم يكن مستحيلًا. ومرة أخرى، كان من الممكن أن تكون الحرب شيئًا جيدًا لو كانت الدولة مستعدة لها. لكن من المؤسسات العليا إلى المجتمع في الأسفل، كان هناك كثير من اللا مبالاة، كان الفرنسي مرحًا جدًا. ارتكبت بعض الأخطاء. كما حدث مع شركة طوطال. لكن خلال المهزلة، لم نعانِ كثيرًا، بل على العكس. كان الناس متوافرين، ولم يكن الرجل نادرًا، بل كان يتوق إلى الرفقة الممتعة. حتى بعد ذلك أيضًا، عندما اقتحم الألمان باريس، قضينا مرحلة ممتعة، لأنهم كانوا يرسلون جميع جنودهم لزيارة باريس.

الآن، اختفى الجيش، وانتهى عصر السياحة. ومع ذلك، بالكاد يتوافر لديك وقت

للعمل. لاحظ أن الفصل لا يساعد، يحل الظلام مبكرًا، في الساعة السادسة. ويفترض أن تعمل في المقهى. المشروبات باهظة الثمن، كما أن النساء بالضرورة كثيرات بالنسبة إلى الزبون، عندما يتعلق الأمر بالجو العام، فالمقهى يختلف عن الشارع. وهذا ليس في صالحي أيضًا. هناك أيضًا نساء شريرات أو مستفزات.

أنا، أفضل شيء يمكنني فعله، لا أعرف إن كنت قد لاحظت، هي أن أقف وأكشف خصري، لكن لا يمكنني الجلوس على الطاولة، لكن لا يمكنني الجلوس على الطاولة. هناك أيضًا بعض النساء يتحدثن الألمانية، هذا بإمكانه أن يسهل التعامل مع الجيش. أرادني فرناندو أن أتعلمها، فأرسلني إلى المدرسة كل صباح. لكنني لم أفهم شيئًا، فاستسلمت. أنا لم أستطع أن أتعلم حتى اللهجة العامية. يعود الأمر إلى التربية أيضًا. في المنزل، لم نتحدث العامية قط. لم يكن الكبار يسمحون بذلك. لا يعرفون سوى العمل الشاق والعمل الجاد. العمل في النهار من الخروج في المساء. بطريقة ما لم يكونوا مخطئين. اليوم، أصبح الخروج ليلًا مكلفًا. لقد ارتفعت الأسعار قليلًا، لكن كل شيء صار مكلفًا الآن، هذا لا يهم. هل تدركون كم يكلف إسكان شخص وإطعامه. كما أني أحتاج إلى ملابس داخلية وجوارب حريرية، وكذلك، فرناندو، لأنه يرتدي ملابسه أيضًا. إنه متأنق، إذا أراد أن يشغل نفسه، يجب أن تروا جماله. أعرف نساء رجالهم يدبرون المال، يحتالون في السوق السوداء. لكن، هل تظنون أنه مثلهم، إنه شخص خواف، وقبل كل شيء، هو غير قادر. في بعض الأحيان، عندما أكون غاضبة منه أنهال عليه بركلات كبيرة بحذائي، لكن بعد ذلك، أعتذر إليه، وأقول لنفسي إنها الطبيعة الهشة، ماذا يمكنه أن يفعل، الوغد المسكين. ربما تعرفونه. لا بدّ أنكم تعرفونه. إنه رجل قصير نحيف يرتدي معطفًا لونه بيج، لديه كتف أعلى من الأخرى، وجهه مثل قطعة من القمر. كانت الموضة في العمل تتلخص قبل الحرب في التواصل مع المحتالين، والإجهاض، والتعامل مع نصف الحمقى. إنه صعلوك حقيقي لا يزيد طوله على علو كرسي مطبخ. بهذه العقليات، كان يجب أن نخسر الحرب. لأن الروح المعنوية لا تفهم خطأ، ولكن حدث ذلك.. على أي حال، الآن، بلادي غير طبيعية بالنسبة إليّ، فقد احتفظت بشقتي لنفسي، لأن المكلف بالتجنيد قال لي: «هذا الكائن، يمكنك أن ترتاحي، لا يصلح لأي شيء، لن نرسله إلى ألمانيا».

قالت سيدة عجوز:

- أنا، لم تتناول قطتي شيئًا لينًا منذ أكثر من أسبوعين. اسمها كيكي.

وقال رجل:

- أنا أقسم بالرب الصالح، إنهم توقفوا فعلًا عن منحنا بعض النبيذ، ولا يمكنني أن أتناوله بعد الآن. لا أستطيع بعد الآن! لا أستطيع بعد الآن! اللعنة على قسمتهم، إنهم لا يهتمون بي. كنت أشرب ستة لترات في اليوم، ومقبلاتي الأربعة، وكأسي الفاخرة بعد جبن الكاموميبر. كنت شديد القوة مثل جسر نوف، ولم أكن يومًا مريضًا، وكنت دائمًا جاهزًا للعمل. انظر إليّ الآن، أنا أبلغ من العمر أربعة وخمسين عامًا وبالطبع لم أعد نافعًا لأي شيء. لقد تخليت عن وظيفتي سباكًا، جسمي يرتجف كله، أنظر إلى يدي كأنني تعرضت لزلزال، ساقاي ترتعشان أحركهما بصعوبة، ورأسي سينفجر في كل لحظة. كيف تفسر ذلك؟ أقول لك، كنت صلبًا مثل جسر نوف، قادرًا على تحمل كل شيء. نعم، كنت أقوى من جسر نوف، يا ربي الصالح. لكن لماذا لا يوجد النبيذ. ماذا يمكنك أن تفعل من دون النبيذ؟ إذا أزلت النبيذ، فأنت تدمر الرجل. أشعر أن نارًا تضطرم بداخلي. لا أستطيع تحملها بعد الآن، أقول لك. أنا لا يمكنني تحملها بعد الآن! لتر من النبيذ خلال أسبوع. القتلة. تتسلم زوجتي لترها أيضًا، لكن يمكنكم أن تتخيلوا أنها تشرب كل شيء، ولا تترك لي شيئًا. أول أمس صباحًا، تسلمنا مخصصاتنا من النبيذ. في المساء، لم تحتفظ زوجتي إلا بمقدار كوب في قنينتها.

أنا، لم أستطع التحمل أكثر، أردت أن أنتزعه منها. في الواقع، كان ذلك رغمًا عني. كان كلانا مجنونًا، ألقت طبقًا على رأسي، فجشته. آه! لو علموا ما يمكن أن يحدثه التخصيص من الضرر. ابني في الثالثة عشرة من عمره، غير مبتلٍ بأي شيء. ومع ذلك فهو يحتاج إليه أيضًا. نحن اعتنينا به أيضًا، لذلك لم يرفض شرب النبيذ قط. في سن الثالثة، كان قد تجرع كأسه الحمراء عند كل وجبة. عوّدناه ذلك شيئًا فشيئًا. ولم يكن القصد إيذاءه. كفاية، هذا حسن، لكنه مبالغ فيه.

عندما بلغ التاسعة شرع يشرب يوميًا لتره، وفي كثير من الأحيان يحتسي لترًا ونصف اللتر. كيف تريد أن يستفيد الطفل عندما لا يجد شيئًا. خاصة أن مزاجه

يخالف مزاجي. لقد كان دائمًا ضعيفًا ومنفعلًا وقذرًا ومتقيحًا. لكن، ما كان يبقيه حيويًا هو لتره الصغير الذي يشربه كل يوم. أجبر الآن على شرب الماء. أليس هذا مثيرًا للغضب. لا يزال ابني فتى، وسيكون لديه الوقت لتعويض ما ضاع. لكنني أنا رجل تجاوز الخمسين، أشرب لترًا في الأسبوع. سحقًا!

كلا. رضينا بلتر. ولكن انتظاره لأيام. هذا لن أستطيع تحمله مطلقًا!

وهنا قال يهودي:

- أنا، أنا يهودي.

قالت فتاة صغيرة:

- أنا، كنت في السادسة عشرة عندما اندلعت الحرب في عامها الأول. أتذكر باريس عندما كان عمري ستة عشر عامًا. يا لتلك السنة! كان الناس في الشوارع، والضوضاء، والمتاجر، والسيارات التي لا نهاية لها بأبواقها المنشدة على موسيقى الجاز. كان كل الرجال في العشرين من العمر.

عندما كنا نغادر المدرسة برفقة صديقاتي، كان يجدر بنا أن نشق طريقنا بين الحشد، ولكي يسمع بعضنا بعضًا، كنا نتحدث بصوت عالٍ ضاحكات صائحات. عند مفترق الطرق، كان رجال الشرطة ينتظروننا، كنا صغار السن. يمدون لنا أيديهم كما لو كنا نرقص الباليه، فتصطف السيارات لرؤيتنا ونحن نمر، وعندما نغادر - إذا أسعفتني الذاكرة جيدًا- كان رجال الشرطة يهدوننا الورود والياسمين والأزهار البرية. وعند عودتي إلى المنزل، كنا نعبر شارع فرانكور، الطريق الجميل. وعندما نقترب من ساحة كليشي، نخفف السير، بسبب الصحافة وأيضًا لضرورة الرد على كل الابتسامات. كان الفتيان دائمًا بالمرصاد بأعداد كبيرة، وكانوا كلهم يرتدون أحذية ملونة ومناديل جيوب حريرية ولهم وجوه ملائكية. يا لسحر نظراتهم إلينا، أحيانًا بأعين زرقاء، تارة بأعين سوداء، وأحيانًا أخرى برموش ذهبية. لم نستطع سماع كل ما قالوه، سمعنا كلمات فقط: الحب، والقلب، وغدًا، أو حتى الأسماء الأولى كانت دائمًا أسماءنا. لقد جاؤوا من أجلنا، وعرفوا أنه في يوم من الأيام ستحدث أشياء

لن تنتهي أبدًا. كانوا يجتمعون على شرفات المقاهي أطول مدة ليلاحقونا بأعينهم، ويلقون علينا الأزهار والأطيار والكلمات التي تهز قلوبنا هزًا. على جسر كولاكور كنت حقًا نشوى قليلًا، كان الفتيان يغنون في رأسي. لا أزال أتذكر شهر يونيو، على الجسر، كانت الشمس مشرقة، الموتى في المقبرة تفوح منهم رائحة أزهار المروج كما لم يحدث من قبل، كان الفتيان يسيرون ببدلات صيفية خفيفة وكانت الحياة في غاية الطراوة لدرجة أنني أطلقت صرخة حيوية، واندفعت بقدمي عاليًا، راغبة في مغادرة الأرض بعيدًا، لكن صديقتي جانيت كوتوريبه هي من أمسكت ساقي. وقد أخذتها على ذلك مدة طويلة. أجمل لحظة في العودة كانت صعود شارع كولانكور. في ذلك الوقت، كانت السيارات تدور بشكل حلزوني حول الهضبة. شكلت السيارات المصطفة على طول الأرصفة خطًا مزدوجًا باللون الأزرق يتلوى مثل الدخان، وكان للسماء انعكاسات وردية. إذا لم تخني الذاكرة، فيمكنكم أن تنبهوني، لكني أتذكر أن الأشجار كانت تحتفظ بأوراقها على امتداد فصول السنة كلها.

كان شارع كولانكور أقل ازدحامًا مما هو عليه الحال فوق الجسر، لكن الفتيان كانوا في النوافذ وأبواب السيارات، وفوق الأشجار خاصة. لقد أمطرونا بالتنهدات ورسائل الحب والأغاني الرقيقة لدرجة أن أعيننا تغرورق بالدموع. عندما أعود إلى المنزل، أجد دائمًا خمسة أو ستة من أبناء عمومتي، من المفترض أنهم قدموا من أجل رؤية أخي. كنا نلعب حد الضحك ونتبادل القبلات قليلًا.

الآن أستطيع قول ذلك. في الليل، حلمت أني حصلت على شهادة البكالوريا، ومن أجل مكافأتي منحتني المديرة فرصة اختيار عاشق مدى الحياة من بين أكثر من مئة فتى وسيم. اليوم، سنواتي الست عشرة صارت من الماضي البعيد.

قُتل أخي في الحرب، وأبناء عمي سجناء، واستقل أصدقائي القطار في محطة الشمال. كنا نلتقي بعض الشباب الذين فضلوا البقاء، نلتقيهم أحيانًا، لم يعودوا ينشغلون بنا. إنهم لا يروننا. الشوارع فارغة ورجال الشرطة تقدموا في السن. شارع كولانكور لم يعد حيويًا كما كان، وفي الشتاء تكون أشجاره عارية.

هل تعتقدون أن الحرب ستستمر طويلًا؟

لم تنبس المرأة الرابعة عشرة بكلمة واحدة، لأنها ماتت فجأة بين أصدقائها الجدد. كانت امرأة شابة، زوجة سجين، لديها ثلاثة أطفال، تعيش بؤسًا وكربًا وتعبًا. ذهب أصدقاؤها الجدد إلى دار البلدية لاستكمال الإجراءات، فسمع أحدهم من موظف ردًا مفاده أن التوابيت لم تعد متوافرة لدفن سكان الدائرة الثامنة عشرة، فاحتج على أنها زوجة سجين. «ماذا تريد مني أن أفعل؟ لا يمكنني أن أتحول إلى تابوت»، لاحظ المرافق. فتشنا في الحي، ولم نجد في محل بورنيول أي شيء على الرفوف. عرض صانع حلويات شراء تابوت من خشب التنوب بمبلغ خمسة عشر ألف فرنك، لكن الأيتام أحق بالمال والأصدقاء لم يكونوا أغنياء. ثم عرض نجار صادق صناعة تابوت جيد مقلد من رقائق الخشب الصناعي. في انتظار ذلك، تلقى مجلس المدينة توابيت جديدة، فأمكن دفن المرأة الشابة بطريقة حافظت على كرامتها.

رافق أصدقاؤها جنازتها. وعند مغادرتهم المقبرة، جلسوا في مقهى حيث قُدم لكل منهم لقاء تذكرته مئة غرام من الخبز، وسندوتش من القُلقاس. وما كادوا ينهون طعامهم حتى أثار انتباههم أحد الضيوف إلى أن عددهم أضحى ثلاثة عشر شخصًا، وبذلك فمن المتوقع أن يحدث لهم مزيد من المصائب.

Telegram:@mbooks90

---

(1) تعبير مجازي شائع في اللغة الفرنسية.

(2) قائد ومحارب مشهور من بلاد الغال تمرد على الحكم الروماني.

(3) مسرحية لفيكتور هوغو Burgraves